إميل درمنغم

الشخصية المحمدية

السيرة والمسيرة

ترجمة عادل زعيتر

الشخصية المحمدية

http://www.al-maktabeh.com

اسم الكتاب : الشخصية المحمدية
السيرة و المسيرة
الكاتب : إيميل درمنغم
ترجمة : عادل زعيتر
الطبعة الثانية / ١٩٤٩
الطبعة الثالثة / ٢٠٠٥

جميع حقوق النشر محفوظة

الناشر : الشعاع للنشر و التوزيع
٣شارع ٢٨٨ من شارع الجزائر - المعادى
ت/ ٥١٦٢١٩٠
المدير المسؤل / عمرو بيومي

رقم الايداع / ٢١٣٤٦ / ٢٠٠٤

الشخصية المحمدية

السيرة و المسيرة

الكاتب : إيميل درمنغم

ترجمة : عادل زعيتر

المحتويات

مقدمة المترجم 9

مقدمة المؤلف 11

الباب الأول

مكة

الفصل الأول 19

سلمان الفارسي

الفصل الثاني 35

عام الفيل

الفصل الثالث 47

حرب الفجار

الفصل الرابع 59

خديجة

الفصل الخامس 69

البعثة

الفصل السادس 87

التعذيب

الفصل السابع 101

البعث

الفصل الثامن 113

إسلام حمزة وعمر

الفصل التاسع 119

النصرانية والإسلام

الفصل العاشر 139

عام الأحزاب

http://www.al-maktabeh.com

الباب الثانى
المدينة

الفصل الحادى عشر الهجرة (622)	153
الفصل الثانى عشر مدينة النبى	165
الفصل الثالث عشر غزوة بدر	181
الفصل الرابع عشر مكة تستعد للثأر	203
الفصل الخامس عشر اليهود	219
الفصل السادس عشر أحد	229
الفصل السابع عشر الخندق	245
الفصل الثامن عشر رسول الله	255
الفصل التاسع عشر زينب	273
الفصل العشرون عائشة وعقدها	281
الفصل الواحد والعشرون الحريم	291
الفصل الثانى والعشرون النصر	305
الفصل الثالث والعشرون حجة الوداع	327
الفصل الرابع والعشرون الوفاة	339

بسم الله الرحمن الرحيم

يضع المستشرق الفرنسي إميل درمنغم في سنة ١٩٢٩ كتاباً عن سيرة السيد الرسول فيسميه "الشخصية المحمدية" وننقل هذا الكتاب الي العربية في أثناء الحرب العالمية الثانية، ونطبعه في سنة ١٩٤٥ على ورق عادى لفقدان الورق من الأسواق السُّود وغير السُّود مُوطنين أنفسنا على إعادة طبعه على ورق جيد حين زوال المانع.

وُنعنى فى الترجمة بالأسلوب مع المحافظة على المعنى ومقاصد المؤلف، ويقبل القراء على الكتاب وينال تقدير الكُتّاب بما نشروه عنه من المقالات، ومن ذلك:

"كتاب "الشخصية المحمدية" مشرق الأسلوب واضح الترجمة، حافل بتلك السيرة العظمية، تناولناه للتصفح، فإذا بنا لا نستطيع طيه قبل إتمام قراءته صفحة صفحة وجملة جملة، بحث غزير منسجم وسرد بديع وانتقال في أرجاء تلك الحياة العامرة الأخاذة، للباحث كفايته من البحث، ولمحب الرواية حاجته منها، ولتلميذ التاريخ مجاله الرحب، وللقارئ العادى ما شاء من فائدة .. (الدفاع)"

وأرسل نسخة من الكتاب إلى شقيقي الأصغر "أكرم زعيتر"، وقد كان مقيماً بمدينة بورسة التركية فراراً من الجور الإنكليزي، فيكتب إليّ :

"لقد قرأت الكتاب وأنا فى محنة نفسية واكتئاب ذاتى، ولدهما طول الغربة على غير مسوغ، واكتناز هموم فى الصدر يمت بسبب إلى دخولى فى العام الخامس من وجودى فى هذه البلاد، وإذا بسيرة الرسول تفرج الغم فينفرج، وإذا بى أمام معين للصبر لا ينضب، وإذا بسيرة سيد أولى العزم تملأنى رضاءً عما أنا فيه وتطلعاً إلى ما أنا إليه، ومن تكن أسوته فى رسول الله فلن يقنط من رحمته، ومن أخذ نهج النبى فلن يضل ولن يغوى، إذن، لقد جاء كتابك علاجاً روحياً استشفيت به وسيستشفى به كل من وقع فى ضيق من أمره وكانت هجرته إلى الله ورسوله.. إنى أقدر مدى الجهد الجبار الذى بذلتموه فى استقاء المصادر العربية وتزويد القارئ بالنصوص الأصلية الحقيقية للأقوال، ولو لم يكن اسم إميل درمنغم على الغلاف ما صدق أحد أن هذا الكتاب مترجم من لغة أجنبية، بل قد يشك فى أنه كتاب

كاتب عصرى حديث، ويظن أنه كتب فى عهد الأحداث المدرجة أنباؤها فيه، لأنه ينقلك بأسلوبه ولغته واصطلاحاته إلى ذلك العهد نفسه.."

وتضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، ونفكر فى إعادة النظر فى الترجمة مبتعدين عن التجوز، ونقضى أياماً كثيرة فى هذه السبيل، كانت الحال التى نعرض بها هذه الطبعة الثانية.

ولم يشر إميل درمنغم إلى محال النصوص التى اقتطفها من كتب الحديث والسيرة والتاريخ والأدب، وهى تعدل ثلث الكتاب، فكنا نضطر إلى البحث عدة ساعات فى تلك الكتب الكثيرة كى نعثر فيها على النص العربى الأصلى للعبارة الواحدة، وكثيراً ما رأينا الأمر الواحد يرد فى غير كتاب بعبارات مختلفة فكنا نضطر إلى المقابلة بين هذه العبارات وما عول عليه المؤلف منها فنقضى فى ذلك وقتاً غير قصير، ووجدنا فى الكتاب جملاً قليلة لم نعثر لها على أصل فيما لدينا من المصادر العربية، فنرجح أن أكثرها من صوغ المؤلف بعد اعتماده على ما جاء فى تلك الكتب من الأقوال، شأن المعاصرين من مترجمى الأحوال، فاضطررنا إلى ترجمتها من الفرنسية مع وضع إشارة (*) عليها فى أماكنها تنبيهاً للقارئ.

فنطمع أن تكون هذه الطبعة الثانية خيراً من الأولى وأن تمتاز عنها بالوضوح والدقة فلا يضيع فيها معنى ولا يضطرب فيها لفظ، والله الموفق

"نابلس" عادل زعتر.

مقدمة المترجم

فى الطبعة الأولى

إن مما تناوله كتاب العرب المعاصرون درساً وتدقيقاً سير العظماء ولا سيما سيرة الرسول الأعظم، وقد ساروا على طريقة المستشرقين التحليلية فى ذلك، مع اختلاف الفريقين فيما انتهوا إليه من النتائج فى الغالب.

وعلى كثرة ما ألفه المستشرقون من الكتب عن حياة السيد الرسول فى مختلف اللغات الراقية، وعلى كثرة اعتماد كتابنا عليها، أرى اللغة العربية خالية من ترجمة لكتاب مستشرق فيها.

وقد تجنى المستشرقون على الحقائق فى سيرة الرسول لا ريب، فكان تجنيهم هذا عاملاً فى زهد كتاب العرب عن نقل ما ألفوه إلى العربية على ما يحتمل، ولكن عطل اللغة العربية من ذلك يعد نقصٌ فى حركتنا العلمية على كل حال، فمن المفيد أن يطلع من لم يجد غير العربية من علماء العرب وكتابهم على أفكار المستشرقين فيما ألفوه عن السيد الرسول، لما قد يؤدى إليه ذلك من توسيع دائرة البحث ودحض ما تنكب به المستشرقون عن سبيل الحق والصواب.

ومهما يكن الأمر فإن كتاب "الشخصية المحمدية" الذى ألفه الأستاذ إميل درمنغم والذى نعرض ترجمته أكثر الكتب التى ألفها الغربيون عن الرسول الأعظم اعتدالاً، فقد حاول فيه "أن يؤلف سيره صادقة ناطقه للنبى مستنداً إلى أقدم المصادر العربية غير غافل عما جاء فى الكتب الحديثة".

والمؤلف مع ما ساده من حسن النية لم تخل سوانحه وآراؤه من زلات، وقد وددت أن أعلق عليها بعض حواشى لو لم يخرجنى ذلك عن دائرة الترجمة، وعرض ترجمة هذا الكتاب هو مقصدى الآن، فأرجو ألا يظن القارئ أننى أشاطر المؤلف جميع ما ذهب إليه من الأمور التى أرى أن الحقيقة غابت عنه فى كثير منها.

مقدمة المؤلف

لم يشك أحد، بعد، في ظهور النبى العربى محمد، ولم يفكر أكثر النقاد تطرفاً فى إنكار وجوده، وتحاط سيرته، فى زماننا، بكثير من التحفظات، ولا ريب فى مجاوزة النقد للحد، أحياناً، على وجوه مختلفة مع الأسف،ولكن من المؤكد أنه لا يحدث اليوم عن شخصية محمد بتعابير ووجهات نظرٍ كالتى جاءت فى كتب التراجم الأخيرة التى ظهرت فى المكتبة الفرنسية منذ خمسين سنة ككتاب وشنغتن إرفنغ.

وقد أردت بهذا الكتاب أن أؤلف سيره ناطقة صادقة للنبى مستنداً إلى أقدم المصادر العربية غير غافل عما جاء فى مؤلفات المتخصصين الحديثة فعد مكتسباً، وقد شئت أن أرسم لمحمد صورة مطابقة لما وصف به فى كتب السيرة ولما يجول فى نفوس أتباعه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فإذا كانت كل نفس بشرية تنطوى على عبرة وإذا كان كل موجود يشتمل على عظة فما أعظم ما تثيره فينا من الأثر الخاص العميق المحرك الخصيب حياة رجل يؤمن برسالته فريق كبير من بنى الإنسان!

وأول المصادر لتبيان شخصية محمد هو القرآن وكتب الحديث والسيرة، والقرآن، وهو الأساس والمنبع الجوهرى، أصح هذه المصادر ولكنه أوجزها، وكتب الحديث، وهى ما احتوت ما جمعه المحدثون، ولا سيما البخارى، من أدق أقوال النبى وأدق أعماله بعد تمحيص ظاهر أسانيدها، دون حقيقة أمرها، لا تخلو من ميل وشبهة أحياناً، ولا ريب فى أن كثيراً من الأحاديث التى هى أساس تناجز مختلف المذاهب موضوع ولم يبال فى عزو رأى مبارك أو حكمة صائبة إلى النبى، واقتطفت أقوال سلبية أو إيجابية من الكتاب المقدس فأسند إليه هذا النص من التوراة أو ذلك النص من الإنجيل، ووضع على لسانة ما يدحض به هذا المذهب أو ذلك المذهب النصرانى، ونسب إليه ما يشك فيه من المعجزات، وهو الذى لم يقل إنه جاء بها.

وليس من السهل فى كل وقت أن تستنبط الحقيقة من الأحاديث التى لا يكاد عددها يحصى وإن لم يكن ذلك مستحيلاً إذا استطاع الباحث أن يقف على أسباب الوضع فيها،

http://www.al-maktabeh.com

فإذا حذف من الأحاديث ما يأباه العقل وما هو منتحل وما أملاه الغرض بقى عدد كبير منها جديراً بالتقدير راجحاً قريباً من الصدق عند مقارنته بمصادر أخرى كطبائع البلد، وإن لم يكن صحيحاً صحة الحقائق الرياضية التى لا عهد للتاريخ بمثلها إلا قليلاً، خلا خطوطه الأساسية، قال سنوك هورغرونجه: "إن ما يناقض كل نهج قويم دحض الحديث الذى لم يقم دليل على أنه وليد الغرض والذى لم يوجد سبب تاريخى ينقضه".

وفى كتب السير، ومنها سيرة ابن هشام القديمة المقتبسة من ابن إسحاق والتى هى أهمها فى نظرى، وفى مؤلفات الواقدى وابن سعد والحلبى وأبى الفداء والطبرى والمسعودى إلخ، أحاديث ضعيفة لم يألوا جهداً فى ترتيبها منطقياً تاريخيا مما يصعب عمله فى الغالب، ونعترف، مع ذلك، باشتمال هذه المؤلفات، ولا سيما الأولى منها، على ما هو صحيح، وهى التى لم تكتم ما يصدم الشعور كما أنها لم تكتم عثرات النبى، وتسربت فى سيرة محمد عوامل الميل والهوى مع الزمن، وكان لبعض المفكرين، كابن خلدون فى القرن الخامس عشر مثلاً، نظرات طريفة فى أمرها، ثم جددالمعاصرون (محمد عبده فى مصر وتلاميذه، وسيد أمير على والمجلة الإسلامية فى الهند) الدراسات الإسلامية إلى حد، ولكن مع تحريف قليل فى سيرة النى وجعلها مثالاً يحتذى ووضع لها فى قالب ملائم لروح الوقت، وذلك مع تحدثهم، فى بعض الأحيان، عن عيس بحرية لا يريدها النبى.

وحالت الأوهام والأباطيل زمناً طويلاً دون درس مصادر الإسلام فى أوربة دراسة علمية، (انظر الفصل التاسع من الباب الأول)، ثم جد فى البحث العلمى بعض العلماء فى القرن التاسع عشر، ومنهم كوسان دوبرسفال وموير وفيل ومرغليوث ونولدكه وسيرنجر وسنوك هو رغرونجه ودوزى، ثم تناوله مؤخراً كايتانى ولا منس وما سينيون و مونته وكازانوفا وبيل وهوار وهوداس وأرنولد ومارسيه وغريم وغولد سهير وغودفروا دومونبين وغيرهم، ومن المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين فى النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم رسماً وكانت كتبهم عامل هدم على الخصوص.

وأما أنا فقد سلكت طريقاً وسطاً بين رواية المتقدمين، كما يمثلها مسيو دينه والسيد سليمان بن إبراهيم، ومغالاة بعض المستشرقين المعاصرين فى النقد، فعولت فى كتابى هذا على المصادر القديمة والنقد الحديث.

ومن المحزن ألا تزال النتائج التى انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النفى، وليس من مقاصد كتابى أن يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة، فمن المستشرقين من قال إن محمداً كان فوق معاصريه مختلفاً عنهم على كل حال، ومنهم من قال إنه كان يشابههم من كل وجه، ومنهم من ذكر أنه مات بداء السكتة لنهمه، ومنهم من زعم أنه مات بالحمى الناشئة عن الصوم الطويل، وأراد بعضهم اكتناه صاحب ذلك الخلق العجيب [الذى قال عنه لا مارتين: "إنه نبى أقل من إله وأعظم من رجل"] فذهب إلى أنه كان مصاباً بالصرع، وذهب سيرنجر، أيام شاركو، إلى أنه كان مصاباً باالخباط[1] الشديد، ثم نقض بابينسكى ذلك وقرر مسيو ماسينون أنه كان متزناً، وحاول فريق ترتيب سُور القرآن ترتيباً تاريخياً فجاءت الجداول غير مطابقة، وصار أمر الحنفاء موضوع جدل فى بعض الأوقات بعد أن كان مسلماً به منذ ثلاثين سنة، ثم قيل بصحة أمرهم بعد نشر أشعار أمية بن أبى الصلت ، ثم أصبحوا حديثاً موضع شك وارتياب، أجل، إن من المرجح أن يكون الحنفاء قد ظهروا بالحقيقة، ولكنه قيل إنهم كانوا يتعبدون على دين إبراهيم الخ.

ومن دواعى الأسف أن كان الأب لا منس، الذى هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، من أشدهم تعصباً وأن شوه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبى الإسلام، فعند هذا العالم اليسوعى، الذى أفرط فى النقد فوجه آخرون مثله إلى النصرانية، أن الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن، فلا أدرى كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة بدلاً من أن يؤيد أحدهما الآخر، نعم، قد يكون الحديث موضوعاً لتفسير آية من القرآن أو لجعلها محمولة على معنى معين أو لتأكيد ظاهر حكمها، ولكن هنالك أحاديث صحيحة على ما يحتمل، فليس على المؤرخ، الذى لا يفكر فى قواعد النقد، إلا أن يركن إليها، ومن هذه الأحاديث ما جاء عن حب

---

[1] الهستيريا.

محمد للعسل مثلاً، فيمكن عزو حبه له وترغيب الناس فيه: إما إلى نص القرآن على أن فيه شفاء للناس، وإما إلى أن محمداً كان يجده غذاء طيباً فيوصى به، وإما إلى أنه نافع بذاته جدير بأن يوصى به، فإذا صح هذا الحب للعسل، وليس لدينا ما يعارضه من النواحى المنطقية والكونية والتاريخية ألخ، فكيف كان يمكن راوى الحديث أن يعدل عن حديث العسل لكيلا يقاسى مثل ارتياب ذلك العالم المعاصر؟ ومهما يكن الأمر فأن كتب الأب لا منس ذات قيمة، فانتفعنا بكتابه "مهد الإسلام" وبتاريخه عن مكة فى كتابة الفصلين الثانى والثالث على الخصوص.

إذن، قد ابتعدت عمداً عما هو ظاهر الوضع وعن المعجزات التى اخترعت بعد وفاة النبى بقرنين وعما هو غير محتمل، وهنالك أمور ممكنة تقبلتها لأهميتها مع أنها موضع شك فأشرت إلى ما فيها من الصحة ومن القصة على شكلٍ، وعلى ما فى سيرة النبى من كل عجيب هى تاريخ واقعى، وقد ترجمت أقوال رجالها بدقة كما جاءت فى المصادر وكتبت ترجمة آى القرآن بحروف مائلة.

وكتب كلمة محمد هكذا: "Mahomet"، لا هكذا: "Mohammad"، وما كنت إلا لأعدل، بعد عشرين سنة، عن هذه التهجية التى ترجع إلى القرن الثامن عشر وتشعر بروحه، وقد اتخذتها، مع ذلك، لما يؤدى إليه من الارتباك فى أيامنا عنوان كتابٍ بكلمة "حياة أبى القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى"، وهنا نذكر أن الاسم الأصلى للنبى هو قثم، فلم يلبث هذا الاسم أن عدل عنه بعد ولادته بوقت قصير، أو حين بعثته، إلى محمد الذى هو لقب نبوى أكثر من أن يكون اسماً، والنبى كان يكنى، لزمن طويل، بأبى القاسم على الخصوص[1].

---

[1] هــذا ما أغرب ما انتهى إليه المستشرقون، وأول من ذهب إلى ذلك سيرنجر مستنداً على ماجاء فى باب "تسمية الرسول" من السيرة الحلبية نقلاً عن الإمتاع من "أنه لما مات قثم بن عبد المطلب قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين، وهو ابن تسع سنين، وجد عليه أبوه وجداً شديداً، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه قثم حتى أخبرته أمه آمنه أنها أمرت فى منامها أن تسميه محمد فسماه محمداً"، فمن هذه الرواية البادية الوضع والتى تدل أقل نظرة إليها، عند قبولها على علاتها، على أن عبد المطلب عدل عن اسم "قثم" إلى اسم "محمد" بعد ولادة الرسول بدقائق معدودات، يرى أن اسم محمد أطلق على الرسول فور ولادته من قبل أمه آمنة، ثم تابع هوشفلد سيرنجر على رأيه ذلك، ولم يعتم كثيرون من المستشرقين أن وجدوا فى هذا فتحاً

جديـداً فأغربوا فى استنباط أبعد النتائج منه، فغدوا يقولون إن الرسول انتحل اسم "محمد" بعد البعثة، وبلغ بعضهم من التعسف التجـنى ما صار يزعم به أن ما ورد فى القرآن من ذكر لمحمد وأحمد قد أضيف إليه فيما بعد، وذلك رداً على الحجة القاطعة القائلة إن أمر الرسالة ما كان ليستقيم لو عدل بعد الرسالة إلى اسم محمد، وفى القرآن: " وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد"، ونفساً على الإسلام بما كان من اشـتمال كلمـة "البارقليط" اليونانية التى وردت فى الأصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا على معنى كلمة "محمد" ، وقد غفل هـؤلاء المستشرقون عما جاء فى السيرة الحلبية التى يستندون إليها من أن بعضهم عد ستة عشر ممن سموا بمحمد قبل ظهور السـيد الرسـول، وجاء فى "اللسان" مع ذلك: "القثم: المجتمع الخلق، وقيل الجامع الكامل، وفى الحديث: أتانى ملك فقال أنت قثم وخلقـك قيم" ، فلا أدرى ماذا يقول المستشرقون عن هذا الحديث الذى يدل على أن كلمة "قثم" جاءت فى معرض خطاب الملك للرسـول بعـد البعثة، وكنت أود أن أفيض فى بيان هذا الموضوع لو لم أر أن ذلك يخرجنى من دائرة الترجمة التى رأيت أن أحصر عملى فيها كما ذكرت فى مقدمتى (المترجم).

http://www.al-maktabeh.com

الباب الأول

مكة

الفصل الأول

سلمان الفارسى

" قد أظل زمان نبى"

كان العبد سلمان يوم الجمعة، السادس عشر من شهر ربيع الأول، الثانى من شهر يوليه سنة ٦٢٢، يعمل لسيده اليهودى فى رأس عذق[1] بواحة يثرب، وكان سيده جالسا تحته يتفيا قبل نحر[2] الظهيرة، فأقبل ابن عم له وقال غاضباً: "قاتل الله بنى قيلة (الأوس والخزرج)، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبى".

قال سلمان: " فلما سمعتها أخذتنى العروة[3] حتى ظننت أنى سأسقط على سيدى".

وينزل سلمان عن النخلة ويسأل ابن عم مولاه ذلك:

ماذا تقول ؟.

ويلكمه مولاه لكمة شديدة وينهره قائلاً:

" مالك ولهذا؟ أقبل على عملك!".

ويقول سلمان: " لاشيء، إنما أردت أن أستثبته فيما قال".

أخذ أهل يثرب ينتظرن قدوم محمد منذ بضعة أيام، فقد علم أنه فر من بلده، ليكون له ولصحبه المهاجرين الملجأ عند الأنصار فى يثرب التى سميت مدينة النبى فيما بعد، فصار أناس من يثرب يخرجون فى كل يوم إلى الحرة[4] لا يبرحونها حتى تغلبهم الشمس على الظلال.

دنا النبى وصاحبه الوفى أبو بكر من يثرب بعد أن اختفيا ثلاثة أيام بغار قريب من مكة، وقطعا الصحراء هاربين ممن خرجوا لردهما، وكان النبى راكبا ناقته القصواء وأبو بكر بجانبه، فأحاط به جمع حمس، ولم يرد شيخ إحدى القبائل المجاورة بريدة أن يدخل النبى يثرب بغير راية فربط عمامته برأس رمح وتقدم النبى، وسار فى الموكب سبعون فارساً

(1) العذق: النخلة بحملها

(2) نحر الظهيرة : أولها

(3) العرواء : الرعدة من البرد والانتفاض

(4) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار.

http://www.al-maktabeh.com

من قبيلة بريدة كحرس شرف ورفعت فوق رأس النبى مظلة من سعوف[1] النخل، ومشى الأنصار حول النبى هازين سيوفهم وحرابهم هاتفين مقسمين على الدفاع عنه ضد أعدائه.

كان النبى قوى الروح شديد الحزم مروع القامة متناسب الأعضاء متين الرأس واسع الصدر شثن[2] الكفين والقدمين مع متانة ونعومة أسمر البشرة نير الخدين بلا حمرة ذا شعر غير جعد ولا أملس، فلم يكن توالد العرب والزنوج آنئذ مؤثرا كثيرا فى صفاء العرق العربى، ولم يكن لهذا التوالد كبير أثر فى النبى. وكان النبى مرسل الشعر إلى ما تحت أذنيه مهذب الشارب تمييزا له عن المشركين ذوى المفارق فى وسط رؤوسهم ومحاكاة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكانت لحية النبى كثة سوداء بارزة تحت شفته السفلى، وكان النبى مربع الوجه عريض الجبين، وكان بين حاجبيه الأزجين عرق أزرق ينتفخ أحيانا عند الغضب، وكان النبى أقنى الأنف واسع الفم، فيبدو تحت العمامة وضيناً جليلاً حليما، وكان الناظر إليه يشعر بأنه، وهو الموهوب، خُلق للقيادة وليطاع إطاعة عمياء، فوجد الأنصار فيه المولى.

أعجب الأنصار بكل ما فى النبى، أعجبوا بنبله وبلطفه وبقوه التى لا تكاد تقاوم وباحتماله ما أوجب هجرته إليهم من الشدائد، فاعتصموا به، وهم الكرام الأخلياء، أكثر من اعتصامه بحمايتهم له، واعتنقوا مقدما دينه، وهو الطريد الذى غدا ضيفهم وسيدهم.

وصل النبى إلى الضواحى فوقف ثانية وترجل وصلى بالجماعة مستقبلا بيت المقدس فى الشمال، ثم ركب ناقته ودخل يثرب مع إبتهال أهل تلك الضواحى إليه أن يقيم عندهم.

وأراد النبى اجتناب اختيار المنزل الذى يحل به ضيفا فألقى لناقته خطامها[3]، فمرت من بعض الطرق الضيقة وجاوزت بعض الأماكن المكتظة ثم بركت فى المكان الذى أقيم

---

(1) سعوف: جمع سعف وهو جريد النخل وقيل ورقة وأكثر ما يقال إذا كان يابساً، فإن كان رطبا فهو شطبة، الواحدة سعفة،

(2) شثن : غليظ

(3) الخطام : حبل يجعل فى عنق البعير.

عليه المسجد المدنى بعدئذ فنزل النبي عنها وتقدم بضع خطوات، ثم أسرع بخطا قوية موزونة مائلاً قليلاً إلى الأمام كأنه طالع جبلا، وفسح حرسه له فى الطريق وصار يحيى الناس، ومنهم الصبيان، بلطف مبتسما مظهراً ثناياه البيض المنفصل بعضها عن بعض انفصالا خفيفا، ودخل بيت أبى أيوب ريثما تبنى له ولزوجاته غرف حول قاعة الصلاة.

وهكذا أوشكت أن تظهر فى بلاد العرب دولة جديدة قائمة على أسس دينية بعيدة من المبادئ القبلية والعشرية.

ومن الناس رجال يبحثون عن الحقائق، وفى هذا العالم المعقد المضطرب، الذى لا تجد فيه خيرا لم يمزج بشر ولا جمالا لم يمزج بشوه والذى يبدو الحر الأمين فيه بمعزل من الآخرين، أناس لا يطيقون غير حياة الحقائق، فالمظالم والأباطيل تؤذى مشاعرهم، وروح العدل وحب الاطلاع الجلى يجيشان فى صدورهم.

ومن هؤلاء سلمان الفارسى الذى جد فى طلب الحقيقة، فسلمان هذا ولد - والله أعلم - فى قرية قريبة من أصبهان، وكان أبوه دهقان[1] قريته، فشب على المجوسية حتى صار قطن[2] النار الذى يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة ما وجب أن تظل هذه النار المقدسة، التى هى عنصر الإله هرمز القاهر لظلمات أهرمان، متصاعدة اللهب فى سماء إيران لتكون شاهدة ليل نهار على مكافحة النور والحياة لقوى الشر المظلمة المهددة لهما وظفرهما بالموت فى آخر الأمر.

وكان الشاب التقى سلمان يسبح بحمد الآلهة ويقدس لها، وكان يطهر نفسه ببول البقر ويتعلم أحكام زرادشت، ولكنه كان يشعر باحتياجه إلى أمر آخر فيضطرب قلبه أحياناً.

ويروى أنه كان صديقا لأمير من البيت المالك، وأنه كان يذهب معه إلى الصيد بين حين وآخر، وأنهما كانا يصطادان فى الصحراء يوما مستعينين بكلاب الصيد وصقوره فمرا راكبين بشيخ جالس أمام خيمة مصنوعة من وبر الجمل وهو يقرأ كتابا باكيا، فسألاه عن

---

(1) الدهقان: شيخ القرية العارف بالفلاحة وما يصلح بالأرض من الشجر يلجأ إليه في معرفة ذلك.

(2) قطن النار : هو خادمها الذى يخدمها ويمنعها من أن تنطفى.

خطبه من فوق حصانيهما، فنظر إليهما بعينيه الدامعتين وقال لهما بعد قليل صمت شاعراً بعطف في حبهما للاطلاع لا ريب:

" على من يطلب العلم ألا يظل مثلكما راكباً، فإذا كنتما راغبين في معرفة ما في هذا الكتاب وجب عليكما أن تترجلا*".

هنالك اعتذر الصائدان وقال لهما الشيخ:

" هذا كتاب أنزله الله وأمر فيه بإطاعته وبعبادته وحده وباجتناب الفواحش والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل *".

كان الشيخ نصرانياً نسطوريا يقرأ الإنجيل، وكان للنصرانية في بلاد فارس أتباع، وكانت النصرانية تحيط ببلاد العرب الوثنية: تحيط بها من الجنوب بنصارى اليمن ونجران، ومن الغرب بنصارى الحبشة ومصر، ومن الشمال الغربي بالروم وأتباعهم الغساسنة، ومن الشمال الشرقي بنصارى الحيره التي كان يملكها اللخميون مع أتباعهم أكاسرة الفرس، ولكن الفساد كان يقوض النصرانية في الشرق، فتمرقها الفرق المتناجزة[1] وتقوم الصيغ المجردة في مذاهبها مقام الإيمان الحي.

وبينما كانت سورية قائلة بطبيعة واحدة في المسيح عرفت بلاد العراق وفارس المذهب النسطوري في القرن الخامس والقرن السادس من الميلاد، وأقيمت كنائس في نصيبين وجند يسابور وكشغر وطيسفون عاصمة الأكاسرة من بني سأسان في فصل الشتاء.

وكان ينظر إلى النصارى وكنائسهم وقساوستهم بعين التسامح على أن يكتتموا وإلا يثيروا غيرة كهان المجوس.

أثر ذلك الشيخ الكتابي في سلمان الفارسي كثيرا، فقال سلمان في نفسه: أمن الجائز اتصال رب الأرباب بني الإنسان اتصالا مباشراً ؟ أفينطوي ذلك الرق على آثار الوحي

---

[1] المتناجزة : المتقاتلة المتبارزة.

العجيب؟ ساور سلمان ذلك وأعجب بأدب يضع محبة الله العلى ومحبة الناس فوق كل شىء.

عرف سلمان رجالا من النصارى، فصار يذهب إلى كنيستهم ويستمع إلى صلواتهم وأناشيدهم ويسر منها ويود لو يشاركهم فيها، وقد قال : "هذا خير من الدين الذى نحن عليه"، ولم يبرح الكنيسة ذات مرة حتى غربت الشمس، مهملاً القيام بما أوصاه به أبوه ثم أباح لأبيه سر ما يساوره، فقال له أبوه.

" أى بنى ! ليس فى ذلك الدين خير، دينك ودينُ آبائك خير منه".

لم يَرْض سلمان الشاب بذلك، فعمل أبوه على منع اتصاله بالنصارى، ويقال إن الملك شعر بمثل ذلك فى الأمير الصديق لسلمان عند ما امتنع عن أكل لحم الضحايا على المذابح فى إحدى الولائم، فأمر بنفى الراهب وأصحابه غاضباً.

عَّن سلمان أن يلحق بالمبعدين الذين قرأ في كتبهم، لا ريب، أن على المرء أن يهجر أبويه عند الضرورة ليجد الحقيقة، ومما سمعه قولهم: إن فى الشام ازدهار ذلك الدين انجذب إليه كثيرا، فعزم سلمان على الهجرة إلى الشام، فسافر إليها مع ركب أنباه من بقى فى البلاد من النصارى.

وصل سلمان إلى دمشق، فسأل عن أفضل أهل هذا الدين علماً، فقيل له إنه الأسقف فى الكنيسة، فجاءه وقال له:

" إنى قد رغبت فى هذا الدين، فأحببت أن أكون معك، وأخدمك فى كنيستك، فأتعلم منك وأصلى معك".

رضى الأسقف بذلك، ولكن سلمان لم يلبث أن خاب أمله، فقد وجد ذلك الأسقف رجل سوء، يأمر بالصدقة ويرغب فيها، فإذا جمع القوم إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين.

ثم مات الأسقف، فاجتمع إليه النصارى ليدفنوه، فثار سلمان الفتى فدل القوم علي كنزه، فلما رأوه اشتاطا غيظا ورجموا جثته بالحجارة.

http://www.al-maktabeh.com

ثم جاء القوم برجل آخر فجعلوه مكانه فقر سلمان به عينا، فلم ير من هو أفضل منه صلاة ولا من هو أزهد منه فى الدنيا فأحبه حبا جما وأقام معه زماناً، وأراد سلمان أن يقلده فبلغ من التقشف ما نصحه به مولاه ذات يوما قائلاً:

" أرفق بنفسك وخفف عنك فضر الغلو فى التقشف أكثر من نفعه أحياناً * ".

سلمان: " لكلامك مكان فى القلب، ولكن، أى الأمرين خير من الآخر؟ ما صنعته حتى الآن أو الذى تشير به على ؟ * "

الأسقف : " ما صنعته حتى الآن لا ريب * ".

سلمان: " إذن، دعنى أدوام عليه *".

فسلمان من أولئك الذين تصبو نفوسهم إلى صنع ما فيه قدر عظيم.

ثم سافر سلمان إلى القدس حاجاً، ثم حضرت الأسقف الوفاة، فقال له سلمان:

" إنى قد كنت معك، وأحببتك حبا لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ "

فقال الأسقف:

" أى بنى ! والله ما أعلم أحدا على ما كنت عليه، فقد هلك الناس، وبدلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل، فالحق به".

فلما مات الأسقف لحق سلمان بصاحب الموصل الهرم وأقام عنده، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قال له سلمان:

" إن أسقف دمشق أوصى بى إليك، وأمرنى باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟"

فأمره صاحب الموصل باللحوق برجل صالح (بنصيبين)، فوجده خير رجل على أمر صاحبه، فلما حضرت الوفاة هذا الرجل الصالح أشار على سلمان بأن يأتى رجلا من أرض الروم.

بلغ سلمان أرض الروم و اكتسب وبقى هنالك ما شاء الله أن يبقى، ثم مات مولاه الأخير فعزم على الذهاب إلى بلاد العرب، فحمله إليها تجار من بنى كلب، حتى إذا بلغ هؤلاء الخائنون (الذين وطنوا أنفسهم على الاغتناء من كل ناحية، حتى من ناحية بيع الرجال كأجدادهم الذين لاقاهم أخوة يوسف بن يعقوب) واحات وادى القرى الخصيبة قاطعين للصحراء ما رين من أرض مدين باعوه من يهودى من بنى قريظة من يثرب التى سميت بالمدينة فيما بعد.

سيق سلمان إلى يثرب، وشراه من ذلك اليهود ابن عم له، وعاش فيها رقيقا عاملاً فى نخل مولاه، وصار سلمان يحرس جمل ناعورة البئر، التى هى أثمن من مناجم الذهب والفضة فى تلك الديار، لصب الماء فى القنوات الصغيرة الموزعة، مع إدارة دقيقة بين مختلف الأملاك، ولم يكن هنالك بد من سقى تلك الأملاك باستمرار منعا لها من الجدب بفعل الشمس المحرقة ورسوب الأملاح، ولم يكن هنالك مناص من مراقبة البعير الساقى والقرب التى تهبط وتصعد راشحة على الدوام.

كانت واحة يثرب غنية خصبة على وجه شاذ، فتظل مخضلة[1] بفروع وادى أدهم وبالآبار والقنوات وبالماء المتجمع بين الصخور البركانية التى جعل انحلالها أراضى يثرب منبته ذات زرع.

ولكن الحمى، وأمرها معروف فى بلاد العرب، كانت ثمن خصب أراضى يثرب وخضلها، فكان لابد لكل غريب يقصد أراضى يثرب من دفع ضريبة هذه البرداء[2] المؤذية، وكانت مياه أراضى يثرب الراقدة ومياه آبارها التى يسيل إليها براز القطاع فى الغالب تصفر

---

(1) أخضل الشيء. صار نديا بليل، من خضل الشيء بمعنى ندى.

(2) البرداء : الحمى.

كالحناء فيمرض شاربها ولو كان من الجمال ، وما كانت البطاح[١] لتأتى، على العموم، بغير الماء الآسن[٢] النتن.

جد يهود يثرب فى زراعة النخيل على الخصوص، وسكن عرب من اليمن واحة يثرب أيضا، فلم يلبثوا أن صاروا أكثر من أتباع موسى عدداً، وانقسم عرب يثرب إلى القبيلتين: الأوس والخزرج، فصار لهؤلاء الذين هم أكثر عددا، محالفات خاصة مع القبائل اليهودية: بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع.

وحط هواه يثرب الوخيم حضرييها من العرب فنشأوا زراعاً متثاقلين مع نحافة، فلم يكن عندهم من روح الإقدام والهمة التجارية ما عند قريش مكة، التى هى مدينة الحجاز المهمة الأخرى، فآثرت من المضاربات المالية والرحلات التجارية، وكان الأوس والخزرج يهزأون بقريش مع إعجاب فيضحكون من بطونهم ذات الكنوز، وكان قريش مكة الطمعاء البخلاء يسخرون من عرب يثرب الزراع مع ضحك من تثاقلهم ونهك البرداء لهم وتفوق اليهود عليهم.

ظل سلمان الفارسى يخدم مولاه اليهودى عدة سنوات، ولم يجد فى يثرب. ما يسليه عن سورية المتمدنة ولا عن قسوسها الأتقياء، ولم يؤذ ما فى اليهودية من تعصب قومى شعوره بأقل من إيذاء وثنية العرب الذين كانوا يعبدون الصنم الحجرى ذا الظل البشرى مناة ويخضبونه بالدماء فى أوقات معينة.

هزت حركة دينية عجيبة يثرب بعد وصول سلمان إليها باثنتى عشرة سنة، فتحدث القوم فيها عن ظهور نبى فى مكة راغب فى كب الأصنام، محدث عن الله وملائكته، تال لآيات موزونة بليغة مؤثرة يبكى الكثيرون ممن يسمعونها، وعلم الناس فيها أن ذلك النبى ينذر الكافرين عذابا ينزل من السماء ويتكلم عن اقتراب الساعة وأهوال الآخرة وعذاب النار ونعيم الجنة بما يقلب الخيال.

---

(1) البطاح: جمع بطحاء وهى مسيل واسع فيه دقاق الحصى.

(2) آسن: من آسن الماء، تغير فلم يشرب.

وذاع فى يثرب أن قريش مكة يؤذون النبى ويسخرون منه ويقولون أنه مفتون أو مجنون، وذاع فيها أنهم يأتمرون به ليقتلوه وأنه قد يهاجر إليها طلبا للحماية، ومما حدث أن نفرا من أهل يثرب ذهبوا إلى مكة ليزوروا الكعبة المقدسة وأنهم اجتمعوا بالنبى ورجعوا حمسا بعد أن بايعوه راجين أن يقيم بيثرب، وأن النبى أرسل إلى يثرب من يعلمون الإسلام وينشرونه وينظمونه.

ومن هؤلاء مصعب بن عمير، وكان منزله فى يثرب على أسعد بن زرارة وكان يجتمع إليه في دار أسعد هذا أو فى دار بنى ظفر رجال ممن أسلم فكانت له فى ذلك منعة[1].

ومن أهم الساخطين على ذلك سعد بن معاذ وصديقه أسيد بن حضير، وأسيد هذا أخذ حربته، ذات يوم، وأقبل إلى حيث كان مصعب بن عمير يقوم بمواعظة فوقف عليه متشتما قائلاً:

" ما جاء بك إلينا تسفه ضعفاءنا، اعتزلنا إن كانت لك بنفسك حاجة" فقال له مصعب برفق : " أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره".

فقال أسيد متذمراً : " أنصفت "، ثم ركز حربته وجلس إلى مصعب مقطبا مع قليل هدوء، وكان مصعب جالسا وسط حلقة من المستمعين لمواعظه، وكان يحيط بهذه الحلقة حلقة أخرى من الحراب والمزاريق.

قال مصعب بصوت منسجم موزون مؤثر " بسم الله الرحمن الرحيم". ثم تلا مصعب بصوت رخيم آيات من القرآن رائعة لينة يترنح من انسجامها تأثرا سامعوها من العرب، المرهفى الحس تجاه كل موسيقى وكان شعر، فيشعرون بريح طيبة تأتيهم من عالم آخر كله عظمة وجمال:

" الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين..."

---

(1) المنعة : العز.

والعرب سهلو الانفعال إلى الغاية، والعرب، ذوو القدود الهيف والأجسام المتقبضة والجلود السمر الذين ترى للشمس المحرقة ورمال الصحراء الدقيقة والرياح الجافة والكفاح اليومى ضد عناصر لا تعرف الرحمة أثراً فيهم، قوم يتأثرون بسرعة وصولة فينفذ العامل الحسى أو الشعرى فى نفوسهم نفوذ السهم النارى.

لم يتردد أسيد فى الأمر، ولم يفكر فى درء حميته، فهو بعد أن أنصت لبعض آى القرآن وعلم من مصعب قواعد دين النبى الجديد أعلن إسلامه مسلماً أمره إلى الله، فاغتسل من فوره، ورفع سبابته إلى السماء قائلاً : لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

عاد أسيد حمسا غير مفكر فى سوى زيادة عدد المسلمين فقال لمصعب:

" إن ورائى رجلا إن اتبعك لم يتخلف عنه أحد من الأوس، وسأرسله إليك: سعد بن معاذ".

جيء فى الغد بسعد بن معاذ إلى مصعب وهو يفقه فى دار أسعد بن زرارة، فبدأ سعد يشتم قريبة أسعد هذا لائما إياه على إيوائه غرباء دساسين، غير أنه لم يلبث أن أفحمه حلم تالى القرآن وروعه الآيات، فأقبل إلى نادى قومه وقال:

" يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ ".

فقالوا : " سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة[١] "

فقال :" إن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله". بمثل هذا انتشر الإسلام فى يثرب بالتدريج، ولم يخل انتشاره من مقاومة مع ذلك، فإليك أبا قيس بن الأسلت، الشاعر الأوسى، الذى أصر، لحين، على وثنيته فسخر بمن أسلم فى قصائد له مادحاً دين الآباء.

وإليك عمرو بن الجموح الذى كان سيدا من سادات بنى سلمة وشريفا من أشرافهم، فكان قد اتخذ فى داره صنما لمناة من خشب، فلما أسلم فتيان بنى سلمة أدلجوا[١] إلى

---

[١] ميمون النقيبة : محمود المخبر

هذا الصنم فحملوه وطرحوه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها عذر الناس منكسا على رأسه، فلما أصبح عمرو بن الجموح غضب وغسله وأعاده إلى مكانه، فرجع أولئك الفتيان الطائشون إلى ما صنعوا غير مرة، فلعن عمرو مدنسيه مبهوتا من أن السماء لم تمطرهم بعذاب، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه وقال له:

" إنى ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك".

فعدا الفتيان عليه فأخذوا السيف منه فقرنوه بكلب ميت بجبل ثم ألقوه فى بئر، فلما رأه عمرو أسلم، وقال فى ذم الصنم العاجز:

والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر فى قرن(٢)

أف لملقاك إلها مستدن(٣) الآن فتشناك عن سوء الغبن

كان يمكن اليهود الموحدين أن يؤثروا فى عرب يثرب تأثيرا دينيا كبيراً لو لم يفعلوا ما عابهم به القرآن من كتم التوراة ولو لم يعدوا الوحى أمراً خاصا بأمتهم، ولو لم يستخفوا بالعرب المشركين الأميين العاطلين من كتاب منزل، مع تماثل حياة اليهود والعرب وتجارتهما وزراعتهما ومع تكلم اليهود بلغة العرب ونظمهم القصائد البليغة كالعرب، ولو لم يضطر العرب إلى مقابلتهم بمثل استخفافهم، ولو لم يتحذلقوا عندما كانوا يسألون، فمهد يهود يثرب السبل للإسلام بذلك.

ونذكر أنا أبا عامر الأوسى قد ترهب وصار يدعو إلى دين جديد خلط فيه بين الوثنيه واليهودية نافساً على الإسلام تقدمه، ونذكر أن أمور الأديان أخذت تدور فى أذهان العرب، مع بعد العرب من التدين، فقد كانت النصرانية تحيط بجزيرة العرب وأصبح لها أتباع فى بعض القبائل، وكانت القوافل تجلب إلى قلب الحجاز شيئا من طبائع الروم وأفكارهم مع ما كانت تجلب من قمح سورية ونسجها، وشرع الشعراء يحدثون عن غله واحد، وأخذ أمية

(1) أدلج: سار آخر الليل.
(2) القرن : الحبل
(3) مستدن : ذليل مستعبد.

http://www.al-maktabeh.com

بن أبى الصلت يشيد فى قصائده بذكر ما فى الجنة من النعيم ويخوف مما فى جهنم من العذاب الأليم، وصار يدعى بعض العباد بالحنفاء، كما يظهر، لنفورهم من الوثنية ولبحثهم، من غير عزم، عن دين أزكى منها وأطهر.

ولم يزل من بين نصارى الشرق ما كان يعتقده أبناء القرون الأولى من اقتراب الساعة، وهذا مما كان يعتقد زهاد من النصارى أقاموا بالصحراء واتصل بهم العرب، وكان بعض المذاهب النصرانية المنتشرة فى شمال جزيرة العرب يقول، كما يظهر، باقتراب ظهور نبى آخر الزمان، وبلغ هذا الاعتقاد من الانتشار ما سرى به إلى بعض مشركى العرب، ومن هؤلاء العرب زهير، أبو كعب الشاعر، الذى توفى قبل ظهور محمد.

وكان الشاعر أمية بن أبى الصلت الثقفى مطلعا على كتب اليهود والنصارى، فيزدرى الأصنام ولا يشرب الخمر، وكان يلبس المسوح[1] ويرجو، بحرارة، أن يكون نبيا فينتظر الوحى على غير جدوى، فأمية هذا خرج ذات مرة مع الزعيم المكى الغنى أبى سفيان فى تجارة إلى الشام، فدخل فى طريقه إحدى صوامع النصارى وباحث راهبها، فلما خرج رآه رفقاءه مكفهرا، ثم ساروا وأتموا ما جاءوا لأجله وعادوا فدخل أمية تلك الصومعة مرة أخرى، وخرج منها مضطربا، فسأله أبو سفيان المرتاب بقوله:

" ما الذى أثارك ؟ ولماذا تعوقنا بأقاصيصك الرهبانية ؟* "

أمية متذمراً : " دعنى ! دعنى ! * ".

ثم قال أمية:

" إنه أخبرنى عن اقتراب الساعة، وعن هذا النبى الذى ينتظر، وعن خروجه من أهل بيت تحجه العرب، فأصابنى، والله، شىء ما أصابنى مثله قط، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه".

---

[1] المسوح : جمع مسح، وهو الكساء من شعر كثوب الرهبان.

لم يطق أمية بن أبى الصلت رسالة محمد، فلم يتوان عن هجوه ما دام حيا، وهل كان أمية طاهر القلب ؟ كان أمية يعد الرسالة عامل مجد لصاحبها فيبتغيها لحاجة فى نفسه مع نبل قصد على ما يحتمل، وغير ذلك أمر محمد الذى ارتجف، كما سترى، حينما أتته الرسالة ووجف قلبه[1] سائلاً عن قدرته على القيام بها، وقد قال المفسرون إن الوحى ما كان لينزل على أمية وهو شاعر يستلهم الجن، والملك هو الذى ينقل الوحى على النبى.

قدر سلمان تلك الأمور وفكر فيها، وقد سبق أن قال له أحد سادته وهو يحتضر فى بلاد الروم :" قد أظل[2] زمان نبى " فلما هاجر محمد إلى يثرب، التى أصبحت المدينة، بدا سلمان، من فوره، من أشد الصحابة حماسة.

وكان بين كتفى محمد بضعة[3] ناشزة[4] حولها شعر مثل الدينار الرومى، وكانت هذه البضعة تعد " خاتم النبوة" وأراد أحد الأطباء بضعها[5] فلم يرضى محمد بذلك، وكان سلمان شديد الرغبة فى رؤية هذه العلامة، وكان محمد، ذات يوم، جالساً فى أصحابه فجاءه سلمان فسلم عليه وجلس خلفه، فابصر محمد ماذا يريد سلمان فألقا رداءه عن ظهره فنظر سلمان إلى الخاتم، فأكب عليه يقبله وهو يبكى.

شغل الرق سلمان فلم يسطع أن يلازم مدار حياته محمداً كما كان يود، ولكنه أضحى، بعد حين، من أجل رجال الدين الجديد.

كاتب سلمان مولاه، كما نصحه به محممد على ثلاثمئة نخلة يحييها بالحفر وبالغرس مستعينا بإخوانه من الصحابة، فلما فرغ منها أعطاه محمد سبيكة من ذهب، فأوفى مولاه حقه فأعتقه.

فمن هو ذلك الرجل الذى أصبحت هجرته من مكة إلى المدينة مبدأ جديداً لتاريخ فريق من البشر إلى الأبد ؟

---

(1) وجف القلب : خفق
(2) أظل : أشرف وقرب.
(3) البضعة : القطعة من اللحم.
(4) ناشزة : ناتئة.
(5) البضع : القطع

الفصل الثانى

عام الفيل

(٥٧١ ؟)

" كل عربى تاجر، وقد يكون مبتزاً

فى بعض الأحيان " (استرابون)

http://www.al-maktabeh.com

زحف نائب النجاشي في اليمن أبرهة في أواخر القرن السادس من الميلاد إلى مكة منتقماً راكباً فيلاً عظيما على رأس جيش، وذلك بعد أن دنس عربي حجازي معبد صنعاء الذي كان نصارى الجنوب من بلاد العرب يطمعون أن يكون محلا للحج منافسا للكعبة القديمة.

رأينا أن النصرانية كانت منتشرة في القسم الجنوبي من جزيرة العرب مع مزاحمة اليهود والمشركين لها، ومما حدث في أوائل القرن السادس من الميلاد أن الملك اليهودي ذا نواس قاتل نصارى نجران فخد[1] لهم الأخدود[2]، فحرق منهم عشرين ألفا بالنار، على ما روى، فلم يستطع قيصر الروم جوستان الأول أن يثأر لدينه لبعد الشقة[3] فحرض ملك الحبشة على فتح اليمن، فركب سبعون ألفاً من نصارى الحبشة السود البحر وعبروا المضيق وأزالوا ما بقي من الدولة الحميرية التي كانت كثيرة الازدهار عظيمة التمدن.

وكان النجاشي قد أمر نائبه بأن يقتل ثلث الذكور من سكان اليمن وأن يسبي ثلث نسائها ويرسلهن إماء إلى الحبشة وأن يخرب ثلث أملاكها، فمقت الناس ذلك النائب الزنجي لقسوته في تنفيذ ما أمر به فثار عليه أحد عماله أبرهة فقتله في مبارزة، فلما بلغ ذلك النجاشي غضب غضبا شديداً وحلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاد اليمن ويجز ناصيته فحلق أبرهة رأسه وملأ جراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي ليبر قسمه فيه، فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه فأقام أبرهة نائباً عنه باليمن ثم وضع الأسقف غريجينسيوس قانوناً لليمن وحمل كثيرا من اليهود والوثنين على انتحال النصرانية، وأصبح الأبحاش في جنوب بلاد العرب قادرين على الزحف لفتح الحجاز والاستيلاء على مكة والكعبة.

---

(1) خد : شق

(2) الأخدود : الحفرة المستطيلة في الأرض.

(3) الشقة : المسافة التي يقطعها السائر.

سار أبرهة مع فيله إلى مكة على أرس جيش منظم ونصب معسكره أمامها، فذعرت قريش وخرجت منها للتحرز فى شعف[1] الجبال والشعاب[2].

" فكانت هذه الألوف المؤلفة من الجنود كسماء من أنواء، وكانت أصواتها تصم الحصن، وكان نتنها يبعد منها الأعداء، وكان هؤلاء العفاريت من الكثرة كالرمل الذى يجفف النابتة الخضراء* " كما قال أحد الشعراء.

لم يستطع أبرهة أن يدخل مكة، فما يرى أن فيله امتنع عن السير إليها وأن وباء الجدرى فتك بالجيش فتكاً ذريعاً، فتقهقر من بقى منه فعزت القصة البثور إلى حجارة سماوية رمتها طير أبابيل حافلة بالأسرار.

سميت السنة التى حدث فيها ذلك بعام الفيل، واصطلح العرف على اتخاذه مبدأ لسنواتهم، وولد محمد بعد ذلك بمدة قصيرة على ما يظهر.

وكان عام الفيل نذير زوال سلطان الأحباش عن بلاد العرب، فقد طرد الفرس هؤلاء السود من اليمن بعد سنتين وظل الفرس مالكين لها إلى أن أجلاهم المسلمون عنها.

وتاهت قريش فخراً بما أصاب أبرهة من الدمار، ولقبت قريش بـ" الصناديد" وأضحت مكة مركزا كبيرا للتجارة والحج.

ولم تكن مكة مكانا صالحا للسكن، ولم يكن بمكة شجر ظليل.

" إذا استطاعت مكة أن تكون من المطامع فقد رأيتم تعجل أمراء حمير على رأس جنودهم، فليست مكة بالتى تطاق فى الشتاء ولا فى الصيف، فلا تجد فيها ناحية ينبجس منها الماء كما هو الأمر فى جواتا.

" ولا ترى فيها أقل عشب يمتع الناظر، ولا ترى فيها صيداً، بل ترى فيها تجاراً تعد مهنتهم أدني المهن*".

ذلك ما وصف به الشاعر الزنجى الحيقطان مكة.

ولم يكن بمكة ما يسمى شجرة ذات ظل، حتى إن القوم قلعوا الشجرات الصغيرة القليلة التى كانت مغروسة بالقرب من الكعبة مع احترام الناس لها احتراماً خرافياً، ولم تحط بمثل ما يحيط بدمشق أو فارس فى الوقت الحاضر من النبات الأخضر، خلا بعض الشجيرات الشائكة النابتة فى المنحدرات الجافة فتحولت أوراقها إلى نبال.

وكانت مكة لا تطاق فى الصيف فيقيم أغنياؤها بطائف ثقيف الجبلية حيث العنب الطيب وحيث يجمد الماء فى الشتاء دون بقية بلاد العرب، وكان صلى الشمس لما حول الكعبة من البلاط يبلغ من الشدة ما يجب معه نضحه بالماء على الدوام ليمكن الطواف بأقدام حافية، وكان هذا البلاط يجف حالاً، وكان المسلمون الأولون يعذبون بطرحهم عراة على الأرض صيفا فيبشر محمد المؤمنين بنعيم الآخرة إذا ما صبروا على ذلك، وكان الناس يألمون من قلة الماء، وكان ماء بئر زمزم الشهيرة يخرج غير منتظم مراً فى الغالب، وكانت الآبار الأخرى بعيدة فاسدة المياه فينزح[1] ماؤها بالأوعية الممكن إحضارها فى موسم الحج، فكانت سقاية الحاج من أصعب الأمور " حيث الحرارة الخانقة والريح القاتلة وسحب الذباب.. * " كما قال العالم الجغرافى المقدسي .

ولم يكن فصل الشتاء خيراً من ذلك، فكان نقاعاً[2] يعقب السعير، وكانت مكة مبنية على شكل هلال ينتهى طرفاه بشعاب[3] جبل قعيقعان على حين كانت الكعبة، تقوم مع مسجدها الحرام فى مكان منخفض تصب فيه سيول المطر التى لم يوجد ما يمسكها من الحفر والخضر والشجر.

أجل قد تمضى سنتان أو ثلاث سنوات أو أربع سنوات من غير مطر، ولكن السماء إذا ما أمطرت هنالك وقع ذلك بغتة، وكان ماؤها غزيراً مدراراً فلا تقدر مكة على تجنب أثره المخرب.

---

(1) ينزح: يستقى.

(2) النقاع: جمع نقع وهو الماء المستنقع أى المجتمع

(3) الشعاب: جمع شعب وهو الطريق فى الجبل.

وكان مكان لاكعبة أصغر مما هو عليه الآن فيجرى إليه ما يأتى من كل ثغر وفج وشعب جاراً كل شىء يجده فى طريقه، فإذا ما ذهب الماء مكث فيه بحر من الوحل والردم والأقذار، وكانت بئر زمزم قد ملئت من ذلك عدة مرات وغارت ذات مرة لعدة أجيال، وكان الطين يزال بالدواليب والعجال، وكان يصعد إلى باب المعبد فى مرقاة.

ومما حدث يوماً أ، بلغ الماء درجة اضطر معها ابن الزبير التقى، الذي لم يرد ترك طوافه اليومى (سبع مرات)، إلى الطواف حول الكعبة سابحاً، وما أكثر ما كان الماء يصل إلى مستوى الحجر الأسود المرتفع عن الأرض بقدر طول الرجل المعتدل القامة، وكان بناء الكعبة يجدد كلما هدمت أو أصابها عطب فى غضون القرون، والكعبة اليوم مصنوعة من الحجارة المنحوتة بعد أن كانت تبن من الآجر.

فالأمطار والسيول، مع أنها تجلب الخير والبركة إلى أنحاء جزيرة العرب وتكسوها بالخضر وتطهر نباتها من الأملاح وتنقذها من القحط أشهراً، كانت عامل تخريب لمكة إذن، فكانت تهدم بيوتها وتقتل أنعامها وتجر الجثث العاطلة من القبور معها وتأتى بالأوبئة مضافه إلى رمد سكانها، وكان ينشأ الطاعون والجدرى، فى بعض الأحيان، عن حجها، وكانت الصحة بها فى حال يرثى لها، واليوم لا يزال أهل مكة يفرغون مراحيضهم أمام بيوتهم ساترين لها بقليل من التراب، واليوم لا يزال الحج سببا لزيادة الوفيات فى بلدهم.

وكان قريش مكة أغنياء أذكياء نافذين كثيرى الحب لها مع ذلك، فما هى الفوائد التى كانوا يجدونها فيها ؟ كانت لهم تجارة رابحة، وقد قالوا إنهم يقيمون بها من أجل تلك التجارة حينا تعقدت أمور الحياة بسبب الدعوة المحمدية.

أدرك عرب مكة المتحضرون منذ زمن قليل أهمية موقع واديهم غير ذى الزرع فأحسنوا استغلاله تجاريا، فجعلوا منه بندقية الصحراء فكانت قوافلهم تغدو وتروح بين اليمن والشام.

قال استرابون : " إن كل عربى تاجر " ، ثم أضاف إلى هذا قوله : " وقد يكون مبتزا فى بعض الأحيان".

وكان قريش أدرى العرب بأمور التجارة فكانت تستند فى شئونها التجارية إلى نظام مالى نقدى عجيب، ولم يكن قدماء التجار الذين ذكروا فى التوراة إلا من العرب، وأحصى إشعياء وحزقيال السلع التى كانوا يجيئون بها إلى لاشام، ووجد من عدهم طلائع التجار بين الأمم فى العالم.

ولم يكن لقدماء الرومان غنية عن العرب، فقد أشاد هوراس يذكر كنوز بلاد العرب وتجارة سكانها التى فيها سر غناهم، وكان لليمن فى القرون الأولى مثل ما للبيرو من الأهمية فى الزمن الحاضر، وكان مترفو الرومان يشترون معادن الشرق الكريمة ونسائجه وعطوره من الأعراب بأثمان غالية، فذكر يلين ذلك متوجعاً.

وكان نجاح العرب ومكة التجارى موقوفا على طريق الهند، فكانوا يغتنون ويفتقرون تبعا لمرورها من العراق وبلاد فارس والافغان أو من الجزيرة واليمن والخليج الفارسى، وهذا ما كان يحدث عدة مرات مع تقلبات السياسة فى أثناء القرون.

وكان من نتائج الحروب الطويلة بين الفرس والروم فى أوائل القرن السابع انتعاش تجارة مكة، فكانت مكة فى تلك الأثناء ملقى الطرق بين الشرق وعالم البحر المتوسط وبين إفريقية الزنجية وسورية الرومية، وكانت مكة محاطة بشبكة من الأسواق الموسمية كسوق عكاظ للتجارة الداخلية، فكأن الحج والتجارة والدين والأعمال أمور آخذ بعضها برقاب بعض فى مكة.

وكان الروم محتاجين إلى قوافل الأعراب التى تجلب إليهم جواهر بلاد الهند ذات الأسرار وأبازيرها والجلود والمعادن والنسائج الأجنبية وحرير الصين الذى تصنع منه ثياب القياصرة والبطائن والقسوس، وتجلب إليهم عطور الأكاسرة وما تستنفده الكنائس والقصور من لبان اليمن وصمغ إفريقية، وكان العرب يحملون معهم إلى سورية تمر الحجاز ونجد، ثم يرجعون بالقمح والزبيب والزيت ونسج الكتان والقطن والحرير ذوات الخطوط والحواشى والوشاء، ويعودون بالمنتجات المصنوعة وبنصال دمشق وتروسها المكفتة المهربه لحظر الروم إخراجها.

http://www.al-maktabeh.com

وكان ذهب القوافل وإيابها أهم الأمور فى حياة أهل مكة، فإذا ما أقبلت قافلة فرحوا كثيرا وساروا أمامها يدقون الطبول ويهتفون، وقد نهى محمد عن ذلك منعا لمضاربة المشترين السابقين للسلع والغلال واحتكارهم إياها، وعانى محمد كثيرا من تعديل هذه الحمى التجارية، وردد القرآن صدى أسف محمد حينما رأى الناس تجارة فانفضوا إليها وتركوه قائماً.

وكان لقريش، خلا القوافل الصغيرة الخاصة، قافلتان عظيمتان منتظمتان تقوم إحداهما برحلة الصيف إلى اليمن وتقوم الأخرى برحلة الشتاء إلى الشام، وكان أمر تينك الرحلتين الكبيرتين يهم جميع قريش لاشتراك كل واحد منهم فيهما، وفق نظام مالى تام، بمال له مهما صغر، ولو كان هذا المال نصف دينار، ولنيلهم بهما من الربح الوافر الذى يبلغ خمسين فى المائة على الأقل، والذى يبلغ مائة فى المائة أحياناً.

وكانت تانك القافلتان المهمتان محط آمال أهل مكة فى الحقيقة، وذلك لاشتمال كل واحدة منهما على ألفى جمل، أو ثلاثة آلاف جمل، حاملة ذهبا وفضة وجلودا وسلعا ثمينة، ولحراسة مئتى رجل، أو ثلاثمائة رجل، لها وهى تجوب الرمال والحجارة المغر[1] وسهوب[2] الصحراء.

كانت مكة جمهورية تجارية بيد الأغنياء، ولم يكن أمر حكومتها واضحا لما يقع من تألب أفخاذها على من يحاول السيطرة عليها، وعلى كل سلطة منظمة تقوم فيها.

وكان يمارس شؤون مكة العامة، مع ذلك، كبراؤها من غير وكالة صريحة، فيجتمع هؤلاء فى دار الندوة إذا ما اشتدت الأمور، وكان يهيمن على دار الندوة ذوو الفصاحة منهم، وكانت أبواب دار الندوة مفتحة لإشراف والشيوخ وأغنياء العوام، كابن جدعان التيمى السائس النخاس سابقاً، وكانت مفتحة، أيضا، لمن يجيد القول من الشبان، وإن لم يكن من المثرين كعتبة بن ربيعة ذى الأجوبة الصائبة اللاذعة، وكان لأبى سفيان مكان

---

(1) المغر : جمع المعراء ، مؤنث الأمغر أي الذي يكون له لون المغره وهي الطين الأحمر يصبغ به .

(2) السهوب : جمع سهب وهو المستوي البعيد من الأرض في سهوله .

ممتاز فى دار الندوة ونفوذ أدبى فيها لما اجتمع فى شخصه من الشرف بانتسابه إلى بنى أمية ومن الغنى بكونه التاجر المالى الأول ومن الحكمة السياسية وتقديره لمصالح القوم بما أوتى من الحلم العظيم.

وكان حى أشراف مكة فى البطحاء التى بنيت الكعبة فى جوفها، وكان يتفرع من البطحاء شعاب مسماة بأسماء بطون قريش، وكان يسكن هنالك بنو أمية الشرفاء ذو السلطان المالى الكبير وبنو مخزوم الأغنياء الذين برعوا فى تجارة النسائجج والرقيق، وبنو نوفل وبنو أسد وبنو زهرة وبنو سهم، وبنو عبد الدار أصحاب اللواء، وبنو تيم وبنو عدى الذين، وإن كانوا دون أولئك مقاماً ورفعة، ظهر منه الخليفتان أبو بكر وعمر بعد وفاة النبى، وبنو هاشم الذين هم آل محمد فلم يكونوا على كبير غنى مع ما كان لهاشم ولعبد المطلب من الجاه بسبب السقاية والسدانة.

وكان يقيم فى الشعاب حول ذلك الحى المركزى " قريش الظواهر"، أى العوام العاطلون من الجاه والمال مع جمع الجنود منهم، ثم كان يسكن ضواحى مكة الأحبيش واللاجئون والمحترفون من الموالى.

وكانت أهم الأعمال تتم فى البطحاء، ولا سيما فى مجلس الكعبة، فكان أشراف قريش يتسامرون فيه ويحادثون ويسمعون الأخبار ويقصون القصص ويتشاورون ويرسمون الخطط، وكان أبو سفيان وأبو جهل وعبد المطلب وعتبة والوليد بن المغيرة وصفوان بن أمية ومن إليهم يجلسون القرفصاء فى فناء الكعبة لابسين أرديتهم فيهيئون فى ذلك المكان رحلة الشتاء والصيف، وكانوا يعلمون أخبار انتصار الفرس على الروم، وفوز الفرس الأخير على الروم، وانتصار كسرى، وخزى قيصر، ويسمعون حيارى حانقين مواعظ محمد الأولى، ويكتبون صحيفة مقاطعته ويعرفون هزيمة قريش فى بدر، ويرون، ذات يوم، فتح محمد لمكة بعد نوائب كثيرة وإمساكه حلقة الكعبة الذهبية وإعلانه العفو.

فالمرء إذا ما ترك ذلك المركز المكى المهم وذهب إلى الأحياء الخارجة عنه والمتصلة بالشعاب والمسايل بلغ الأسواق ذوات المساكن الرجسة التى تعج بأخلاط الزمر كما لو كانت فى خلايا النحل الداوية حيث يشرب أدلاء القوافل خمر البلح وحيث تغنى

القيان على الدفوف بألحانهن الحادة، وحيث يلح الباعة على الأعراب المتخوفين في إخراج بعض الدراهم المعقودة في طرف من قمصانهم وحيث الصرافون الذي يزنون السبائك والنقود الإغريقية والفارسية والحميرية القديمة البالية ويعدون الدنانير الرومية صاحبة الحظوة في بلاد العرب فيشبه الشعراء بها سناء خدود الحسان.

وكان يسكن تلك الأحياء الخارجة حلفاء للشرفاء وخلعاء طردوا من قبائلهم لجرائم اقتفوها وتجار جائلون لعرض سلعهم على إخونه من خشب نصبت على عجل، أو تحت خيام من سعوف[1] النخل، أو في دكاكين معدة للإيجار والعرض.

هنالك كان يعيش، أو يمر، أجانب كثيرون من اليهود ومن النصارى، المنتسبين إلى مذاهب مختلفة أضاعت كل صلة لها بمراكز النصرانية الصحيحة، فعند هؤلاء يبحث محمد عن الأدلة، وفي هذه البيئة العامية سيجمع محمد كثيرا من أتباعه الأولين.

وكان حميا العمل والكسب والمضاربة والحركة الرشيدة تتجلى في مكة وضواحيها بادئة بالباعة الجائلين وأصحاب الحوانيت الصغيرة لتنتهي إلى كبار التجار ورجال المال الذين يمسك دفاترهم عدد غير قليل من الكتبة بطوابع وخطوط معقدة مثيرة لسخرية الأعراب الغافلة.

وكان من عادة قريش مداوله النقود لتربو، فكانوا لا يكنزون رؤوس أموالهم، لا فرق في ذلك بين من يملك منه بضعة دراهم ومن يملك عدة ملايين، كعبد الرحمن بن عوف الذى قال : " فلقد رأيتنى، ولو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب ذهبا وفضة"، وكحويطب بن عبد العزى الذى أثرى فجأة بسبب موت خمسين شخصا من عشيرته، وكصفوان بن أمية الذى كان يخزن الأسلحة والسلع الفضية، وكالوليد بن المغيرة الذى كان الناس يقسمون بثوبه المضاعف فكان يكسو الكعبة في كل سنة ليكون ذلك إعلانا لنسائجه، وكأبى أحيحة الذى اكتتب مصرفه في تجارة إحدى القوافل بثلاثين ألف دينار فلم يكن هذا غير جزء

---

[1] السعوف: جمع سعف وهو جريد النخل وقيل ورقة وأكثر ما يقال إذا كان يابسا، فإن كان رطبا فهو شطبة، الواحدة سعفة.

من ماله، والذى كانت له الأملاك فى الطائف والأموال عند الأعراب فأصبحت بناته أغنى نساء مكة الوارثات... وكانت قريش تعرف كيف تخاطر غير جاهلة أية معاملة.

وكان تجار قريش المقاديم يحبون متاع الحياة، فيلهون، أحياناً، بعد قيامهم برحلاتهم الشاقة ويسرفون، فرحين، ما نالوه من الأرباح العظيمة، فتراق الخمر الكثير فى منازل البطحاء وبيوت الخلعاء بالضواحى، وكان لعبد الله بن جدعان قينتان مشهورتان بجمالهما وحسن صوتهما فوهبهما مع ألف درهم لرفيقه أمية تعويضا له عن خدشه لعينه وهو سكران، وبلغ المثرى العاصى بن هشام من اللعب والمضاربة ما أفلس معه فآجر نفسه من أبى لهب بأربعة آلاف درهم، فالاعتبار المالى وإن كان يسهل التجارة فإن المضاربات تؤدى إلى الأزمات، واضطر ابن جدعان، غير مرة، إلى عدم إيفاء ديونه بعد أن كان فى أيام غناه يرسل المنادين لدعوة الناس إلى ولائمه.

وكان يضارب فى أعمال الصرافة وفى هبوط أثمان السلع الأجنبية وصعودها وحول وصول القوافل وتأخرها وحول الزرع والحصاد وحول الديون قبل آجالها (فمنعه القرآن) وحول القطاع والغنائم. . وكان الغلال تحتكر، وكان يباع مالا وجود له من السلع.

حفزت هذه المساوى محمد إلى تحريم الربا والنسئ، وتجارة النقود مع إعجابه بذكاء بنى قومه، وحضر محمد، وهو فى السنة الخامسة والعشرين من عمره، حلف الفضول فى بيت عبد الله بن جدعان حيث تعاهد أناس على إنصاف المظلوم وتقويم العقود، وعملت لهم وليمة ثم صب ماءً من بئر زمزم على الكعبة وشرب الجميع معاً مقسمين.

والحق أن الأعراب كانوا يقعون فريسة ذى الجشع والنيات السيئة من مضاربى مكة وسماسرتها الفاسدين المفلسين وأدلائها المعوجين الذين كانوا يبدون وسطاء " لتكون لهم المغانم من غير احتياج إلى رؤوس أموال" والحق أن الأعراب كانوا يذهبون ضحايا مرابى مكة الذين يحملونهم على إمضاء الصكوك بدينارين فى مقابل دينار واحد، والذين كان لديهم " ثلاث وسبعون طريقة لتقليب الربا" فلا يألون جهداً فى أكل الربا أضعافا مضاعفة بزيادة المواعيد ورفع معدل الفائدة عند عدم الدفع فى آجالها الأولى.

http://www.al-maktabeh.com

وكان الأعراب، وهم ممن يعسر القبض عليم مدينين، ينتقمون، أحياناً، بسخريتهم من دعاوى أهل مكة ونشرهم أنباء جشع قريش وإعلانهم أن كلمة "قريش" تعنى كلب البحر، ومن ذلك قول الشاعر الأعرابى أبى الطمحان مستهزئاً : " إذا ما حذقت ناقتى حيل التجارة عظم ما تخص به مكة من الريح عند مقايضة العشب الأخضر بالعشب اليابس *"

الفصل الثالث

حرب الفجار

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مـــوارداً للموت ليس لها مصــادر
ورأيت قومي نحوها تسعى الأصاغر والأكابـر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقين غابـــر
أيقنت أني لا محــا لة حيث صار القوم صائر

(قُسُّ بن ساعدة)

كان الفتاة المكية آمنة تبحث فى أول هذا الصيف عن مرضع لولدها الذى كان عمره شهرين، وآمنة هذه قد توفى زوجها الجميل عبد الله ابن الشيخ عبد المطلب فى يثرب عن خمس وعشرين سنة، ولم يترك عبد الله لابنه اليتيم غير ميراث ضئيل : خمسة جمال وقليل من الغنم، وجارية عجوز.

ومن عادة الأظئار[1] البدويات أن كن يجئن فى ذلك الفصل إلى مكة التماسا للرضعاء، وكن يفضلن أبناء الأغنياء منهم، فأعرضن عن اليتم محمد لعدم غنى أهله، ولكن حليمة، التى كان زوجة لراع من بنى سعد فلم توفق لرضيع، أخذت محمدا إلى جبال قبيلتها المعتدلة الهواء والبعيدة من مكة بضع مراحل لجهة الجنوب من ناحية الطائف.

عاش محمد عندها خمس سنوات لاعبا مع أخيه من الرضاعة قائماً معه برعاية الغنم مصداقاً لقوله : " ما من نبى إلا وقد رعى الغنم" وما روى، والله أعلم، أن ابن حليمة رأى، ذات يوم، رجلين مجهولين لابسين الأبيض، إن شئت فقل ملكين، يدنوان من محمد الذى كان فى السنة الرابعة من عمره ويضجعانه ويشقان صدره ويغسلانه بالثلج الطاهر ويخرجان من قلبه درنة سوداء ويعيدان صدره إلى ما كان عليه ويتواريان، فالذى أراه أن هذه القصة نشأت عن قول القرآن : " ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك" وأن هذه العملية أمر باطنى قام على تطهير ذلك القلب وتوسيعه ليتلقى رسالة الله عن حسن نية، ويبلغها بإخلاص تام ويحتمل عبئها الثقيل، وأن أسطورة شق الصدر ذات مغزى فلسفى لما تشير إليه تلك الدرنة السوداء من الخطيئة الأولى التى لم يُعف منها غير مريم وعيسى ولم يدل عليه تطهير القلب من معنى الورع الصوفى.

ولما بلغ محمد السنة السادسة من عمره توفيت أمه آمنة وهى راجعة معه من يثرب إلى مكة، فدفنت بالأبواء، فلم يبق لمحمد معين سوى جاريته العجوز وجده وأعمامه.

كفل عبد المطلب محمداً، وكان عبد المطلب شديد الحدب على محمد، ومن ذلك: أن كان يوضع لعبد المطلب، وقت المساء، فراش فى ظل الكعبة حيث يجتمع أشراف قريش،

---

[1] الأظئار : جمع ظئر وهو المرضع.

فكان بنوه، وهم أبو طالب الحليم وعبد العزى الشديد والعباس البخيل وغيرهم ممن ولدوا له من ست زوجات، يجلسون على الأرض حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد منهم إجلالا له، فإذا جاء محمد أدناه عبد المطلب منه وأجلسه معه عليه وهو يمسح ظهره بيده.

وكان لبعد المطلب ولد آخر من لدات محمد اسمه حمزة فرضع محمد فى البداءة، ولبضعة أيام، من جارية أعتقها عبد العزى بن عبد المطلب كما رضع منها حمزة، فكان حمزة عما لمحمد وأخا له من الرضاعة.

ثم مات عبد المطلب فى الثمانين، وكان محمد فى السنة الثامنة من عمرة فكفله عمه أبو طالب فرباه بإخلاص كبير، ولكن أبا طالب التاجر السادن للكعبة لم يكن غنيا فلم يوفق لتعليم محمد إلا قليلاً جدا معداً إياه ليكون عامل تجارة أكثر من أن يكون متعلماً، فظل محمد أميا لا يقرأ ولا يكتب فى معظم حياته ، بل في جميع حياته علي ما يحتمل .

وحكى، والله أعلم، أن عمه أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام وأنه أخذه معه، وكانت الصحراء آنئذ زاهية لما نشأ عن الماء الذى أمطرته السماء من الحياة والسعة والرخاء وكل ما يمكن بلدا كجزيرة العرب أن يناله، وكان فصل الربيع قد حل فأصبح الكلا الكثيف نابتً وصارت الإبل ترعاه وترعى السعدان الذى هو نبت من أفضل مراعيها مع شوكه السائغ قليلاً، فأضحت سمينة الأسنمة[١]، وأضحى الأعراب ينظرون مسرورين إلى قطاعهم المنتشرة فى السهوب[٢]، فيقلعون بعصيهم فى كل مكان الخرشوف البرى ويخرجون من الأرض الكمأة المغذية، وأضحت النفود ذوات الرمال المشؤومة البيض كالكافور والرمال الحمر كالدم غير مخيفة، فبدا اقتحامها غير ذى خطر، وازينت الأكثبه الكثيبة المتموجة المتنقاه المترجحة بين عشرين متراً وخمسين متراً، والتى قد يغرق الجمل فيها صيفا، بيساط أخضر من اليتوع[٣] والزهر والأعشاب العطرية وما إليها من النباتات الواقية من

(1) الأسنمة: جمع سنام وهو حدبه فى ظهر البعير.

(2) السهوب: جمع سهب وهو المستوى البعيد من الأرض فى سهوله.

(3) البتوع: كل نبات له لبن.

ذلك الغرق فتأتى القبائل الفقيرة إليها لترعى شياهها ذوات الضروع ونياقها ذوات الأخلاف[1] الملأى بالألبان، وتأوى الظباء إلى كنس[2] نباتية.

وهكذا كان الجميع فى حمى من ضيق العيش ومن الموت جوعاً لوقت معين، وهكذا لم يضطر الجميع، كما فى آخر الصيف، إلى أكل الأوراق وجذور النخيل القصيرة البرية، وهكذا تفلكت بطون الأعراب وألياتهم ككلاب الدوار الصغيرة البدينة الناعمة، وهكذا عدل عن مهاجمة القوافل لصوص الصحراء الأشداء المطرودون من قبائلهم المرهوبون من السياح والذين تغنى بهم الشعراء وصبت إليهم النساء، أحياناً، فعادوا بغرائزهم الموروثة عن أجدادهم رعاة للمواشى التى سلبوها رعياً شعرياً.

كانت القوافل تسير إلى الشمال حيث البلاد المتمدنة والمدن الساحرة وحيث رهبان النصارى وجنود الروم، وكانت القوافل تسلك الطريق القديمة تاركة عن يمينها خيبر المدينة اليهودية الزاهرة ونخلها وحرتها[3] البركانية القاذفة فى غابر العصور لحممها التى تحولت إلى حجارة سود، فيخرج منها وادى الرمة، ثم كانت القوافل تصل إلى بلاد الحجر فإلى أراضى بنى عذرة المشهورين فى القصائد بالهوى الأفلاطونى الذى عرفوه قبل أن يعرفه الغرب بطويل زمن، "فكانوا يموتون به إذا ما أحبوا"، والذى كانوا لا يطفئون جذوته المثالية بمتاع الحياة المادية.

وكان وادى القرى مزدهراً بما فيه من القرى الغنية والواحات الخضر والنخيل وكانت القوافل تمر أمام الأديار المبنية من الآجر فتروقها لقرى رهبانها، وكان يجتمع فى الأحواض الصخرية الطبيعية الصغيرة ماء المطر، فيسبح فيها السمك الأسود الصالح للأكل، وكان أولئك الرهبان يأذنون للسياح فى الاغتراف من ذلك الماء الصافى فى الغالب، بعد أن يكونوا قد شربوا فى أثناء رحلتهم مما فى الآبار من الماء الفاسد الأجاج، خلا ما يصادفونه من الماء العذب تحت طبقة من الرمل الدقيق.

---

[1] الأخلاف: جمع خلف وهو للناقة مثل الثدى للمرأة والضرع للشاة والبقر.

[2] الكنس: جمع كناس وهو بيت الظبى.

[3] الحرة: أرض ذات حجاره نخرة سود كأنها أحرقت بالنار.

http://www.al-maktabeh.com

وكان سائقو الإبل فى أثناء السير المضنى يرفعون أصواتهم بالحداء وينشدون بعض قصائد الشعراء، وكانت اليرابيعُ تفر والحنظل يتفتح بغتة فى الرمال الجدب والغزلان ترى رشيقة على ذرى الكثبان.

فلما كان وقت المساء وقفت القافلة فى مكان صالح اختاره الدليل، فأكل أصحابها قليلاً من اللحم والتمر وحساء الشعير، وجلسوا حول ما أوقدوه من البعر والنبات الجاف متسامرين تحت نجوم السماء الساطعة.

وكان الصبى محمد يحب قصص الرجال ومغامرات السياح والأحاديث الغريبة والأساطير القديمة عن الأماكن التى صار يمر منها.

أفلم تكن تلك الجبال المدورة ذات المهالك والمسالك الضيقة والجلاميد[1] الغريبة الشكل والعاطلة من كل أثر للحياة موطن ثمود الذين بادوا من بلاد العرب قبل ظهر الأب إبراهيم؟ لعن الله ثمود المتكبرين لأنهم لم يؤمنوا بالنبى صالح الذى أخرج لهم من الصخرة ناقة فعقروها[2] فدمدم[3] الله عليهم، وكانت ترى فى الصخرة المغاور التى كانت بيوتاً لثمود.

وكان الجن يسكنون الصحراء، وينفخون فى الليل أحياناً، ويعثرون الدواب بخبث، ويبدون أحياناً على شكل البحيرات وعلى شكل حدائق النخيل لكى يخدعوا السائح الظمآن بسراب ويستدرجوه إلى حيث يلاقى حتفه، وكان الجن يرمون القوافل أحياناً بسحب داجنة وبأعاصير متنقلةٍ وبزوابع رمليةٍ تعمى الأبصار، ويحرقون الجلد أحياناً يخففون الحناجر ويدمون الأفواه.

---

(1) الجلاميد: جمع جلمود وهو الصخر.

(2) عقروها: نحروها.

(3) دمدم الله عليهم: أهلكهم.

وكان الرمال تغنى أحياناً، وتسمع لها ألحان خالصة حافلة بالأسرار على نمط واحد كالتى تخرج من أوتار العيدان بفعل الرياح، وكان سائقو الإبل يضربون جمالهم أحياناً لتمر بسرعة من وادٍ غريب لما يسمعونه من ضحك الجن الهازئين المتوعدين.

وكانت مدينة أيلة أهم فرضة[1] على البحر الأحمر، وكان يسكنها، على ما روى، أناس من اليهود زلوا فى الإشراك فعدوا فى السبت فمسخ شيوخهم خنازير ومسخ فتيانهم قردة.

وصلت القافلة، بعد أن جاوزت البحر الميت، إلى مركز المقايضات بين العرب والروم بصرى التى كانت أسوارها ذوات الشُرف توحى الناظر بما بلغه الروم من السلطان فنزلت فى أسفل هذه الحصون بالقرب من صومعة نسطورية حيث اجتمع محمد بالراهب العالم بحيراً، وفى كتب السيرة أن هذا الراهب رأى أن محمداً هو النبى العظيم المنتظر على ما علمه فى كتبه.

ومهما يكن الأمر فإنه كان للشام نفوذ كبير فى نفس محمد، ، فقد عدها أرض الله المباركة التى ينشر الملائكة أجنحتهم عليها، وهى الأرض التى هاجر إليها إبراهيم فاراً من وثنية أور بكلدة، وهى أرض أهل الكتاب ذوى الأسرار، وهى أرض أهل التوراة، وهى أرض اليهود الذين قادهم نبى إلى فتحها فى غابر الأزمان، وهى أرض لنصارى الروم الوارثين لأقوى الدول والممثلين لأتم الحضارات.

وهل أخذ الشاب القرشى محمد يقابل بين الروم والعرب، وبين التوحيد والوثنية؟ وهل بدأ يفكر فى المسائل الدينية التى ستشغل ذهنه وتستولى على حياته؟ وهل صار يشك فى معتقدات بيئة صباه الغليظة؟.

وحمل الفتى محمد السلاح بجانب عمه فى حرب الفجار، وسماها المؤرخون بحرب الفجار لوقوعها، خلافاً لأقدس التقاليد، فى الأشهر الحرم التى تمتنع قبائل جزيرة العرب فيها عن الغزو والسلب والقتل.

---

[1] الفرضة: محط السفن.

وكانت الأسواق تقام فى الأشهر الحرم بالقرب من مكة، فتكون فى عكاظ، البعيدة ثلاث مراحل من مكة والواقعة بين النخلة والطائف، فى الأيام العشرين الأولى من شهر ذى القعدة، وتكون، قبيل الحج وراء جبل عرفات، فى المجنةِ وذى المجاز.

وكانت عكاظ أشهر تلك الأسواق، فكان الناس يردونها، لا للتجارة وحدها، بل للترويح أيضاً، فتصبح قلب جزيرة العرب النابض بما يتم فيها من الأعمال المهمة ومن انتشار الأنباء التى تجئ بهى القوافل من كل صوب وحدب ومن الألعاب والأغانى والرقص وإنشاد القصائد وما إلى ذلك.

ومن يرد أن يتمثل حال عكاظ فى ذلك لزمن فعليه أن يتصور حالة متوسطة بين المواسم والأولنبية الإغريقية فى القرون الأولى والمواسم المراكشيه فى الوقت الحاضر، ففى عكاظ كان الشعراء يتبارون فى إنشاد الناسِ قصائدهم، فأنشدت فيها المعلقات الشهيرة التى علقت فى الكعبة مكتوبة بحروف من ذهب فاحتفل الجميع بمن كان يفوز فيصبح عنوان فخرٍ لقبيلته.

وفى عكاظ كانت تذاع المبادئ الدينية، وفى عكاظ كانت تقابل تعاليم أديان الجزيرة بعضها ببعض، وإلى عكاظ كان يجئ، كما يظهر، نصارى من الحيرة ونجران زرافات ووحداناً، وإلى عكاظ جاء الشاب محمد مع أبى بكر ذات يوم فسمعاً أسقف نجران الشهير قس بن ساعدة يتكلم.

ظل قس بن ساعدة ذو اللحية البيضاء خطيب الصحراء العظيم وحكم العرب زمناً طويلاً، ففى عكاظ خطب قس الناس ذات مرةٍ راكباً جملاً أورق[1] فاستشهد بالسماء والبحر والليل والخيل والنجوم (كما يكون، بعد حينٍ، فى بعض سور القرآن الأولى التى نرى بينها وبين ما قاله قس فى خطبته الشعرية شبها جالباً للنظر، حتى فى الكلمات) فحدث سامعيه، الذى كانوا من التجار والمقاتلين، عن بطلان المال والجاه، وذلك بأسلوب موزون كان عنوان البلاغة، ومنه:

---

(1) أورق أسمر.

"أيها الناس أسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، جمع وأشتات، وآيات بعد آيات، إن في السماء لخبراً، وأن في الأرض لعبراً، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هنالك فناموا"

تدفق قس عدة ساعات في خطبته فأتى فيها بمتعاقب الصور، وأكثر فيها من جوامع الكلم والأمثال، فاستمع الحضور، بشوق عظيم، إلى أقواله المنسجمة و" درره المنظومة".

وقد ادكر محمد بعد طويل زمنٍ قسا وهو راكب جملاً أورقَ وطلب من أبي بكر أن يذكر له ما قاله، وكان ما سمعه من قسٍ في عكاظ من المؤثرات النصرانية الأولى فيه لا ريب.

كان البراض بن قيس مطروداً من كنانة، وكان من الخلعاء المقيمين بخارج مكة، وكان حليفاً لحرب بن أمية، وكان فاجراً مدمناً للخمر، فأوعز إليه حرب بن أمية بأن يغادر ضاحية مكة فالتجأ إلى ملك الحيرة اللخمي النعمان، وكان النعمان يرسل في كل سنة قافلة محملة طيباً إلى سوق عكاظ لمبادلة بالادم[1] والحبال وبرود اليمن، وكان لابد من إجارة القبائل لتلك القافلة في أثناء مرورها بينها، فعرض البراض أن يسير بالقافلة إلى الحجاز وأن تجيرها كنانة، وعرض عروة الرحال من هوازن بأن يسير بها وحده إلى الحجاز ماراً بنجد بدلاً من كلب مطرود من قبيلته، ففضل النعمان عروة على البراض.

غضب البراض وخرج يطلب غفلة عروة، وبلغ عروة من الاستخفاف بالبراض مبلغاً لم يخفه معه ولم يرد أن يتصيده، ووجد البراض عروة نائماً، ذات يوم، تحت شجرة فقتله واستولى على القافلة، وقال من الشعر ما افتخر فيه بغدره بدلاً من أن يحمر وجهه خجلاً.

وما زاد هذا القتل فظاعة أن وقع في ذي القعدة الذي هو من الأشهر الحرم. هرب البراض بما غنمه واجتمع في طريقه ببشر القرشي وقال له:

---

[1] الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدموغ.

http://www.al-maktabeh.com

"أخبر قريشاً أن البراض قتل عروة فإني أخاف أن يسبق الخبر إلى هوازن فتكتمه حتى تقتل به رجلاً من قومك عظيماً".

فأجابه بشر:

" وما يؤمنك أن تكون أنت ذلك القتيل؟".

فقال البراض: "إن هوازن لا ترضى أن تقتل بسيدها رجلاً خليعاً طريداً من بني ضمرة".

أغذّ بشرٌ في السير وقص الخبر على من كان من قريش في عكاظ فترك القرشيون عكاظ مسرعين إلى مكة.

فلما كان وقت المساء علمت هوازن ما كان من قتل عروة، فغضبت وخرجت في أثر أهل مكة، على حين كان الشاعر لبيد يرتجل شعراً.

أدركت هوازن قريشاً في نخلة عند الغروب، فاقتتل الفريقان، وكان حرب ابن أميه حاملاً رايه قصي في القلب، وكان عبد الله بن جُدعان وهشام بن المغيرة في الجناحين، وقريش إذ كانوا هنالك أقل عدداً من هوازن قاتلوا راجعين إلى مكة فكانوا كالضبان[1] داخلة الأحجار[2]، وقريش إذ دخلوا الحرم أمسكت عنهم هوازن قائلة:

"إن ميعاد ما بيننا وبينكم هذه الليالي من قابل، وإنا لا نأتلي[3] في جمع"، (ولا غرو، ما دام مثل ذلك مما كان يقع على التراخي وهو من قبيل الرياضة).

فقال أبو سفيان بأمر أبيه حرب: "ليكن ذلك".

---

(1) الضبان: جمع ضب وهو دويبة على حد فرخ للتمساح الصغير وذنبه كثير العقد كذنبه، ولهذا قالوا: "أعقد من ذنب الضب".

(2) الأحجار: جمع حجر وهو كل مكان تحتفره الهوام والسباع لأنفسها

(3) نأتلي: نقصر.

باع البراض الخليع في مكة ما سلبه من طيب النعمان بن المنذر وجماله، وأسرف الثمن في السكر وفعل الموبقات، وكان أهل مكة يصبرون على البراض وأضرابه ما احتاجوا إلى سوفهم، وما دام وجودهم في مكة سبباً في سير الأعمال المالية والتجارية.

تأهب الفريقان للحرب في العام القادم، وسبقت هوازن إلى عكاظ وتحصنت بأكمة، فلما جاءت قريش وحلفاؤهم بنو كنانة استقروا بالقرب من مسيل ماء امتثالاً لأمر حرب بن أمية، وكان حرب بن أمية قد أمر بني كنانة بأن يثبتوا في المؤخرة وألا يغادروا أمكنتهم، فلما رأى بنو كنانة تقهقر قريش تقدم فريق منهم قليلاً، على حين كان فريق آخر يولي الأدبار، وهكذا رأى محمد هذه الهزيمة التي مني بها قومه.

ثم تقابل الفريقان بعد شهرين في العبلاء بجوار السوق، فانتصرت هوازن في هذه المرة أيضاً.

ثم جاء كل من الفريقين بعدده ومدده إلى عكاظ وتقاتلا، وكانت الهزائم الثلاث التي أصيب بها قريش قد غاظت أبناء أمية الستة الذين عرفوا بالعنابس[1] فشدوا أفخاذهم بالوثاق كما تشد الجمال لكيلا يفروا مفضلين الموت على الفرار في هذه المرة، فوضع الواحد منهم ركبته على الأرض على حين كانت ريله[2] ساقه اليسرى موثقة بفخذه الأيمن، وصاروا يرمون العدو بنبالهم وهم على تلك الحال، والعدو يظن أن النصر آتيه.

غلبت قريش هوازن في هذه المرة فجادت قرائح شعرائهم بفخم القصائد تمجيداً لما تم لهم من الظفر.

ودامت هذه الحرب أربع سنوات، ثم انتهت بأن تصالح الفريقان بحسب تقاليد القبائل التي تستوقف النظر، وبيان الأمر أن عد قتلى كلا الفريقين، وأن دفع الفريق الذي كان قتلاه أقل عدداً، ولو كان غالباً، إلى الفريق الآخر دية الفرق، فدفعت قريش إلى هوازن دية عشرين قتيلاً.

---

(1) العنابس: جمع العنبس وهو الأسد.

(2) الريلة: أصول الأفخاذ.

قامت تلك التقاليد على الرأي القائل بأن تظل القبيلة كما كانت عليه من القوة بالنسبة إلى القبيلة المحاربة الأخرى، ومما حدث أن حروباً لم تنته رغبة في أن يتساوى الفريقان في عدد قتلاهما فصارت الدية عاملاً على وقف القتال بسرعةٍ لأنها ثمن للدم.

وكان من نتائج حرب الفجار أن قيل كثير من القصائد فيها، وأن ذهب أسم البراض مثلاً للشر والفجور، فصار يقال: "شر من البراض، أفجر من البراض".

الفصل الرابع

خديجة

" آمنت بی إذ كفر بی الناس، وصدقتنی إذ كذبنی الناس، وآستنی فی مالها إذ حرمنی الناس ".

زاول محمد الشاب اليتيم عدة أعمال، ورافق عمه الزبير بن عبد المطلب إلى اليمن، فلما بلغ العشرين من عمره حمل، أيضاً، على رعي الغنم أحياناً، مع ما في ذل من الغضاضة لمن في تلك السن على الخصوص، ومع ترك ذلك للبنات والموالي على العموم، ومما حدث أن كان لمحمد دكان في مكة حيناً من الزمن، وأن أصبح محمد، غير مرةٍ، موظفاً تجارياً أو وكيلاً في الرحلات.

وكانت خديجة الأسدية القرشية الأيم ذات ثراء بعد أن تزوجت مرتين في بني مخزوم الأغنياء، وكانت تدير شؤونها بنفسها، وكان يساعدها على ذلك أبوها خويلد وبعض الرجال الأمناء، وصار محلها التجارى من أهم بيوت مكة التجارية التى هى بندقية الصحراء.

رافق ابن أخٍ لخديجة محمداً في أحد أسفاره فشهد لها بصدق محمد وأمانته وفطنته، فبعثت إليه، وكان في السنة الخامسة والعشرين من عمره، فوجدته جميل الخلقة وسيم الوجه حسن الرجولة، فتفرست فيه النجابة، فعرضت عليه أن يتاجر لها، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، فقبل ذلك منها.

لم يلبث محمد أن أصبح موضع ثقة لخديجة فصار يقود قوافلها في طول جزيرة العرب وعرضها فاتصل، وهو الأمى، بمختف الشعوب والأديان، وصار له علم بالرجال مما انتفع به كثيراً في المستقبل، وأتيح له بذلك أن يطوف في مختلف البقاع، فمر من هضاب نجد ومن أودية مدين ومن جبال سراة الطائف ذوات الأشجار المثمرة مما هو معروف بأوربة، ومن جبال عسير ذوات القبائل المتبربرة التى كان رجالها يبيعون بناتهم المراهقات في الأسواق ويعيرون الضيوف زوجاتهم وأتيح له بذلك أن يعيش تحت الخيام مع أسلاف الأعراب الأكلي الضمان[1] واليرابيع[2]، والشعراء الجياع مع زهو.

---

(1) الضبان: جمع ضب وهو دويبه ذات ذنب كثير العقد.

(2) اليرابيع: جمع يربوع وهو نوع من القواضم يشبه الفأر قصير اليدين طويل الرجلين وله ذنب طويل.

http://www.al-maktabeh.com

زادت خديجة الأيم اطلاعاً علىمواهب وكيلها الوسيم محمد، فأرادت الزواج به، فأعربت عن ذلك لغلامها ميسرة، فانطلق ميسرة يمهد السبيل لذلك[1].

قال مسرة لمحمدٍ ذات مساء: " ما يمنعك أن تتزوج، وقد تزوج لداتك وصار لهم الولد؟".

محمد: "ما بيدي ما أتزوج به".

ميسرة: "فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟"

محمد ممسكاً بذراع ميسرة: "من هى؟".

ميسرة: "خديجة!"

محمد : وكيف بي بذلك .

ميسرة: "بلى، وأنا أفعل"

ترك الغلام ميسرة محمداً يفكر فى الأمر، ولم يشأ أن يزيد على ذلك فى هذه المرة، وأرسلت خديجة، فى الغد، من يخبره بأنها راغبة فى الزواج به.

لم يتم لخديجة ما عزمت عليه بغير مقاومة، فلم يرق أسرتها أن تراها، وهى غنية حليفة بنى مخزوم، تتوج يتيماً فقيراً غامض الأمر من عشيرة دون بنى مخزوم قدراً (!) وليس بعسير على المرء أن يتصور ما قاله آل خديجة لها حول عدم كفاءة موظف فى الزواج بها فضلاً عن إشارتهم إلى أنها فى الأربعين من عمرها، ومما يروى أنها أسكرت أباها (أو عمها) بعد غداء فاخر لتنزع موافقته على زواجها به.

وبدت خديجة بعيدة من أن تكون أمة لأموالها عادة ثروتها وسيلة لقضاء ميمول قلبها بسهولة.

---

[1] جــاء فى كتب السيرة والتاريخ أن خديجة أعربت لصديقتها نفيسة بنت منية، لالغلامها ميسرة، عن عزمها على الزواج بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن نفيسة هى التى كلمته فى ذلك (المترجم)

ويقال إن أبا طالب أصدق خديجة عن ابن أخيه عشرين بكرة[1]، أى ما يعدل عنه نحو خمسمائة درهم، وأنه أشاد بذكر قريش وبفضائل ابن أخيه الغنى بمحاسن الروح أكثر منه بمواهب المال الزائل، وأن روثة ابن عم خديجة أجابه عن قوله.

بدت حفلة الزواج ذات بهجة، ودامت الوليمة إلى ساعة متأخرة من الليل، وأريق نبيذ البلح والعنب بكثرة ورقصت جوارى خديجة وضر بن بالدفوف على ضوء المشاعل ونور النجوم السابحة فى سماء بلاد العرب الزاهرة.

ونحر جزور[2] وأطعم الفقراء.

وداومت خديجة على إدارة ثروتها، مع القيام بأمور زوجها المعاشية. وعلم أمرُ محمد أكثر مما كان عليه فى جمهورية مكة التجارية التى تقاس أهمية الناس فيها بما عندهم من المال، وقدر خلقه، مع ذلك، فلقب بالأمين، وبقى مع ذلك، ذا شأن ثانوى، فلم يفكر أحد فى رفعه إلى مصاف وجوه قريش، ولكنه حدث، ذات يوم، ما برز به على ما روى.

أراد أهل مكة فى سنة ٦٠٥ أن يجددوا، على الوجه اللائق، بناء الكعبة التى حكى عنها ديودور الصقلى قبل المسيح بخمسين سنة، والتى كانت بانتيون بلاد العرب، والتى كانت تهدمها السيول بين حين وآخر لقلة متانتها، والتى كانت قائمة فى وسط الميدان المكى الكبير، والتى كانت تزين من الداخل بالصور، والتى كانت تحاط من الخارج بأصنام على عدد أيام السنة القمرية (٣٦٠ صنماً)، فتدل على عبادة فلكية، والتى كانت تكسى بالديباج وتبدل كسوتها فى يوم عاشوراء من كل سنة (١٠ المحرم)، والتى كان بابها مصنوعاً من الحديد المزين ببضعة ألواح مسبوكة من ذهب السيوف والغزالة التى وجدها عبد المطلب وفتما أزال الردم من بئر زمزم ونظفها.

---

(1) البكرة: مؤنث بكر، وهى الفتى من الإبل.

(2) الجزور: من الإبل خاصة يقع على الذكر والأنثى.

وكان يبدو فى جوف الكعبة تمثال الإله هُبل الذى جاء به أمير خزاعى من العمالقة فى القرن الثالث من الميلاد، والذى كان مصنوعاً من العقيق على صورة شيخ ذى لحية ويد ذهبية لابس رداء ملوناً مبللا بالزغفران والأطياب فكان محلا للاحترام على الخصوص.

وعند هبل كان يضرب بالقداح السبعة المكتوبة على كل واحدة منها واحدة من الكلمات: "نعم - لا - العقل - منكم - من غيركم - ملصق - غفل"، فإذا أراد أحدهم الزواج أو حفر بئر أو تسليم دية الخ، صلى للصنم وخلط كاهن القداح واستقسم بها، وكان يوجد تحت الصنم مخبأ فى الأرض لكنز الضحايا ودم القرابين، ويروى أن عيسى ومريم كانا مصورين على سارية فى الكعبة.

وكان لكل قبيلة صنم خاص سهل النقل موضوع تحت قيه، وكان من عادة شبان القبيلة أن يأخذوا صنمهم هذا إلى الحرب هازجين، وكان لبعض القبائل أصنام، ومعابد محلية أحياناً، كذى الخَلَصه لبنى خثعم فى اليمن، ورضا لبنى ربيعة ابن كعب فى نجد، وذى الكعبات لبنى وائل فى سنداد بالعراق، واللات الشهيرة لبنى ثقيف فى الطائف، والعزى لقريش فى نخلة، ومناة فى قديد بين مكة والمدينة إلخ.

بيد أن الكعبة كانت معبداً عاماً لأكثر بلاد العرب والمحل الوحيد للحج وبيت الله العلى ومقر للآلهة التابعة.

وكان الحجر الأسود الشهير، الذى هو صنم مكة الخاص، (والذى ذهب العرب إلى أنه الشىء الوحيد الذى تشتمل عليه الأرض مما فى الجنة وإلى أن جبريل جاء به إلى إسماعيل منها فاسود بخطايا الناس فيحتمل أنه نيزك[١]، أو كذانة[٢]، لما قيل من أنه يعوم فى الماء) مدمجاً فى أحد أركان الكعبة على ارتفاع قامة الرجل، ولم تكن الكعبة غير صوان لهذا الحجر الأسود فى البداءة على ما يحتمل.

---

[1] يستعملون "النيزك" لما يظهر فى السماء كنجوم تتساقط.

[2] الكذانة: الحجر الرخو أو النخر.

وكان الحجر الأسود يقبل أو يمس بورع فى أثناء الطواف سبع مرات حول الكعبة، وكان الرجال يطوفون حولها عراة والنساء يطفن لابسات قمصاناً.

ومما حدث أن دخل لص الكعبة الصغيرة الحجم فلم يزد ارتفاعها عن قامة الرجل إلا قليلاً وأن سرق منها، ذات ليلة، الكنز المحفوظ تحت الأرض فيحرسه الإله هبل، فرأت قريش أن تزيدها ارتفاعاً وأن تبنى لها سقفاً متيناً، ومما حدث أن رمى البحث بسفينة روميه إلى شاطئ جدة فحطمها، وأن كان خشبها صالحاً للبناء، وأن كان بمكة نجار قبطى ماهر، فظهرت الفرصة ملائمة لذلك، ولا عجب، فقط كانت سفن للروم تشق البحر الأحمر مجاوزة القناة التى حفرها الفراعنة بين البرزخ والدلتا قبل دولسيس بعدة قرون.

ترددت قريش فى الهدم ناظرة إلى الطالع، ثم عزمت عليه، موزعةً أمر البناء بين مختلف بطونها، فلما ارتفع البناء إلى المكان الذى يوضع فيه الحجر الأسود اختلفت بطون قريش فى أيها يكون له شرف وضعه فى مكانه، وقد احتدم الجدل خمسة أيام حول هذا الأمر الجلل، وكاد يقع بين تلك البطون شر مستطير لطمع كل بطن أن يكون له ذلك الشرف دون غيره.

عقد بنو عبد الدار وبنو عدى النية على منع أى بطن قوى من احتكار ذلك الشرق ، وأقسموا علي ذلك مؤكدين إيمانهم بإدخال ايديهم حتى المرافق إلى جفنة مملوءة دماً، وهل أوشكت أن تنشب حرب أهلية؟

أشار عليهم شيخ بأن يجعلوا بينهم أول من يدخل باب المسجد حكماً فيما اختلفوا فيه، ففعلوا ذلك منتظرين أمر القدر.

وإن القوم لكذلك إذا أقبل رجل شاب تام الفتوة أسود اللحية متزن الخطا من غير تكلف رزين من غير فتور، بهى الطلعة مع جد، فلما رأوه قالوا: "هذا الأمين، هذا محمد بن عبد الله الهاشمى، رضينا بحكمه".

http://www.al-maktabeh.com

قال محمد: "هلم إلى ثوباً" ، فأتى به فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: "ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب"، فرفعه زمعة وأبو حذيفة وقيس بن عدى وعتبة بن ربيعة إلي موضعه فى الركن الشمالى فوضعه هو بيده، مرضياً الجميع بذلك.

ولدت خديجة لمحمد من الإناث زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء (التى حصرت ذريته فى أولادها)، ومن المحتمل أن تكون خديجة قد ولدت له من الذكور "القاسم" فكان يكنى بأبى القاسم، ولا حكم للكنية وحدها فى أمر الأبوة ما عرف أناس يكنون منذ نعومة أظفارهم، ومهما يكن الأمر فإن ما روت كتب السيرة وجود من الأولاد الذكور الأربعة لمحمد لم يتركوا أثراً، وماتوا، عند افتراض ولادتهم، أطفالاً.

ولا عجب إذا ما تبنى محمد ولداً إذن، فقد حدث أن سافر ابن أخ لخديجة إلى الشام فى ركب وأن عاد ومعه عدد من الرقيق، وتجارة الرقيق مما كان يدر الربح ومما كان يمارسه أشراف قريش، سواء أمن زنوج إفريقية كان الرقيق أم من أسرى الحرب، وحدث أن كان زيد بن حارثة الكلبى المراهق، الذى أسر فى إحدى الغزوات، واحداً من أولئك الرقيق، وحدث أن أعجب محمد بالغلام زيد الوسيم فرجا من زوجته خديجة أن تشتريه من ابن أخيها ففعلت خديجة ذلك طوعاً، فأعتقه محمد بعد زمن قليل، فلما علم أبوه أنه فى مكة قدم عليه وطلب أن يفديه من محمد، فقال محمد:

" ادعوه وخيروه، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً".

كان زيد شديد الحب لسيده محمد فاختاره، فلما رأى محمد ذلك تبناه جهراً فصار زيد بعد ذلك أشد صحابة محمد وفاء له.

ولم يكن بنو هاشم من المثرين، كما قلنا، وكان التاجر المرابى العباس أكثر أولاد عبد المطلب مالاً مع شدة بخل، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، وأصابت أزمة شديدة قريشاً نتيجة لجدب طويل، فغدا أبو طالب فى ضيق فاقترح محمد على العباس أن يكونا فى عونه

فأتياه وعرضا عليه أن يأخذ كل واحد منهما واحداً من بنيه فيكلاهما عنه، فقال لهما أبو طالب:

"إذا تركتما لى عقيلاً فاصنعا ما شئتما".

فبدا أبو طالب قليل المداراة لعلى وجعفر، فضمهما محمد والعباس إليهما إذا صحت الرواية.

كانت بيت محمد عنوان السعادة الزوجية والفضائل والمنزلية، وكانت خديجة مثل الزوجات الأعلى، وكان محمد أكمل الأزواج، فهذا الرجل الذى سيكون هوى النساء شديداً عنده، فلا يكاد يكتفى باثنتى عشرة امرأة عند بلوغه الستين من عمره، ظل وفياً لخديجة ربع قرن مع أنها أكبر منه سناً، وخديجة هذه بدت عاملة له بكل ما يقوم به النساء مجتمعات، فكانت له الزوجة والمحبة والأم والصديقة والنجية[1] والكاشفة للغم.

وكان محمد ظاهر الشباب، فمما روى أنه بينما كان يرعى القطاع على التلال بجوار مكة حاول مرتين أن يبلغ أماكن الضواحى السهلة ليقضى حاجات شبابه فسار فى طريقه إليها كما يسير فتيان الأرياف فى أثناء سفرهم إلى المدن ليمضوا فيها وقتاً حسناً، ولكن حالاً مفاجئة كانت تثنيه عن ذلك فى كلتا المرتين.

---

(1) النجيبة: مؤنث النجى، وهو من تساره.

الفصل الخامس

البعثة

" ما أنا بقارئ"

توانى محمد قليلاً فى الأعمال منذ حين، وصار لا يبالى بالتجارة والقوافل كما يجب، وغدت أموال زوجته لا تنمو بانتظام، فمحمد إذ وجد عنده ما يغنيه عن كسب عيشه اليومى، ومحمد إذ كان غير راغب فى الثروة لذاتها، ومحمد إذ كان يعد الغنى وسيلة، لا غاية، أخذ ينفق مما عنده فى قضاء حاجاته، وأخذ يميل إلى العزلة والتفكير، وصار هذا الميل يزيد فيه.

أخذ محمد يتحنث[1] كما رأى بعض زهاد نصارى البادية ونساكهم يصنعون، فكان ينقطع عن الناس فى شهر رمضان على الخصوص، وذلك فى غار حراء القريب من مكة، وكان يؤتى إليه فى أثناء عزلته بالزاد فيقضى طويل الأيام فى ذلك الغار متأملاً عابداً، وما كان له أن يستغنى عن العزلة، شأن أقوياء النفوس وذوى الجد من الرجال، ولم ينفك محمد عن الانقطاع حتى بعد أن أصبح رئيس دولة وصارت أمور السياسة والحرب تشغل باله لما فى الانقطاع من مصدر القوة والاتزان والحكمة، وكان محمد يطالب الناس باحترام أوقات اعتكافه الضرورية للاستلهام، أومر القرآن المؤمنين بألا يدخلوا بيوته إلا أن يؤذن لهم، وبألا يمكثوا كثيراً فى مجلسه، وعرف محمد القائد للناس ما يكره فى الرجال وما يأتونه من الشغب والنزاع والطغيان، فقال: "يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف[2] الجبال".

وإننا لنتمثل محمداً فى مداخل حراء الصعبة الجافة مستلقياً على صخرة مطلة على السهل وعلى مكة المتشبثةِ بشعاب جبل أبى قبيس، فإذا ما أقبل الليل رأى محمد شباه العراة من الرعاة يعودون بغنمهم بين أصفر الغبار، وكان الهواء من الهدوء والصفاء ما استطاع محمد أن يسمع معه ثغاء الشياه ونقر عصى الرعاة على الحجارة، وكان محمد يشاهد اصفرار التلال الضارب إلى الحمرة كأنها أحرقت بفعل أشعة الشمس الأخيرة التى تزيل ألوان الشجيرات العازمة على الحياة فتتألف أوراقها من أشواك تدافع بها عن نفسها دفاعاً أبدياً.

---

[1] يتحنث: يتعبد، وأصل التحنث: اتقاء الحنث أى الذنب.

[2] الشعف: جمع شعفة وهى رأس الجبل.

http://www.al-maktabeh.com

وينظر محمد طلوع النجوم الأولى، فما أكثر ما تأمل فى هذه النجوم الليلية من شرف مكة أو من باب خيمة أقيمت بالقرب من بئر! وما أكثر ما أعجب بنظام النجوم المنسجم الثابت الذي يدير مجراها ! وتكون هذه النجوم في ليالي صيف الصحراء من الكثرة وشدة النور ما يخيل به إلى الإنسان أنه يسمع صوتاً للمعانها كما يسمع صوت نار موقد كبير.

والحق إن فى السماء لآيات لأولى الأبصار، والحق أن العالم حافل بالأسرار وأن العالم سر بنفسه، أفلا يكفيه أن يفتح عينيه وأذنيه ليرى ويسمع؟ ليرى حقاً، وليسمع كلاماً لا يعبر عنه، ويلوح له أنه يسمع شيئاً مع ذلك، وهل يتطلب سماع أصوات ما وراء النجوم غير قلب نقى ونفس صادقة وروح مستعدة؟

سيتخذ محمد شاهداً، بعد زمن قصير، هذه النجوم وهذه القبة الليلية، وهذا القمر ذا الضياء المعتدل وذا النور القوى قوة نور الإخلاص والذى تترجح وجوهه بين خيط فضى شاحب وهلال لطيف فتبدو رقصاً موقعاً.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.."

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾

ألا تهوى النجوم يوماً؟ ألا ينشق القمر؟ ألا تطوى السماء كطى السجل للكتب؟ ألا تخرج الأرض أثقالها؟ ألا تكور الشمس؟ ألا تنتثر الكواكب؟ ألا ينفخ فى الصور؟ ألا تعلم نفس ما قدمت وأخرت كما يقول النصارى؟

لم يكن مثل هذه التأمل الهادئ الخاص بأهل الشرق نتيجة فتور عقيم، بل إلى كشف ما وراء الحجب ويحث على العمل عند الضرورة، وقد استطاع أكابر المتأملين أن يكونوا من المبدعين الذين لم يملوا، والتأمل الصحيح يحمل بذور الحركة والتحرر من الهوى الطارئ.

عاني محمد أزمة، فأراد أن يجد حلا فى عزلته الجبلية، فهل يسمع الحقيقة الأبدية التى تتفجر من صميم الأشياء فى صوت البرية العظيم على حين ينظر فى السماء ذات الكواكب فوق رأسه ويستمع فى أعماق قلبه البشرى الأمى الفطريّ التقى الخالص؟

كان لدى محمد ريب فى حكمة الناس، وما كان ليرضى بغير الحقيقة الناصعة، وما كان ليعيش إلا فى الحقيقة، فما كان يراه حوله ليس حقاً، وما كانت حياة قريش حقاً، وما كان على شيء من الحق سائقو القوافل المرابون، ولا الأعراب النهابون الفوضويون ، ولا الأفاقون المتحللون ، ولا الحلفاء القاطنون في ضواحي ُمكة القاسطون[1]، فهم عن بعض ما هو جوهرى غافلون، ولم تكن من الحق تلك الأصنام المحيطة بالكعبة، ولم يكن إلها حقاً هبل ذو اللحية الطويلة واللابسُ رداء ملوناً والمبلل بالأطياب.

ولكن ما هى الحقيقة؟ ليس الإنسان جديراً باسم الإنسان ما لم يضع هذا السؤال على وجه غير الذى وضعه به بيلاطس.

ما هى الحقيقة؟

جاء زيد بن عمرو القرشى الحكيم إلى الكعبة ليصلى ساجداً فأسند ظهره إلى بابها وقال يلوم بنى قومه على خرافاتهم:

"اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكن لا أعلمه"

وكيف يعرف دين الحق؟ أهو دين اليهود الأقوياء فى يثرب وفى واحات الحجاز؟ أم دين النصارى الذين يتلون كتاباً حافلاً بالأسرار فارضاً احترامه على الناس؟ قدر محمد النصارى فى رحلاته ولم يكن عدد النصارى قليلاً فى ضواحى مكة ولا سيما بين الموالى الذين كان يؤتى بهم من بلاد الحبشة، فهل كان هؤلاء العوام حملة للحق الذى يجهله أشراف العرب؟ مال محمد إلى ذلك الدين، ولكنه كان سيء الاطلاع عليه، ولم يكن هؤلاء النصارى الجهلاء الذين ران حب الخلاف على قلوبهم قادرين على تعليمه، فكان محتاجاً إلى ما ينير بصيرته رأساً.

---

[1] قسط يقسط قسطاً: جار وحاد عن الحق فهو (قاسط).

كان زيد بن عمرو شاعراً حكيماً، وكان الله، لا الجن، رجاءه، فسبح بحمد الله الواحد خالق السماوات والأرض فى أشعاره وجحد باللات والعزى وقال إنه لم يبلغ من الجنون درجة يؤمن معها باللات والعزى، أى بآلهة غبية لقوم أغبياء، فيجب أن تتبدد هذه الخرافات أمام نور العقل، كما تتبدد أشباح الليل وأوهام الظلام أمام نور النهار.

ومما حدث أن محمداً اجتمع بزيد بن عمرو فى مكان قريب من مكة فدعاه إلى الأكل معه، فامتنع عن تناول اللحم لأنه مما ذبح على النصب[1]، وقال: "إننى لا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه*".

واستوقف نظر محمد، الذى كان يمارس الدين العادى كما يحتمل، مارآه من زيد بن عمرو المسن، فزادت ريبه بما تم له من الاجتماع بأصحاب زيد أو مريديه.

واجتمعت قريش فى عيد لهم بوادى نخلة تعظيماً للعزى التى كان محمد قد قرب لها شاة بيضاء، فخلص زيد بن عمرو وعثمان بن الحويرث وعبيد الله ابن جحش وورقة بن نوفل (وهذان الأخيران من أقرباء محمد) منهم نجيا[2]، فقال بعضهم لبعض: "تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا فى البلدان والتمسوا الحنيفة دين إبراهيم".

فأما زيد بن عمرو فقد أراد الخروج إلى الشام بلد النصارى، فلما علمت زوجته والخطاب (أبو الفتى عمر) ذلك عملاً على منعه فأذاعا أنه مجنون فوكلا به من سفهاء القوم من يهزأون به، فاستطاع أن يفر إلى فلسطين والعراق ليسأل الرهبان والأحبار ، ثم مات فى طريقه راجعاً إلى مكة قبل أن يلحق بمحمد نبياً، فدعا له محمد وعده مبشراً به ورثاه ورقة بن نوفل وأمية بن أبى الصلت فى أشعار لهما.

---

(1) النصب: كل ما عبد من دون الله.

(2) خلصوا نجياً: خلصوا متناجين أى متسارين.

وأما عبيد الله بن جحش فقد أسلم، ثم هاجر إلى الحبشة، فتنصر وفارق الإسلام ومات هناك، فتزوج محمد امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على الروم فتنصر، ويظهر أن عثمان بن الحويرث كان دون رفقائه الثلاثة تديناً وأكثر منهم طموحاً، فأراد أن يخضع مكة لحماية الروم أن يكون عامل قيصرٍ عليها، فطردته قريش فاحتمى بالغساسنة فسموه.

وأما ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة، فقد تنصر وصار عالماً بالكتب المقدسة فنقل إلي العربية بعض ما فى الأناجيل على ما يروى، وكان يعيش فى البيئة التى يعيش فيها محمد.

فلما كانت سنة ٦١٠ كان الاضطراب النفسى الذى يعانيه محمد على أشده، فصار لا يحتمل أن ينقصه وينقص قومه بعض ما هو جوهرى ، وأن ينسى الناس الأمر الضرورى وأن يتمسك كل إنسان بصنم قبيلته وصنم عشيرته، وأن يخشى الناس الجن والغيلان والأشباح وأن يهملوا الحقيقة العليا التى بلغ من نسيانهم لها ما فيه موت الروح مع عدم إنكارهم إياها على ما يحتمل، فمحمد كان قلبه قد خلص من جميع هذه السفاسف وتحرر من جميع القوى التابعة لقوةٍ غيرها ومن أى كائن صادر عن الكائن الواحد الذى أصبح يعرفه الآن، وهو الذى علم من نصارى الشام أو مكة وجود دين موحى به، وأدرك أن شعوباً كانت مؤتمنة على الحق وفق الأوامر الإلهية كما بلغها إياها أناس موحىً إليهم وأن الناس كما ضلوا أرسل الله إليهم رسولاً ليدعوهم إلى الصراط المستقيم، إلى طريق الحق الثابتة، وأن دين الأنبياء واحد فى كل زمن، وأن الناس كلما حرفوه وأفسدوه أوحى الله إلى رجل لكى يقومه، وأن العرب غائصون فى الضلال المبين، أفلا يحق له، والأمر كما ترى، أن يرجو تجلى رحمة الله له من جديد وأن تكون فى عونه؟

أخذ محمد يزيد رغبة عن الاجتماع بالناس، وصار يجد فى عزلته فى غار حراء ما تقر به عينه، فيقضى الأسابيعَ فيه ومعه زاد قليل، وأصبح له بالصوم والسهر وإنعام النظر فى الفكرة الواحدة ما تهيم به روحه، وأضحى لا يفرق جيداً بين تعاقب الليل والنهار ، وبين اليقظة والمنام ، وغدا يقضي طويل الساعات جاثيا فى الظلام أو مستلقياً تحت الشمس أو سائراً

http://www.al-maktabeh.com

بخطا واسعةٍ فى الشعاب الصخرية، وكان كلما سار خيل إليه أن أصواتاً تخرج من الحجارة ، فإذا ما تعثر بحجر ارتد ، والحجارة كثيرة تحت وهج الشمس والحجارة تحييه بـ "رسول الله".

عاد محمد إلى بيته فراع خديجة الصالحة ما رأته من هيامه وصمته، وصار يبدو فى بعض الأحيان غير شاعر بما حوله مغشياً عليه خفى النفس، ثم يظهر نائماً منتظم التنفس هادئاً ثم خافق القلب، فيرى فى منامه رجلاً هائلاً صافاً قدميه فى أفق السماء يدنو منه باسطاً ذراعية ليقبض عليه، فيصحو مذعوراً مبللاً عرقاً، فتمسح خديجة عرق جبينه وتسأله عما بدا له برفق وبصوت خافت ينم على الإشفاق، فلا ترى منه سوى السكوت أو الإعراض عن أسئلتها أو إجابتها بما لم تفهمه من الكلام.

أصبح محمد بعد انقضاء ستة أشهر نحيفاً منهوك الجسم غير منتظم الخطا أشعث الشعر واللحية غريب النظرات، فأخذ يقنط، فهل أصابه مس كما كان يجد فى الغالب، فأضحى ألعوبة بأيدى قوى الشر الكريهة وهل صار شاعراً يستوحى الجن بما يجرى على لسانه من الكلام الموزون؟ أخذ محمد يقنط لما يحمله من مقت الشعراء الذين هم ألعوبة الأرواح والذين يقولون مالا يفعلون.

أثقل هذا الحمل كاهل محمد، فقال محمد لخديجة الكريمة الخلق: "أخشى أن يكون بى جنون"، "أرى فىَّ علائم الممسوسين، ومن يعتقد أننى أكون شاعراً أو مجنوناً؟ لا تحدثى أحداً عن هذا*".

سمعت خديجة هذا السر، وهو ما كانت تنتظره وتخشاه، وكيف تسكن روعه وقد ساورتها المخاوف؟ ولكن هذه المرأة فطرت على تفريج الغم وترويح النفس، فكانت جماعة لمتانة الزوجات الصالحات وحنان الأمهات، ومن ثم كانت حاملة لبعلها الأصغر منها سناً أكمل ضروب الود والحب فكان من اغتباط وفائها أن تجد اليوم، مع غموض، هذا الرجل القوى، هذا الزوج العجيب، ضعيفاً مريضاً، فكيف تلقى السكينة إلى قلبه؟

خديجة: "يا أبا القاسم! ألست الأمين كما تسمى؟ ألست الثقة الناصح الصادق؟ أنت لا تخدع أحداً، فكيف يكون الله خادعك؟ ألست تقياً زاهداً محسناً قارياً للضعيف؟ الست محترماً لأهلك مطعما للجائع كاسياً للعاري عوناً للغريب نصيراً للضعيف ؟ فلن تكون ألعوبة للشياطين الكاذبين، ولا للجن الخبيثين*".

محمد: "من هو هذا الذى يأتينى، ثم يأتينى، بلا انقطاع إذن؟ ومن هو هذا الذى لا يذكر لى اسمه ولا أستطيع منه فراراً؟*".

عاد الغم إلى محمد فارتعش واحمر وجهه واصفر، وصار يسمع دوياً فى أذنيه وشخص بصره، فكأن شيئاً غريباً جاءه فقال:

" ها هو قد جاءنى".

لم يكن ذلك فى المنام، بعد أن عاد محمد لا ينام ولا يحلم، ولم ينفك ذلك الكائن العجيب عن الاقتراب منه.

هنالك عن لخديجة أمر فقالت لزوجها:

"أدن منى وكن تحت ردائى*".

لم يعارض محمد فى ذلك، فكان كالولد الجائم فى حضن أمه احتماء بها من كل عدوان فى الدنيا، فألقت خديجة خمارها عليه وحلت قميصها وأجلسته على ركبتها وأدمجته وأخفته تحت ثيابها قريباً من جسمها وشعرها الأسود وسألته:

"هل تراه ؟ ".

محمد: "لا".

خديجة: "إنه ليس بشيطان فاجرٍ إذن، إنه ليس بعفريت، إنه يحترم عفاف النساء، ليس هذا غير ملك*".

جاء شهر رمضان فخرج محمد إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومضت الأيام فاستدار الهلال وزاد نوره ثم عاد كالعرجون[1].

وكان محمد نائماً، ذات ليلة، في غار فلم يلبث أن أتاه ذلك الشخص العجيب بنمط من ديباج عليه كتابه فقال:

"اقرأ".

محمد: " ما أنا بقارئ".

فانقض عليه ذلك الشخص فشده، فجعل ذلك النمط في عنقه فغته حتى ظن أنه الموت ثم أرسله فقال:

"اقرأ".

محمد: "ما أنا بقارئ".

فغته مرة أخرى حتى ظن أنه الموت، ثم أرسله فقال للمرة الثالثة:

"اقرأ".

محمد: "ماذا أقرأ؟"

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١)

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

قرأ محمد ذلك فشعر بأن النور صب في نفسه صباً، وتمثل له ذلك النمط، وهو الأمي، فعلم ما هو مكتوب فيه، وأدرك بنور بصيرته أمر كتاب حافر بالأسرار الإلهية.

جاءه الملك ليؤكد له المعنى الذى خامره منذ عدة شهور، وهو أن الله خلق الإنسان، وأوحى إليه الحقائق التى لا تدرك بالعقل وحده، فهو "الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم".

---

(1) العرجون: أصل العذق الذى يعوج ويتدلى على النخل يابساً بعد أن تقطع عنه الشماريخ.

تلك هى معجزة الوحى، وذلك هو سر الكلام المكتوب المؤثر فى الأمى والمحرك له إذا ما اشتمل على نص إلهى، وبذلك سيكون لدى العرب، كما عند اليهود والنصارى، كتاب مقدس يتلونه للعبادة، وبذلك سيكون لديهم شريعة سماوية يسلكون بها سبيل النجاة.

انصرف الملك، وهب محمد من نومه، وكأن ذلك كتب فى قلبه.

خرج محمد من الغار هائماً فى شعاب الجبل المظلمة متعثراً، حتى إذا كان فى وسط من الجبل سمع صوتاً من السماء يقول: "يا محمد أنت رسول الله.."

وقد محمد ينظر إلى الملك الذى بدا فى صورة رجل منير فى آفاق السماء، ثم جعل يصرف وجهه عنه فى آفاق السماء مبهوراً فلا يرى غير ذلك، ثم يصرف وجهه مرة أخرى فلا يرى فى جميع الجهات غير الملك ثابتاً منيراً، فالملك فى كل مكان مستقيم هادى جالس على عرش من نار ناظرُ إليه مع صمت.

ذهل محمد وذعر وهام، فجثا وأخفى وجهه بين يديه متصلباً غير شاعر بما حوله.

واضطربت خديجة لعدم رجوع زوجها محمد الذى ذهب منذ طويل زمن مع قليل زاد، فأرسلت عند تبلج الصبح غلاماً يلتمسه فى الغار فلم يجده، فنادى هذا الغلام سيده بصوت عال ، فردت الجبال صدي صوته عبثاً ، فزادت مخاوف خديجة.

انصرف محمد راجعاً إلى أهله غير مبكر، فأتى خديجة منهوكاً مضطرباً عابساً مشوش الثياب فجلس إلى فخذها، مضيفاً إليها من غير أن يتكلم، فسألته وهى تسمح شعره:

"يا أبا القاسم، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى".

فحدثها محمد بالذى رأى، وأعرب لها عن فزعه وغمه وحميته وشكوكه، فقالت له:

"أبشر يا ابن عم واثبت، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق".

ارتجف فؤاد محمد وجزع فقال:

"زملونى ! زملونى[1]!"

تناولت خديجة رداء من صوف والقته على زوجها وزملته مخفية رأسه وعينيه به، ثم هدهدته[2] كما تهدهد الصبى أمه، ثم ألقته يرفق على الفراش فنام، فلما اطمأنت إلى نوم زوجها انطلقت إلى ابن عمها العالم ورقة بن نوفل، وكان ورقة شيخاً حكيماً مطلعاً على كتب اليهود والنصارى قادراً على إدراك الحقيقة وإظهارها فى مثل هذه الأحوال الدقيقة، وحقاً كانت خديجة تعجب بزوجها إعجاباً مطلقاً مؤمنة به، غير أن تلك الأمور غريبة لا ريب.

أخبرت خديجة ورقة بما علمت فقال هذا الشيخ:

"قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقت يا خديجة لقد جاءه الناموس[3] الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت"، "ولكن ماذا قال زوجك أيضاً؟ أأمره الملك بالدعوة؟ أحمله بعثة جازمة؟ أأشار عليه بدعوة الناس إلى الله؟ أريد أن أعلم ذلك بسرعة، لأننى أرغب فى هذه الحالةأن أكون أول المؤمنين ببعثة محمد واتباع دينه*".

عادت خديجة إلى المنزل فوجدت محمداً لا يزال نائماً، فألقت عليه نظرات حب وإشفاق، وإن الأمر لكذلك، إذ رأته يهتز ويتنفس بعناء ويتصبب جبينه عرقاً ويقول، فقد جاء الملك.

الملك: "قم*".

محمد: "قمت، فماذا أصنع؟*".

---

(1) زملونى: لفونى.

(2) هدهدت الصبى أمه: حركته لينام.

(3) الناموس فى اللغة صاحب السر، والمراد به أمين الوحى جبريل.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

خديجة برفق: "يا أبا القاسم، عد إلى فراشك، فلابد لك من الراحة، فلماذا لا تنام؟*".

محمد بوقار: "انقضى زمن النوم والراحة، فقد عاد جبريل وأمرنى بأن أدعو الناس إلى الله وإلى عبادته، فمن أدعو ومن يؤمن بى؟*"

خفض محمد رأسه التعب، فقالت له خديجة بحزم:

"تستطيع أن تدعونى قبل كل إنسان، فأنا مؤمنة بك*".

طاف محمد بالكعبة بعد زمن قليل، فلقية ورقة بن نوفل وهو يطوف الكعبة فسأله هذا الشيخ الأعمى عما أخبرته به ابنة عمه فقص عليه محمد ما رآه من وحى عجيب فقال ورقة:

"والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه".

محمد: "أو مخرجى هم؟".

ورقة: " نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، ليتنى أكون فيها جذعاً[1]" ليتنى أكون حياً".

ثم أدنى ورقة رأس محمد منه بيديه المرتجفتين فقبل جبينه، فكان لمحمد المضطرب سكينة وراحة بال بذلك.

وكان لابد للنبى من جمع قواه، وكان عليه أن يجاهد نفسه قبل أن يجاهد الناس، فقد فتر عنه الوحى، ولم يعد إليه جبريل، وما كان على محمد إلا أن يفكر ويقدر، وهل كان

[1] ليتنى أكون فيها جذعاً: ليتنى أكون شاباً حين تظهر نبوته حتى أبالغ في نصرته.

http://www.al-maktabeh.com

فريسة الوهم والخيال؟ ود لو كان ذلك ما شعر بما سيلاقيه من ضروب المحن وبمقاومة كل شيء له وبعبء السالة الذى لا تحتمله نفس بشرية.

كان فتور الوحى أمراً مؤلماً، وما كان النبى ليصبر على حياة الشك والحيرة، فقد عاد إلى غار حراء، إلى الأماكن التى نزل عليه الوحى فيها، راجياً أن يجده فلم يدو فى قلبه قول، فياله من صمت! ويالها من عزلة ثقيلة! أصبح فؤاده فارغاً بعد أن ملئ بما يعجز القلم عن وصفه وصار محتاجاً إلى الصراخ بألم، وبدا "ظلام ليل" الروح.

أخذ محمد يقصد ذرى الجبال فيخيل إلى الناظر إليه أنه مجنون، وصار يجول طويل الساعات ضالاً فى الشعاب[1] الصعبة وفوق الوهاد[2] فاراً من الناس هارباً من نفسه باحثاً، على غير جدوى، عن الإله الذى صار لا يطيق غيابه، وكيف يحرص على حياة خالية مما اتصل به إلى ما وراء نفسه؟ وكيف يحتمل هذا الشك فى أعمق ما يجول فيه؟ والحق أن العيش فى ذلك الغم، فى ذلك الاعتزال، مع الشعور به والتفكير فيه، هو من نوع العذاب الذى لا يطيقه إنسان، وهل يلقى محمد بنفسه من فوق تلك الصخور إلى تلك الهوة الفاغره فاها قاتلاً نفسه موارياً لها فيها؟ حزن محمد حزناً غدا منه مراراً كى يتردى[3] من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أو فى بذورة جبلٍ لكى يلقى نفسه سمع صوتاً يقول: "إنك نبى الله"، فيبعده الملك بذلك من الهاوية، فيرجع محمد إلى خديجة فتسكن روعه وتسليه، وهكذا أوشك محمد أن يقتل نفسه غير مرة، وهكذا يتبدى له الملك فى كل مرة قائلاً: "إنك نبى الله"، وذلك كله مع دوام فتور الوحى.

وبينما كان محمد يئن فى انتظاره حسرة، وبينما كان محمد يرجو آية، وبينما كان محمد يألم كثيراً من انقطاع الوحى، إذ نزل عليه جبريل بما يسكن فؤاده، إذ نزل عليه بسورة الضحى:)

---

(1) الشعاب: جمع شعب وهو الطريق فى الجبل.

(2) الوهاد: جمع وهدة وهى الهوة.

(3) تردى فى الهوى: سقط فيها.

﴿وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

طابت نفس محمد، التى لم تكن لتصبر على غير حياة الحق، سروراً بذلك، وليس الجلال فى عودة الطمأنينة إليه فقط، مع ما فيها من حلاوة، بل فيما انطوى عليه الوحى من الأمر والقيام بالواجب ومن التحديث بنعمة الله أيضاً، حقاً التحديث بذلك، وإذا لم يسطع أن يعلن ذلك للجميع؟ ليعلنه لمن يقدر على الوصول إليهم، فما كان الرفض والاستخفاف يذكران بجانب الشك الباطنى.

علم جبريل محمداً العبادة والصلاة وما إليها، وأبان له أن طهارة البدن من شروط العبادة وأنه لابد من الوضوء قبل الصلاة، وذلك بغسل الوجوه والأيدي إلى المرافق والأرجل إلى الكعبين.

ثم نهض النبى ووجه وجهه إلى ربه قائلاً: "الله أكبر" وقرأ ما تيسر من القرآن وركع واضعاً يديه على ركبتيه مكرراً كلمة: "الله أكبر"، ثم اعتدل ليسجد واضعاً جبينه على الأرض، ثم قعد ثم سجد ثم قام ليكرر جميع ذلك، ثم قعد ليقول: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله"، وذلك مع ذكر وعد الله والبعث والحساب والجنة والنار والرسالة.

اقتدت خديجة بالنبى، ولم يعلم أحد ذلك بعد، ودخل علىّ، ذات مرة، على النبى ومعه خديجة وهما يصليان مع تلاوة عبارة منسجمة غير مسبوقة.

علىّ: "ما هذا؟"

محمد: "دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته والكفر باللات والعزى"، ثم تلا عليه بعض آي القرآن.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ..... ﴾

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .....﴾

﴿لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السماوات وما فى الأرض......﴾.

أخذ جلال ذلك وروعته بمجامع قلب علىّ، ووجل مما فيه من طرافة، فقال:

"هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدث أبا طالب".

وكره محمد يفشى سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له:

"يا على، إذا لم تسلم فاكتم هذا".

فمكث عى ليلته مضطرباً ثم اصبح غادياً إلى محمد وخديجة فأسلم وقال:

"لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله؟".

لم يكن على حين أسلم يبلغ الحلم، ولم يعبد الأصنام ولم يسجد لغير الله، فصار اسمه يذكر مقروناً بكلمة "كرم الله وجهه".

ثم أسلم الرقيق العتيق زيد بن حارثة الذى تبناه محمد، فلم يلبث أن صار من أفضل الصحابة.

ثم أسلم أبو بكر التيمى، الخليفة الأول القادم، الذى كان من ذوى الغنى واليسار بما قام به من التجارة مع نسبٍ متوسط، والذى كان والده أبو قحافة مروحة لعبد الله بن جدعان، والذى كان من نحافته وقامته القصيرة وسيما حليماً بليغاً مألفا[1] لقومه سهلاً عالماً بالأنساب (والعلم بالأنساب أمر مهم جداً فى جميع البيئات المحافظة، كما لاحظ ذلك مارسيل بروست" رواية للأخبار معبراً للرؤيا وجيهاً نافذاً فى مكة حكماً فى الديات مرهف الحس مع ثبات جنان عند الاقتضاء، بكاء(فقيل إنه كن لا يسمع القرآن من غير أن يبكى) معتدل الأحكام حازماً فى حل المعضلات (عند ما قبض على زمام السلطة فى أحوال صعبة)، صديقاً لمحمد قبل الإسلام فأضحى صاحبه للمفضل بعد البعثة ملازماً له فى كل يوم.

(1)

وكان لإسلام أبى بكر بالغ الأثر، فقد تابعه على الإسلام من قريش عثمان بن عفان الأموى وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وصهره (زوج ابنته أسماء) الزبير بن العوام، وهذا مع ذكرنا أن أبا بكر لم يسطع أن يهدى إلى الإسلام أباه وأولاده، ولاسيما ابنه البكر، وأخوته وأخواته الذى ظلوا على وثنيتهم مناهضين له إلى أن فتحت مكة.

ظلت الدعوة إلى الإسلام تقع سراً ثلاث سنين، فكان أمر محمد فيها نبياً، لا رسولاً ذا بعثة دينية واضحة، وأخذت مواعظه الدينية تتدرج فيها إلى الضبط والإحكام، وكان يحيا فيها حياة زهد ونسك، وكان يقضى جزأ كبيراً من الليل فى الصلاة لأن "ناشئة[1] الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلاً[2]"، وكان يرتل القرآن على الدوام، فيقتدى به أصحابه.

وكان محمد يقول بعالم الباطن، وإن لم يكن ولياً، ولا من نمط ما قاله به الحلاج أو القديسة تريز، والباطن عند محمد أهم من الظاهر، والخفى عنده أفضل من المرئى، والنظام الروحى عنده هو الأصل الموجود حقاً، وهو قد أمسك بالحقيقة العميقة فدعا الناس إلى اكتشافه هذا، وهو إذ كان ذا قلب خال من الكذب والغش والغرور لم يترك العروة الوثقى بعد أن استمسك بها، وهو إذ كان واقعياً بصورة مطلقه لم ينجح بأحسن مما فى الحياة العملية عند العمل فى حقل العالم الخارجي، وليس أمر رجال الأديان غير أمره، "فالظاهر عندهم عنوان الباطن"، و "الجذور أصل النبات"، و "ما فى الأرض مثالٌ لما فى السماء"، "والباحث عن ملكوت الله وعدله ينال ما سواهما فضلاً عنهما".

---

[1] ناشئة الليل: العبادة التى تنشأ بالليل.

[2] أقوم قيلاً: أسد مقالاً.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل السادس

التعذيب

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾

(من سورة المزمل)

"قال الله لموسى: أهيه الذى أهيه وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل، أهيه، أرسلنى إليكم" (سفر الخروج: الأصحاح الثالث: ١٤)

أُمر محمد، بعد ثلاث سنوات من بدء الوحى، بأن يجهر بدعوته، فأنزل عليه: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، وأنزل عليه: "ياأيها الرسول بلغ ما أنزلَ إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته..".

تردد النبى وحار فيما يصنع ولم يدر ماذا يعمل، وهو الذى لم يوفق لدى آله إلا قليلاً بعد، فامره جبريل بأن يمضى متوعداً فامتثل مقاوماً حياءه، فصنع طعاماً من لحم الشاة وأحضر لبناً وجمع له علىٌّ بنى عبد المطلب وهم أربعون، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب ، فلما أراد النبى أن يتكلم بدره[1] أبو لهب فتفرقوا ولم يتكلم.

فلما كان الغد صنع النبى مثل ما صنع بالأمس من الطعام والشراب، فقال لهم بعد أن أكلوا وشربوا:

"ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر؟" فسكت القوم، وهل أصبح محمد ذا خطر؟ وهل يريد أن يقحم عشيرته الأقربين فى ذلك الأمر العجاب؟ لا جواب، بل تشاور.

ويهز أبو لهب كتفيه ويسكت أبا طالب الذى هم بمجاملة النبى.

هناك نهض علىّ، ووثب بصوله نحو ابن عمه وصرخ قائلاً:

"أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب على من حاربت"

فوضع محمد يده على عنق الغلام علىّ وقال:

"هذا أخى ووصى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا".

فكان ابتسام، وكانت قهقهة، وكان قول لأبى طالب مع الإشارة إلى الغلام على البطين الأرمص الأحمش[1]:

"قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع!"

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُون﴾ (الشعراء:٢١٦)

أخذ محمد بعد أن أعرضت عنه عشيرته الأقربون يدعو قريشاً إلى الإسلام جهراً.

صعد النبى ذات صباح فى الصفا، فصاح بالناس صيحة قريش للحرب قائلاً: " يا صباحاه! يا بنى فهر ! يا بنى عدى! يا بنى مخزوم!..."

توافد الناس كما لو كان هنالك هجوم من العدو أو استعداد للحرب، وجاء أشراف قريش ومن تخلف منهم أرسل من ينوب عنه، فلما اجتمعت إليه قريش نادى بهم قائلاً:

"أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟".

فقالوا: "ما جربنا عليك كذباً".

فقال: "إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد"، "يا بنى عبد مناف، يا بنى تيم، يا بنى مخزوم، يا بنى أسد!.. يا من اجتمع من قريش! افتدوا أنفسكم! لا أملك لكم من الله شيئاً! اسمعوا ما أمرنى أن أبلغكم إياه!.. *"

هناك نهض أبو لهب وقال "تباً[2] لك ألهذا جمعتنا؟"

أرتج على محمد، فنظر إلى عمه من غير أن ينبس بكلمة، وقد اصفر وجهه واحمر واختلجت عيناه واغتص وأزبد فمه قليلاً، ثم مد يده نحو الهمّاز[3] أبى لهب وتلا ما أنزل الله.

---

[1] الأحمش: دقيق الساقين.

[2] تبا لك: ألزمك الله خسراناً وهلاكاً

[3] الهماز: العياب الطعان.

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾

وأبو لهب هذا كان رجلاً بديناً غضوباً، وكان زوجاً لأخت أبى سفيان أم جميل بنت حرب بن أمية، وكان قد زوج ابنه برقية بنت محمد، وكانت زوجته تكره محمداً وتغريه به فأكره ابنه على تطليق رقية، فتزوجت رقية بالمسلم عثمان بن عفان الذى كان من أجمل رجال مكة، مع ما كان عليه من بعض آثار الجدرى.

وكان أبو سفيان ذلك من أشد الناس عداوة للنبى، إن لم يكن أشدهم، وكان أبو سفيان ذلك أكيس من الفظ أبى لهب، فكان يجتنب القذف والسب، أثناء الصراع القادم من قريش والمسلمين المهاجرين إلى المدينة، وكان أبو سفيان ذلك قد تزوج هند بنت عتبة الحسناء المشهورة بحوادثها الغرامية، وكانت هند هذه زوجاً لابن المغيرة فطلقها لما علم من هيام الشاعر مسافر بها، فلما مثلت هند وزوجها مع أقربائها بين يدى عراف اليمن وبرأها تكهن، كما روى، بأنها ستلد ملكاً (الخليفة معاوية)، فمات مسافر كمداً لعجزه عن تزوجها بسبب فقره وزواجها بأبى سفيان.

وكان محمد يوفق، مع ذلك، لهداية بعض الناس، ولاسيما من كان من الفقراء والضعفاء والنساء والموالى، شأن النصرانية فى البداءة، وكان النجاح يكتب لدعوة محمد فى ضواحى مكة البائسة، فكان الأخلياء والمستعبدون ينصتون لكلامه أكثر مما كان يصنع سكان حى البطحاء من أغنياء قريش المتكبرين الذى ولدوا محافظين على المعتقدات والنظم القديمة مهما كان نوعها.

وإن مما يستوقف النظر ما هاجم به محمد فى البداءة على الخصوص، وهو الذى لم يشتهر بالاشتراكية، الأغنياء الجاحدين المستهزئين، وإعلانه ما فى متاع الدنيا من الخطر على طهارة الروح، فنادى بالويل لمن يكنزون الذهب والفضة ظانين أن خزائنهم تضمن معايشهم إلى الأبد.

http://www.al-maktabeh.com

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ، ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

ظلت طبقة الأشراف مناهضة له، وذكر القرآن أن مجرمى كل قريةٍ أكابرها، وأكابر مكة هم الذين يغرون القوم به ".

لم يجرؤ المسلمون على الصلاة فى الكعبة ببطن مكة، فكانوا يجتمعون فى التلال المجاورة على الحجارة السمر الخشنة وعلى الأرض الكلسية، وكان أولئك القوم يفسدون عليهم اجتماعاتهم فى الغالب بأن يفرقوهم بالحجارة، فبينا المشركون على تلك الحال، ذات يوم، إذ شجوا المسلم سعد بن أبى وقاص، فضرب سعد هذا رجلاً من المشركين بلحى[1] بعيرٍ فشجه، فكانت هذه أول مضاربة فى الإسلام.

وكانت قريش تحاول أن تفسد على محمد دعوته بالاستهزاء، فإذا ما وعظ خنقوا صوته بالمكاء[2] والتصدية[3]، وإذا مر من طريق تهانفوا[4] وأغروا به صبيانهم وسفاءهم.

وكان عمرو بن العاص الفتى الشاعر الوسيم يكثر من هجو النبى ودينه بما هو أشد إيلاماً وخطراً من أى تعذيب، وعمرو هذا هو ابن الغرام، فقد كانت أمه تسكن بيتاً صغيراً فى ضواحى مكة على بابه علم الدعارة، فلما ولد عمرو جمعت من كانوا يغشونها، ومنهم أبو سفيان وأبو لهب وأمية بن خلف مع خبير بالفراسة لينسب عمراً إلى أحدهم، فقالت تلك البغى:

"ترون ما أسفرت عنه علاقاتى بكم، فأيكم يعترف بأنه والد لهذا الصبى يسمه كما يشاء*".

---

(1) اللحى: عظم الحنك، وهو الذى عليه الأسنان.

(2) مكا الرجل: صفر بفيه أو شبك بأصابعه ونفخ فيها.

(3) صدى بيديه: صفق.

(4) تهانف: ضحك باستهزاء.

ألصق هذا الخبر عمراً بالعاص الذى كان أكبر أولئك العشاق سناً، فسمى فاتح مصر القادم بعمرو بن العاص إذن.

وطلبت قريش من النبى الآيات على رسالته، فقالت: لماذا لا يأتى بالمعجزات كما فعل موسى وعيسى؟ ولماذا لا يجعل تلال الصفا ذهباً؟ ولماذا لا يحيى الموتى؟ ولماذا لا يسير جبلاً.

وقالت قريش للرسول ساخرين: " سل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا أو ليفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو ليوح إليك بأثمان السلع فى الغد حتى نضارب عليها*".

فأجابهم القرآن عن ذلك.

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وكان النبى يتلو: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ... وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ... فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ... أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ... وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ... وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى (ما آمنوا به) ... قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ... وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

تشجيع محمد فأخذ يعيب على العرب عبادتهم الأصنام ويشنع شيخ أصنام الكعبة هبل وزوجته مناة والإلاهتين المقدستين اللات والعزى، وصار يسخر من الأنصاب التى لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، والتى ليست غير حجارة يضرجها العرب بالدم والتى لا ينشب[1] العرب أن يرموها إذا ما وجدوا خيراً منها، وشرع يسخر من الجمرات[2] التى لم تكن غير جثوة من حصى فيطاف بها، وصار يهزأ بعبادة بنى حنيفة للأوثان المصنوعة من الحلوى والتى كانوا يأكلونها إذا ما جاعوا، وأصبح يذم الزجر[3] والعيافة[4] والاستقسام بالأزلام[5]، وأضحى ينحى باللائمة على انحلال الأخلاق وقسوة القلوب وبخل الأغنياء وأكل الربا.

تذمر القوم وسخطوا لما رأوا فى ذلك من تقويض للنظام الاجتماعى ومن مقاطعة الأعراب لتجارة مكة ومن تهديد لمصالح مكة ولما ظنوا من طمع محمد فى الرئاسة والسلطان، ولكره العرب ديناً يستند فى صحته إلى الأديان الأجنبية ويستشهد صاحبه على صدقه باليهود والنصارى من أهل الكتاب ويعلن موافقتهم له، وهل يقتدى محمد بعثمان بن الحويرث الذى أراد أن يخضع مكة لحماية قيصر فينصب نفسه ملكاً عليها؟

مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب، ومنهم أبو جهل وأبو سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة، ليحمل ابن أخيه محمداً على السكوت، فردهم رداً جميلاً.

أوجس[6] الشيخ أو طالب فى نفسه خيفة من وعيد أشراف قريش، وعظم عليه فراق قومه وعداوتهم فقال لمحمد: "أبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق".

فظن محمد أن عمه خاذله فحزن، ولكنه قال:

---

(1) لم ينشب: لم يلبث.

(2) الجمرة: الحصاة.

(3) يقال فلان يزجر الطير: أى أنه يرمى الطائر بحصاة أو أنه يصيح فيه فإن ولاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به وإن ولاه مياسره تطير منه.

(4) يقال عكاف الطير يعيفها عيافة: أى أن يعتبر بأسمائها ومساقطها وأصواتها فيتسعد أو يتشاءم.

(5) الأزلام: جمع الزلم وهو السهم لا ريش عليه.

(6) أوجس: أحس.

"ياعم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".

ثم استعبر[1] محمد فبكى، ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال:

"أذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً".

لم يطب أبو طالب نفساً بالإسلام، ولكن العصبية كانت تقضى عليه بحماية ابن أخيه محمد، وأجمع بنو هاشم على حماية محمد إلا ما كان من أبى لهب، وهذا من غير أن يصبأوا[2]، وهذا لعلهم ما يجر إليه قتل محمد من الحرب الأهلية.

وأزمعت قريش، بعد الذى رأوا من ثبات محمد، أن يسوموه[3] هو وصحبه سوء العذاب، فصار أبو لهب وزوجه أم جميل (حمالة الحطب) وجيرانه يلقون النجس أمام بيت النبى فيزيله، وأقسم أبو جهل، المربوع الأنمش الأشقر الذى يكره العرب السمر مثاله، ألا يدع النبى يصلى أمام الكعبة، فلما جاء النبى وصلى جعل من ألقى سلى[4] الجزور[5] على النبى وهو ساجد، فإحتمل النبى هذا الأذى ودخل بيته وغسلت ابنته فاطمة ما لصق به، وكان أبو جهل هذا يكف، أحياناً، عن أذاه للنبى مع ذلك، لما يعتريه من الخوف الخلقى.

وتظاهر عقبة بن أبى معيط متسامحاً نحو محمد، فبلغ ذلك صديقه أبى بن خلف، فحلف أبيّ هذا ألا يكلمه لائماً إياه على إيمانه بهذا (الصابئ) الذى يقضى وقته بما يسخر به من الصلوات والوضوء، فأراد عقبة أن يقيم الدليل على أنه لا يستحق هذا اللوم طامعاً فى استرداد ما خسره من الحظوة لدى قريش فحلف باللات والعزى أنه ليس من أتباع محمد وذهب ليتفل فى وجهه، فمسح النبى وجهه بهدوء، فنزل إذ ذاك قول القرآن:

---

(1) استعبر: جرت عبرته.

(2) صبأ الرجل : خرج من دين إلى دين آخر.

(3) سامه: أولاه إياه وأراده عليه.

(4) السلى: الجلدة التى يكون فيها الولد من الناس والمواشى.

(5) الجزور: ما يجزر أى يذبح من النوق والغنم.

http://www.al-maktabeh.com

" ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا".

وأكبر من ذلك تعذيب قريش لصاحبه محمد الضعفاء الذين لم يجدوا من يجيرهم، فكان هؤلاء الأصحاب يجرون إلى البيوت ليضربوا ضرباً مبرحاً[1]، وكان الموالى منهم يعذبهم سادتهم ويقتلونهم، ويروى أن امرأة مسلمة قتلت من شدة التعذيب، ولم يرد بلال الحبشى أن يرتد عن الإسلام، فكان مولاه يلقيه فى الرمضاء[2] عارياً، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره تاركاً إياه يموت عطشاً، فيشهد هذا الحبشى المسكين الله العلى على ذلك بقوله:

"أحد! أحد!".

ورأى العطوف أبو بكر بلالاً يعذب ذات يوم فآلمه ذلك فاشتراه من مولاه وأعتقه وأضحى بلال من الصحابة، وكان أول مؤذن فى الإسلام حامياً للأحباش، واشترى أبو بكر موالى كثيرين بسبب تعذيبهم، وابتاع أبو بكر جارية كان يعذبها عمر بن الخطاب (الخليفة القادم)، وكان بعض المسلمين يذعنون فيرتدون.

كاد ينفد صبر من ليس لهم جوار من المسلمين، فقالوا للنبى:

" إذ بقى عندك صبر فليس أمرنا كذلك، فأذن لنا فى الدفاع عن أنفسنا*".

محمد: "انتظروا أمر الله*".

فلما كانت الليلة القادمة أوحى إليه:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ... ﴾

دعنا نخرج من مكة على الأقل*".

•

---

[1] برح به الأمر: جهده وآذاه أذى شديداً.

[2] الرمضاء: الأرض الحلعية الحارة من شدة حر الشمس.

أشار عليهم محمد بالخروج إلى أرض الحبشة النصرانية التى يملكها ملك عادل (النجاشى)، فهو يتقبل الموحدين الذين يؤذون فى سبيل إيمانهم بقبول حسن.

خرج من المسلمين إلى إفريقية، إذن، عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت محمد والزبير بن العوام (صهر أبى بكر) واثنا عشر رجلاً هاربين بدينهم إلى الله مبتعدين عن المزعجات، فركب هؤلاء المسلمون البحر فى أواخر سنة ٦١٤م، فأحسن النجاشى قبولهم، فحفز هذا نحو ثمانين مسلماً إلى اللحاق بهم في بلاد الحبشة المقراة[1].

وهم أبو بكر بالهجرة إليها أيضاً، فلم يعد من الطريق إلى مكة إلا ليكون فى جوار شيخ عربى وجيه.

دوام محمد، الذى كان يحميه عمه وعشيرته، على الدعوة إلى الإسلام، ولكن بمشقة، فقد حدث أن كان يطوف حول الكعبة ذات يوم، فكان كلما مر بالحضور طائفاً بالبيت غمزوه، فلما أتم طوافه تقدم إليهم وقال مشيراً إلى صدره: "أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبيح". فخجلوا وقالوا له:

"انصرف يا أبا القاسم راشداً فما كنت بجهول".

لامهم أعداؤه لما بدا منهم من ضعف، وحر كوافيهم كوامن الأثرة، فبينما هم على ذلك طلع عليهم النبى فى الغد فوثبوا إليه، وهم يقولون:

" أنت تقول إن آباءنا كانوا على ضلال! أنت تقول إن آلهتنا عاجزة!*".

النبى: "نعم أنا الذى أقول ذلك*".

فكانت ملاكمة، وأراد عقبة بن أبى معيط أن يكفر عن سابق فتوره فخنق النبى خنقاً شديداً،ومن حسن الحظ أن جاء أبو بكر فاشترك بصولة فى الشغب فدفع الأذى عن النبى.

وكان النبى يصادف فى طريقه إلى بيته فى كل يوم رجلاً أو امرأة رقيقاً أو صبياً يسبه وينعته بالجنون وبالكذب ويسفه مواعظه، وكان يبلغ من الوعك والإعياء ما يستلقى معه على

---

[1] المقراة: الكثيرة الضيافة.

حصير، فيسبح في المحزن من الأفكار، ولكنه كان ينبجس من أعماق فؤاده ومن صميم نفسه الإلهام وصوت السلوان، فيرسل الله الملك ليلقى السكينة إليه.

وما كان يصدر من الكلام فى أوقات القنوط والشك فى الدنيا وفى النفس أعنف من سواه وأعسر، فيبدو مرآة لسوء الظن الفاجع ويكون وزنه أشد إيلاماً وسجعه أعظم تأثيراً.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ[1] مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ[2] إِذَا وَقَبَ[3] وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ[4] وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ[5]،الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

عاد محمد إلى عمله ثابت القلب، فلما كان موسم الحج وحل زمن الأسواق الكبرى عرض نفسه على العرب الآتين من جميع أجزاء الجزيرة، وذهب بنفسه إلى عكاظ، فكان الأعراب يتركونه منغضين[6] إليه رؤوسهم بعد أن يستمعوا له ويعجبوا بقوله.

ولم تأل قريش جهداً فى إحباط دعوته وفى حمل العرب على عدم الإيمان بهذا الممسوس الذى لم تتبعه عشيرته الأقربون.

اجتمع إلى الوليد بن المغيرة المخزومى نفر من قريش وتباحثوا فى أى طريق يسلكونها، "فقالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة[7] الكاهن ولا سجعة، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقهِ ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد

---

(1) الفلق: الصبح.

(2) غاسق: ليل عظم ظلامه.

(3) وقب: دخل ظلامه فى كل شيء.

(4) ومن شر النفاثات فى العقد: ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللاتى يعقدن عقداً

(5) الخناس: الذى عادته أن يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه.

(6) ينغضون إليه رؤوسهم: يحركونها نحوه تعجباً واستهزاء.

(7) الزمزمة: الصوت.

عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم[1] ولا عقدهم، قالوا: فما نقول؟ قال: إن أقرب القول فيه لأن تقولوا هوساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته".

وعملت قريش على مداورة محمد عبثاً، فعرض عليه عتبة بن ربيعة باسمهم المال والسيادة والطب مما هو عليه من غرابة الحال.

وبلغا أشراف قريش من الحرص على عدم ترك إنسان يصبأ ما صاروا يراقبون به محمداً مراقبة وثيقة، وأثرت في الأخنس بن شريق وفي أبي سفيان أبي جهل تلاوة محمد للقرآن ليلاً، فذهب الأخنس إلى أبي سفيان، ثم إلى أبي جهل ليعرب عن مشاعره، فقال لأبي جهل:

"يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعنا من محمد؟ "

فكان جواب أبي جهل عن سؤال هذا الضعيف: "ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا ‘لى الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذا؟"

---

(1) النفث: النفخ مع ريق.

الفصل السابع

البعث

﴿الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ، يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

(من سورة القارعة)

http://www.al-maktabeh.com

كانت قريش تجادل محمداً على الدوام، ولكن بلهجة الساخر تقريباً، فكان بعضهم ينكرون خلود الروح، وكان بعضهم يقولون إنها تعيش بعد خروجها من الجسم على شكل هامة[1] تنعق حائمةً حول القبر مخبرة الميت بحوادث الأحياء مطالبة بالثأر إذا كان الميت قتيلاً، وكانوا يذبحون أحياناً ناقة على القبر أو يقيدونها به لتموت جوعاً فتكون مطية للميت في حياته المظلمة، ولكن قريشاً، التي هذا أمرها، كانت تبتسم مرتابة عند ذكر محمد للبعث، ليوم الحساب، لساعة الفصل، فيلوح لها البحث وما إليه من الأمور التي هي من جوهر دعوته من المستحيل، فكان محمد يجيب عن ذلك بأن عجائب الخلق معجزة إعجاز البعث وبأن البعث ليس أصعب من الخلق.

مشى أبي بن خلف إلى النبي بعظم بال قد ارفت[2] فقال: "يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم[3]"، ثم فته بيده، ثم نفخه في الريح نحو النبي، فقال النبي:

"نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار".

وكان لمسلم مال على العاص (أبي عمرو) فجاء يتقاضاه، فقال العاص له: "أنظرني إلى يوم القيامة.. فأقضيك هنالك حقك".

وكان محمد يفزع وينبئ:

كيف يكفر الإنسان بالله؟ ما الذي أعماه عن رؤية نعم الله؟ قال الله للسماوات السبع وللأرض: ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾، ولكن الإنسان [ملك الدنيا، ابن آدم الذي أمر الملائكة بأن تسجد له، المخلوق ﴿في أحسن تقويم﴾ الذي أرسل الله إليه الرسل والكتب المقدسة لتعليمه ﴿ما لم يعلم﴾] بدا كفوراً، ولدى الإنسان من الوقت ما يفكر فيه،

---

(1) الهامة: نوع من البوم الصغير تألف القبور والأماكن الخربة وتنظر من كل مكان أينما درت أدارت رأسها.

(2) ارفت: انكسر واندق.

(3) أرم العظم: بلي.

وذلك قبل أن يحل اليوم الذى لا ينفع فيه التفكير والتقدير، ذلك اليوم الذى تنقلب الأرض فيه إلى غبار، ذلك اليوم الذى تزلف[1] فيه جهنم ذات اللهب.

وكان محمد يحب بنى قومه، ويترنم بمجد مكة وبيتها الذى نجاه الله من إهانة أبرهة، ويتمنى اجتماع كلمة قريش وازدهار تجارتهم، وكان يعدهم بخير الدنيا والآخرة إذا أسلموا ، وكان يرى أن لله المنة إذ أرسل إلى العرب، وقد عطلوا من كتاب، رسولاً منهم موحياً إليه كتاباً بلسانهم، وأنهم صار لديهم ما ينجون به من عذاب الساعة، وأنهم لم يبق لهم ما يعتذرون به عن كفرهم بما انتهى إليهم من آي الله، وأنهم لا ينبغى لهم أن يعجبوا من أن الله لم ينزل القرآن على رجل عظيم أو غنى أو عالم، وأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وأن الويل لمن يغره متاع الحياة الدنيا وحدها، وأنه لا خلاق[2] فى الآخرة لمن يطلب حسنة فى الدنيا فقط، فما الذى يحدو الأقوياء والأغنياء إلى مناهضة الأنبياء على الدوام؟

أجل، إن ما جاء النبى به المؤمنين هو نبأ مبارك، وإن ما جاء النبى به الذين ختم على قلوبهم هو نبأ هائل، وإن النبى آمن بما أنزل إليه ونهض وبلغ، فلا محل للشك بعد اليوم:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

والآن إذا تلهى الطاغون والمستهزئون والجاحدون والملحدون وتناجوا بالإثم والعدوان فإنهم سيلاقون جزاء ما اقترفوا عندما تبلغ الروح التراقى[3] وتخرج الأرض أثقالها، وحينئذ يضحك المؤمنون.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾.

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ... إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ... إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ... أن ما تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ..﴾.

---

(1) أزلفه: قربه.

(2) الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

(3) التراقى: جمع ترقوة وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق.

والنبى يتلو: ﴿أتى أمرُ اللهِ﴾، ونصارى الديماس يقولون: "جاء الرب". والنبى يستشهد بالخلق، والله يقسم بالكواكب بالسماء وبالبروج وبالملائكة وبالخلق وبالساعة وبالضحى والعصر وبالغسق وبالتين وبالزيتون وبطور سنين وبالبلد الأمين (مكة).

﴿والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها[1]، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها[2]﴾

وفى سورة الهول والوعيد وصف للبعث والحساب والجنة والنار وما أنذر الرسل به أممهم فى غضون القرون:

وستنشق السماء وسيخسف القمر، وستنتثر الكواكب، وسينفخ فى الصور[3].

﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ، كَلَّا لا وَزَرَ[4]، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ .

كل إنسان مجزى بأعماله، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة﴾ ، وستوزن أعمال الإنسان بالميزان، والله الرحيم الودود الذى يحب العفو عن التائبين شديدُ العقاب على العصاة والكافرين والبخلاء الذين لا يصلون ولا يطعمون المسكين والذين يدعون اليتيم ولا يفكرون فى يوم الدين، والذين لا يقولون غير اللغو، فأولئك من أصحاب الشمال فلا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم[5] الخياط.

وأولئك هم الذين تحرقهم جهنم من غير أن تفنيهم، فكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، وتكون سرابيلهم من قطران.

---

(1) طحاها: بسطها ومدها.

(2) دساها: ضد زكاها.

(3) الصور: البوق:

(4) لا وزر: لا ملجأ.

(5) حتى يلج الجمل فى سم الخياط: حتى يدخل البعير فى ثقبة الإبرة.

http://www.al-maktabeh.com

﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً، إِلَّا حَمِيماً[1] وَغَسَّاقاً[2] جَزَاءً وِفَاقاً﴾

﴿.. شَجَرَةُ الزَّقُّومِ .. تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ .

﴿... قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ...﴾ .

﴿... فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ .

وغير ذلك حال الذين يؤمنون بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ويؤتون الزكاة ويعينون ذوى القربى ويدرأون السيئة بالحسنة، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[3]، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، ويكلون أمرهم إلى الله.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ، عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ[4]، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ[5]، لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ[6]، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ...﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ .

---

(1) حميم: ماء حار.

(2) غساق: ما يقطر من جلود أهل النار وصديدهم من قيح وغيره.

(3) خصاصة: حاجة.

(4) موضونة: منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت.

(5) معين: الخمر.

(6) لا يصدعون عنها ولا ينزفون: لا يصدعون عنها بخمار ولا تذهب عقولهم أو لا ينفد شرابهم

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، ذَوَاتَا أَفْنَانٍ[1]، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[2] وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[3] إِنسٌ قَبْلَهُمْ

وَلَا جَانٌّ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مُدْهَامَّتَانِ[4]، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ[5] فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ[6] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[7] حِسَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ، فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ، يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ، بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، لا فِيهَا غَوْلٌ[8] وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ[9]، وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ[10]، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾.

---

(1) أفنان: جمع فنن وهو الغصن.

(2) استبرق: ديباج ثخين.

(3) يطمثهن: يمسهن.

(4) مدهامتان: خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة.

(5) نضاختان: فوارتان بالماء

(6) رفرف: وسائد.

(7) عبقرى: منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد الجن.

(8) لا فيها غول: غائلة كما في خمر الدنيا.

(9) ينزفون: يسكرون.

(10) عين: نجل العيون.

وصف المناظر الخضر والنضارة والماء غير الآسن[1] والملاذ والنعيم مما كان يهز مشاعر العرب الذين أثقلهم هواء بلادهم الحار، وسيما قريش الذين حشروا فى واد غير ذى زرع وغير ذى ظل وماء.

ووقف عند ظاهر معنى تلك الآيات على العموم، ويطابق ذلك الوصف ما ورد عن جنة آدم، ويظهر أن الإسلام، كالنصرانية، لم يفرق بين جنة الأرض وجنة السماء تفريقاً واضحاً، خلا بعض الصوفية الذين يفرقون بين الجنة وطوبى المشاهدة.

رأى أناس كثيرون أن ذلك الوصف رمز، ونحن نرى أن الجنة التى وصفها محمد ذات ملاذ حسيةٍ وأن غفران الذنوب وسلام الرحمن على الأصفياء والنظرَ إلى وجه الله أعظم سعادة فيها.

ومحمد يقول، كما قال القديس بولس: "ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه".

وجاء فى القرآن أن المقربين:

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً، إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾.

ويستشهد محمد فى أقواله بالرسل الذين ظهروا قبله، ويذكر أنه لم يصنع غير تكرار ما أتوا به وما أنذروا به، ويقص أنباءهم ليدل على أن الله يجازى من يكفرون بآياته.

وأكثر القرآن من قصص نوح ولوط وإبراهيم وموسى ويونس، وأكثر القرآن من ذكر رسل الله الذين دعوا الأمم إلى التوحيد والفضيلة، وأكثر القرآن من بيان ما صب على الكافرين من العذاب، فما أكثر القرى التى دمرت برجس[2] من السماء بعد إنذارها كبلد لوط! وما محمد إلا رسول الرحمة الإلهية التى جحد بها الناس، فكان يفضل أن يدعو الله بالرحمن فى أوائل بعثته.

---

(1) أسن الماء: تغير فلم يشرب.

(2) الرجس: العقاب.

والناس، كما فى القرآن، فريقان: كافرون ومسلمون، وفى القرآن: وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا، فالناس إذ عمروا هذه الأرض وجب عليهم أن يقوموا بما عاهدوا الله عليه وأن يلبوا دعوة الرسل الذين يذكرونهم به، وجاء فى القرآن أنه لا تبديل لكلمات الله وأن الله لا يفرق بين أحدٍ من رسله.

والتاريخ، كما يراه مفكرو الإسلام، استناداً إلى ما ورد فى القرآن، دولة، وإن شئت فقل تجارب فى أمر التوحيد والأخلاق، أو تناوب بين الجهالة والوحى، وبين العصيان والعقاب، فالله يهلك قوماً كفروا بعد إيمانهم ويرفع أقواماً ويخفض آخرين، والدول عند أولئك المفكرين تبدأ صالحة ثم تخون الأمانة فتزول لتكون تجربة جديدة وهكذا دواليك.

وكان محمد إذا جلس مجلساً وقص من أنباء الرسل، انبرى له النضر بن الحارث من قريش لإبطال تأثير كلامه، فيحدثهم بما تعلمه فى العراق من الأساطير الفارسية ومن أحاديث رستم وأسفنديار التى اتخذها الفردوسى موضوعاً لديوانه "شاهنامه" بعد ثلاثة قرون، ويقول:

"بماذا محمد أحسن حديثاً منى، ما حديث محمد إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها".

والواقع أن المستهزئين الدهريين والأشرار الطاغين هم الذين كانوا يقاومون النبى ويقاهرونه، وأن فى تاريخ الرجال معضلات معقدة فى الغالب، وأنه لا يسهل فى كل وقت تمييز الحق من الباطل والخير من الشر فى أمرهم، فأنت إذا ما نظرت إلى خصوم النبى وجدت منهم وطنين مخلصين أعمى تعصبهم الوطنى بصائرهم فكانوا مشفقين على استقلال قومهم السياسى والروحى، ووجدت منهم من كانوا يخشون مناهضة القبائل المجاورة عند ترك الآلهة، ووجدت منهم من خافوا أن يكون النبى ساعياً إلى نيل السلطة الزمنية، وقد نالها بعد زمن بفعل مناهضتهم له وما اقتضاه سير الأمور ومنطق الحوادث، ووجدت منهم محافظين أوفياء وأشرافاً كأبى طالب الذى كان، مع حمايته ابن أخيه للعصبية والكرامة، يقاوم ما دعا إليه من تحطيم الأصنام وعيب دين الآباء.

وكان أبو طالب يعمل، لاعن خبث ومكر، على إزالة ما لدعوة النبى من الأثر وفى الأعراب الذين يقصدون الأسواق ومكة فى مواسم الحج، وكان أبو سفيان المهذب الحمى الأنف والوليد بن المغيرة الشيخ المخزومى الشريف، الذى دخل فى جواره المسلم الحمس المهجور عثمان بن مظعون، من ذوى الوجاهة الكبيرة ومن أعداء النبى الحازمين المعتدلين القائلين إنه ممسوس متعصب.

ولا تجد فى كل وقت ميزاناً دقيقاً فى الصراع بين التقاليد والثوره ، فقد يكون الجديد أمراً سلبياً، وقد يكون الجديد جهاداً فى سبيل التقاليد، وقد اختلط الخير والشر فى كل زمن، فى زمن بدهة (بوذا)، وفى عهد الديماس، وفى أيام محمد، وفى دور الثورة الفرنسية، فإذا كانت روح الهدم تنطوى على معنى الشر فإن الروح الرجعية قد تكون شريرة، والظلم صنو الفوضى، والظالم قد يكون ثائراً على النظام الصحيح.

وقد يكون قبس الحياة فى التقاليد، وقد يكون فى الثورة إيقاد لتلك الشعلة التى أطفأها حفاظها، والنبى ضرورى، بين حين وحين، لتذكير الحبر بأسباب وجوده، والتقاليد هى الحياة التى تشابه فى تطورها النظم فلا تلائمها اليعقوبية القائلة بالعقل المجرد وجعل الصفحة ملساء، والتقاليد هى الحياة التى تنطفئ جذوتها إذا ما تحجرت، ولابد من الملحدين، إذن، لكيلا تتبلور تلك التقاليد، والموت، أيضاً فى انتصار الملاحدة التام ما دامت الحياة الشخصية أو الحياة الاجتماعية موازنة متحولة دقيقة قصفة على الدوام، وفى الهدم واليعقوبية، لذلك، موت كما فى التطبع والإسراف، ولابد فى الدين من الصوفية والأولياء لما تتجلى بهم روح الإلهام والوحى، ولا معدل لولى الأمر عن نظمهم إليه، وإلا أسفر عن الآداب المدنية تحجر فى الآداب الحية، وقد يقع خطأ فى ذلك، والخطأ مما يقع فى الغالب، ويتمسك المتحللون بالمفهوم المخالف فى هذه الأيام مع أن ما يلام عليه المجتمع الذى يود التغلب على الرجل العظيم (كالفرسيين الذين ناهضوا المسيح وقريش الذين اضطهدوا محمداً) هو عطلة من الآداب بدرجة الكفاية، لا زيادة الآداب فيه.

ولم يعاد محمداً أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبى معيط وغيرهم من الحمقى وحدهم، بل عارضه أيضاً رجال نبلاء كأبى طالب، ورجال معتدلون متزنون كأبى سفيان، وإذا كان

مارك أوريل ونيرون قد عذبا النصارى، لم يخل من نبلٍ من اضطهد من الرومان، الوارثين لتقاليد كاتون وفلسفة سيسرون الجميلة، شهداء الديماس الذين كانوا يموتون فى سبيل الحق، فكان يظن أن من القربى إلى الله قتل أهل الله كما تنبأ به المسيح، وكان لدى رجال العهد والمهاجرين أيام الثورة الفرنسية ما يحملهم على الاقتتال، فكان كلا الفريقين على صواب وعلى خطأ معاً غافلين عن الجوهر، والعقلاء الذين يرون ما للأمر الواحد من مختلف الوجوه قليلون، فمما يحدث فى الغالب أن يناهض الإنسان ما يعتقد ضرورة عبادته وأن يعبد ما يميل إلى مناهضته، وهنا يسأل المرء، وإن كان فى هذا السؤال ما يثير التهكم أو يؤدى إلى الفتور، ألا يكون بعض حماة النصرانية من مضطهديها لو عاشوا زمن نيرون ؟ الا يكون كثير من علماء الجامع الأزهر وجامع القرويين معارضين لمحمد وأبى بكر وعلى لو عاشوا فى ٦١٥م؟ ألا يصلب بعض نصارى الوقت الحاضر عيسى لو ظهروا فى زمانه؟

حارت قريش فى أمر محمد فبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى يثرب ليسألوا من عندهم علم الكتاب من أحبار اليهود، فوضع هؤلاء الأحبار لهما بضعة أسئلة، فاستمهل محمد قريشاً يوماً ليخبرهم بما سألوا عنه، فمكث محمد خمسة عشر يوماً لا يحدث الله إليه فى ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أحزنه مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به الناس وما أبصره من انتصار أعدائه وما رآه من ظنون أصحابه.

ثم جاءه صاحبه السماوى ودوت أذناه، وطبع فى قلبه بعض منسجم الآى مما فيه سكنية له وجواب عن الأسئلة الحادثة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ .

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثامن

إسلام حمزة وعمر

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ..﴾

(من سورة الأنعام)

أسلم بعض الناس، وعزمت طبقة الأشراف بمكة على نفى من دخل فى الإسلام حديثاً، واستخفى النبى فى دار الأرقم بالصفا، وبلغ أعداؤه من الحقد ما تتبعوه معه فى عزلته هذه أيضاً، ومما حدث أن أبا جهل مر بالنبى على الصفا فلطمه وشتمه، فاحتمل النبى هذا الأذى ثابت الجنان، فلم يلبث حمزة أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنصٍ له، فعلم ما حدث ففار دمه، وحمزة هذا لم يكن راضياً عن أفكار ابن أخيه، ولكن دمه فار من هذا الاعتداء على رجل من أسرته، فذهب ليوقع بأبى جهل فى ساحة الكعبة حيث كان هنالك يفتخر بما صنع، فلما دخل رفع القوس فضربه بها فشجه شجه منكرة، وكان حمزة جباراً قوى الشكيمة شجاعاً ساذجاً ذا صرامة تستوقف النظر، وكان أبو جهل يعرف ذلك فمنع أصدقاءه من نصرته معترفاً بما آذى به محمداً، وإن اعتذر عن ذلك بما يعيب به النبى دين القوم.

قال القوم: "ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت" .

قال حمزة: "وما يمنعنى وقد استبان لى منه ذلك؟ أنا أشهد أنه رسول وأن الذى يقول الحق، فوالله لا أنزع فامنعونى إن كنت صادقين".

صنع الغضب فى قلب حمزة ما لم يقدر عليه العقل والإقناع، وذهب حمزة إلى النبى ليخبره بإسلامه، فصار حمزة بعد ذلك أصلب أبطال الإسلام عوداً. وإليك عمر بن الخطاب الشاب الحاد الطبع الطويل القامة القوى الحازم الذى كان فى السنة السادسة والعشرين من عمره والذى كان ابناً لأخت أبى جهل، فعمر هذا كان، كما روى، ذاهباً إلى الصفا، يريد قتل النبى انتقاماً لخاله وعقاباً له على ما فرق به أمر قريش، فوجد فى طريقه من قال له:

"لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟".

عمر راعداً: "وأى أهل بيتى؟"

http://www.al-maktabeh.com

- "ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بن الخطاب،فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما".

فرجع عمر، من فوره، عامداً إلى أخته، فلما دخل بطش بختنه سعيد، وأوشك أن يقتله بسيفه، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها وشجها.

فلما فعل عمر ذلك قالت له أخته، والدم يسيل من وجهها: "نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فأصنع ما بدا لك!".

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته:

"أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد".

دهش سعيد وزوجته حين رأيا عمر الحاد الطبع راغباً فى قراءة سورة طه التى ذكرت فيها قصة موسى وطرد إبليس وخطيئة آدم والتى كانت مكتوبة على رقٍ فأخفياها حالاً، فترددت أخته فى إطلاعه على الصحيفة خوفاً من أن يمزقها، ثم جنحت عندما آنست منه حلماً فأعطته إياها.

أخذت عمر روعة جامعة، فكان كلما قرأ آية مال إلى الإيمان بدين وصف بكلام عذب.

ثم ذهب ابن الخطاب الحديد المزاج إلى أبى جهل ليعلنه بأنه فى غنى عن حمايته، وكان لابن الخطاب جوار عند العاص بن وائل السهمى مع ذلك.

كان لاسلام عمر اثر بعيد في قريش ، فلما أذاعه تجمع فريق منهم حول بيته مهددين متوعدين ، فخاف ابنه عبد الله عاقبه ذلك .

فقال عمر: "افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لتركناها لكم أو لتركتموها لنا"، فبينما القوم على ذلك إذا أقبل العاص بن وائل السهمى لابساً حلة حبرة وقميصاً موشى فهدأ ثائرهم .

خشى أبو طالب على ابن أخيه فعرض عليه أن يلجأ إلى شعب له فى الجبل، فأقام به هو وأصحابه فى جوار بنى هاشم خلا أبا لهب الذى فضل الإقامة بين أعداء النبى الأشداء

على ذلك، وحمل أبو سفيان الأموى وأبو جهل المخزومى قريشاً على مقاطعة بنى هاشم وألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم حتى يسلموا النبى، وكتبوا بذلك صحيفة توكيداً لذلك وعلقوها فى جوف الكعبة فى الشهر الأول من سنة ٦١٧.

ومما زاد قريشاً حنقاً ما علمته من رفض النجاشى تسليم المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وما رآه محمد من وجود ملك أجنبى حليف له.

الفصل التاسع

النصرانية والإسلام

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ
آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ
مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ
بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

(من سورة المائدة)

وجد المسلمون الذين اضطروا إلى الفرار من مكة ومن اضطهاد قريش الملجأ فى الحبشة، فى بلاد النجاشى النصرانية، وكانت الحبشة حينئذ فى ذروة المجد، فكان لها أسطول قوى وتجارة مزدهرة، وقد رأينا أنها استولت، لحين، على القسم الجنوبى من جزيرة العرب وأنها كانت حليفة لدولة الروم القوية.

كان محمد يكن فى نفسه حباً لبلاد الحبشة لما فيها من التوحيد، وصرح بأن فى الأحباش تسعة أعشار الشجاعة، وأوصى اللاجئين من أصحابه بألا يكونوا البادئين بمهاجمة الأحباش، وحزن على وفاة النجاشى.

أحسن النجاشى قبول مهاجرى المسلمين وسألهم عن دينهم، فأجابه ابن عم النبى جعفر بن أبى طالب عن سؤاله:

"أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا".

وبعثت قريش، مع ذلك ، الشاعر عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة إلى النجاشى ليرد مهاجرى المسلمين عليهم، فدعا النجاشى أولئك الأصحاب إلى قصره ودعا إليه أيضاً ذينك السفيرين ورجال بلاطه وأساقفه مملكته.

http://www.al-maktabeh.com

سأل النجاشي مهاجري المسلمين عن عقديتهم، فتلا جعفر عليه سورة مريم، وفي هذه السورة خبر عن ولادة يحيى (يوحنا المعمدان) مع بلوغ أبيه زكريا من الكبر عتياً[1] وعن صمت زكريا ثلاثة أيام، ثم ذكر لحمل مريم وميلاد عيسى.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً[2]، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً، قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً، فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ[3] بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً[4]، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً، فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً[5]، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً، وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً، وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً، وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً، ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

دهش أساقفة الحبشة من تلك القصة المقتبسة من الإنجيل وقالوا:

"إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة[6] واحدة".

---

(1) عتياً: صلابة في المفاصل.

(2) سوي:مستوى الخلق لأداء به ولا عيب.

(3) انتبذت: اعتزلت.

(4) سرياً: جدولاً، وقيل سيداً من السرو، وهو عيسى. ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ (مريم:٢٧)

(5) فرياً: منكراً

(6) المشكاة: كل كوة غير نافذة، وقيل الأنبوبة في وسط القنديل.

لم يرد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة أن يرجعا خائبين فطلبا إلى النجاشى أن يسأل المسلمين فى الغد عن شأن عيسى عندهم بالضبط.

فلما كان الغد، قال جعفر:

"نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول[1]"

فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال:

"والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود"

رفض النجاشى بشدة رد المسلمين إلى قريش، ولم يكف عن إبداء كبير عطفه إليهم.

وقد يعجب الإنسان مما بين الإسلام الناهض والنصرانية من توافق بعد تناجزهما منذ قرون، ومما لا مراء فيه أن محمداً دعا قومه إلى التوحيد وجاءهم بكتاب عربى ملائم لما فى التوراة والزبور والإنجيل مستشهداً فى الغالب بما فى هذه الكتب المنزلة، كما لو كان نصرانياً، ذاكراً أنه واحد من الأنبياء.

ومما لا مراء فيه أيضاً أن كان للنصرانية أثر فى محمد، وأن أيقظ حنفاء العرب كزيد بن عمرو، ورهبان النساطرة كبحيرا (الذى نرى فى قصته بعض الحقائق مع ما صبغتها كتب السيرة بصبغة الأساطير)، ونصارى مكة كورقة ابن نوفل شعوره الديني قبل بعثته، وأن نشد عندهم وجه الحق فلم يجده لما كانوا عليه من العجز فى إقامة الدليل.

ومما لا مراء فيه أيضاً أن النصارى الذين كانت كنائسهم تحيط بجزيرة العرب قد أوغلوا فى قلب هذه الجزيرة وإن لم يكن ذلك بكثرة، وأن كان بعض القبائل يدين بالنصرانية، وأن كان نصرانياً الشاعر الكبير امرؤ القيس الذى جمع ثياب العذارى حين كن يغتسلن وجلس عليها ليخرجن إليه عاريات، وطرفة بن العبد، والنابغة الذبيانى من أصحاب

---

(1) البتول: المنقطعة عن الزواج.

المعلقات، وغيرهما من شعراء ذلك الزمن الذين قالوا مئات أبيات الشعر على وزن واحد بأسلوب نارى خفاق خفقان جو الصحراء لما عليه اللغة العربية من الاتساع.

واستطاع محمد أن يتعرف بعدد غير قليل من النصارى بمكة كالموالى الذين كان أكثرهم من الأحباش وبأناس من الروم والأقباط وعرب القبائل النصرانية، وكان يجلس فى الغالب بالقرب من جبر الرومى الذى كان يصنع هو ورفيقة يسار الرومى السيوف فى المروة لحساب سيدهما عامر بن الحضرمى.

وكانت قريش تقول إن النبى يستلهم جبراً، فجاء فى القرآن: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، وكان النبى يستشهد، مع ذلك، بما عند النصارى من أخبار التوراة.

وكان نصارى مختلف الأصول كثيرين فى مكة فكانت لهم مقبرة فيها، وكان جنود مكة المرتزقون السود من الأحباش، وكانت ماشطة خديجة زوج محمد حبشية نصرانية، وكان زيد مولى محمد من قبيلة بنى كلب النصرانية، وكان أناس من نصارى الحبشة قد جاءوا إلى مكة ليحيوا النبى الجديد الذى أعرب عن عطفه على دينهم فدمغ باطل المشركين بالحجج البالغة التى يقره عليها أهل الكتاب، وكان يصدف فى عكاظ وفى الأسواق الأخرى أناساً من عرب نجران والحيرة، وهو الذى سمع الأسقف الشهير قس بن ساعدة يخطب فيها، وكان ، كما أشار إليه القرآن، يرى فى الأسواق التى يقصدها نصارى آخرين من بلاد أخرى، ولا سيما من الشام لبيع ما معهم من البرّ:

وكان من النصارى أيضاً أكثر الأطباء ومعلمو المدارس وأطباء الأسنان الذين كانوا يجوبون جزيرة العرب فيصلون إلى لخميي الحيرة وكان قد تنصر فى الحبشة زوج أم حبيبة بنت أبى سفيان التى كانت من أظرف نساء العرب فتزوجها محمد فيما بعد، كما كان زوج سودة قد تنصر فيها، وكان عملاء بنى أسد من الغساسنة يقيمون بوسط مكة، أى بالقرب من الكعبة، ولكن أكثر أولئك النصارى كانوا يقيمون بالضواحى.

وكان أغنياء بنى مخزوم يستصنعون فى معاملهم مئات الموالى من النصارى الأجانب فيتردد محمد إلى واحد منهم على الخصوص، وتنزل العباس عن مولاه القبطى أبى رافع لأبن أخيه محمد، وكان للعباس عبد رومى، ولم تخل أسرة فى مكة، تقريباً، من بعض النصارى بين ابنائها ومواليها وعتقائها وعملائها، فانتهى إلينا أسماء الكثير من هؤلاء وكان بعض النصارى يمرون من مكة عابرى سبيل كذلك الراهب الكحال الذى شفى محمداً وهو صبى بتراب سيناء، وكذلك الشماس الذى أثر فى مكة، وكان أكثر هؤلاء لنصارى من الأجانب، فكان، بذلك، لأشراف مكة وأولى الحل والعقد فيها ما ارتابوا به من المسلمين.

وكانت الحروب تقع بين دولة الروم ودولة الفرس العظيمتين فتأتى على ما لهاتين الدولتين الحتضّرتين من القوى مع ما لهما من النفوذ والسلطان.

وكان كسرى أبرويز (الذى خلعه ابنه شيرويه وقتله مسموماً مخنوقاً فى بيت الظلمات (٦٢٨) كما خلع أبرويز أباه هرمز من قبل وقتله) فى ذروة المجد؛ فقال متكبراً: "لا يدور الفلك إلا كما شاء، وقد ملأت خزائنى، وكل البلاد تعمل من أجلى"، وأبرويز هذا قد جمع أجزاء عرش داراً المزين بصور نجوم المجرة[1]، فكان يجلس عليه فى الشتاء محاطاً بستار من جلد السمور وكلب البحر وكرات من ذهب وفضة مملوءة بالماء الحار، وكان يعلو هذا العرش تاج عظيم معلق بمظلة، وأبرويز هذا كان يخرج إلى الصيد بترف لم تسمع أذن مثله، فكان يبدو فيه لابساً ديباجاً موشى بحلى من ذهب، ويطارد الفرائس ومن حوله أمراء شبان لابسون ثياباً حمراً وصفراً وبنفسجية وحمله البزاة[2] وخدم ماسكون أفهداً للصيد وعبيد حاملون العطور والمراوح ومطربون، وأبرويز هذا كان، لكي يشعر فى الشتاء ببهجة الربيع، يجلس هو وحاشيته على بساط متسع اتساع الفدان صورت عليه طرق المملكة وحقولها والأزهار المختلفة الألوان والمروج والغابات الخضر والأنهار الفضية، وأبرويز هذا كان فى جيشه تسعمائة فيل، وفى قصره ١٢٠٠٠ امرأة.

---

(1) المجرة: نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر، وإنما ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء.

(2) البزاة: جمع البازى وهو ضرب من الصقور.

http://www.al-maktabeh.com

وعظم نفوذ الفرس فى جزيرة العرب، فطرد كسرى الأحباش من بلاد اليمن، واستولى على القدس فى سنة ٦١٤، وفتح سورية وغزا مصر وهزم النصارى شر هزيمة،وكان الصليب الأعظم مما غنمه الفرس وأخذوه معهم إلى بلادهم.

وكان الناس فى مكة يتبعون تطورات هذه الحرب بشوق كبير، ويبحثون فى أمرها أمام الكعبة، وكان مشركو قريش يعطفون على الفرس والمسلمون يعطفون على الروم، وبهر انتصار الفرس على الروم كفار قريش فصاروا يتهكمون بالمسلمين، فأبدى أحدهم من السرور أمام أبى بكر ما غضب معه أبى بكر وقال: "لا تعجل بالمسرة، فسيأخذ الروم بثأرهم".

الكافر: "كذبت".

أبو بكر: "كذبت أنت يا عدو الله، وهذا رهان عشرة جمال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام".

فلما علم محمد أمر ذلك الرهان أشار على صاحبه أبى بكر بأن يزيد فى الرهان ويطيل المدة، فزاد أبو بكر فى الرهان إلى مئة بعير إن هزمت الفرس قبل تسع سنين.

كسب أبو بكر الرهان فى سنة ٦٢٥، فقد انتصر قيصر الروم هرقل على الفرس فيها واسترد الشام التى خربتها الحرب.

وكان القرآن قد أخبر بذلك الانتصار، وتشهد سورة الروم بما كان يحمله محمد من العطف على النصارى.

﴿آلم، غُلِبَتِ الرُّومُ،فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

سر النبى لما تم لهرقل من النصر، وسر أيضاً لموت كسرى شاعراً، لا ريب، بأن موته سيعجل انقراض الدولة الساسانية التى لم تلبث أن انهارت بما أنزله العرب عليها من الضربات بعد أن زلزلت بضربات الروم، وما حدث أن مات شرويه الضعيف بالسوداء التى

اعترته من وخز الضمير بسبب قتله لأبيه وإخوته وما إلى ذلك من المظالم، وأن أعاد هرقلُ الصليب الأعظم إلى القدس، وأن تداول عرش الأكاسرة القصف نحو عشرة ملوك فى بضع سنين.

ولم يخف محمد عطفه على النصارى، والقرآن مملوء بالشواهد على ذلك فضلاً عما جاء فى سورة الروم حول الحرب الورمية الفارسية، فكان محمد يرى المثال فى شهداء نصارى القرون القديمة وفى شهداء نصارى القرون الأخيرة فى اليمن (شهداء الأخدود)، وكان يثنى على القسيسين والرهبان الذين قدر فضائلهم فى تخوم الشام، وسر محمداً ما أسفر عنه انتصار الروم من عدم هدم كنائس النصارى وبيعهم[1] التى "يذكر فيها اسم الله كثيراً"، وكان محمد يرى فى أهل الكتاب الحلفاء الذين يؤيدون ما يقول ويؤمنون بالحق الذى يدعو إليه، والذين ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ وكان محمد يتخذ انضمام حملة العلم من أهل الكتاب إليه دليلاً على صدق الإسلام وبطلان دعوى المشركين الذين هم ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وكان محمد يصرح بأن رسالته مما بشر به الكتاب المقدس ويطبق على المسلمين مثل المنبت الصالح.

ولم ينفك محمد علن مجاملة النصارى، حتى بعد أن قاطع اليهود، فكان لا يألو جهداً فى أن يكون له أطيب الصلات بالروم والأحباش والمصريين مقتصراً فى الحمل على المشركين وعلى اليهود الذين أنكر عروبتهم، لا عروبة النصارى، جاء فى القرآن: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ذلك نص صريح، وفى القرآن ما فيه نجاة لليهود والنصارى والصابئين كالمسلمين إذا ما عملوا الصالحات وآمنوا بالله واليوم الآخر، والصابئون هؤلاء هم فرقة من النصارى تقول

---

[1] البيع: جمع بيعة، وهى متعبد النصارى.

بالغسل والوضوء، لا الصابئون الذى يعبدون النجوم، وحاول علماء الكلام المتشددون من المسلمين تأويل ما جاء فى القرآن فى ذلك، مع تمييز القرآن بصراحة للنصارى من المشركين ووصفه الحواريين بالمسلمين.

وأباح القرآن للمسلمين نكاح النصرانيات وأحل للمسلمين طعام النصارى، فكان ذلك دليلاً على معنى الإخاء الخالص كما ذكر المصلح العصرى محمد عبده، وليس بعسير أن يجد الباحث فى القرآن جميع أصول النصرانية على الرغم من بعض الظواهر، كخطيئة آدم الأصلية وإخراج آدم من جنة عدن لأنه أكل من الشجرة المنهى عنها، وتضامن البشر، وطرد إبليس من الجنة لأنه أبى السجود لآدم، (وهذا مثل طرد الشيطان فى النصرانية لأنه رفض الإيمان بالكلمة المتجسدة كما افترضه علماء اللاهوت)، ورسالة نوح وإبراهيم وموسى والأنبياء والكتب المنزلة والملائكة الحافظين والمسيح والاجال وآخر الزمن والبعث والحساب والإسلام فى هذا كله يبدو أقرب إلى النصرانية منه على اليهودية.

وهنالك شبه عظيم بين المسلمين الأولين والنصارى الأولين، فقد احتمل كل منهم الاضطهاد والتعذيب، وأحب كل منهم نيل الشهادة (والشهادة ما عد المجاهدون فى الحروب المقدسة أنهم نالوها)، وتهجد كل منهم بشغف وتقشف كل منهم، وأعطى كل منهم الزكاة (وتجد فى هذا تأثير الرهبان)، وغنى كل منهم فى مسألة مصير الإنسان.

ومما يبدو غريباً أن يُزعم أن الإسلام قال بالتجسد والفداء وحبل مريم بلا دنس الخ، مع أن الباحث يمكنه أن يجد فى القرآن، مع تفسيره المألوف، النصوص على روحانية المسيح، وعلى نه ولد بمعجزة من أم عذراء، وعلى رسالته وخوارقه ورفعه إلى السماء وعلى سر القربان المقدس (سورة المائدة) وفى القرآن أخذ لليهود ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾، وفى الحديث: "ما من مولود إلا يمسه الشيطان غير مريم وابنها".

وللمسيح فى القرآن مقام عالٍ فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس وهو رسول اللهِ الذى خاطب الله جهراً عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمة، وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحى وحده، وهو الذى كان تأييد روح القدس له ذاتياً غير خارجى (ويجهد المفسرون أنفسهم كثيراً لكيلا يروا فيه روح القدس)، أى غير مقصور على

نقل الشريعة إليه وتوكيد أمرها بأعظم المعجزات كما اتفق لموسى،وبالوحى وانشراح القلب كما اتفق لمحمد، فكان لعيسى بذلك من العصمة ما لم يكن لمحمد الذى ذهب القرآن إلى خطأه.

والقرآن، يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول إن عيسى كلمة الله أو روح الله ألقاها إلى مريم وإنه من البشر، والقرآن حينما يحمل على التجسد والثالوث لا يقصدهما، بل يقصد ما فسرا به تفسيراً إلحادياً، فهو يذم مذهب القائلين بطبيعة واحدة فى المسيح ومذهب القائلين بالوهية المسيح ومذهب تقديم الخبز إلىمريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصرانى إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثلوث المؤلف من الله وعيسى ومريم.

(وإذ قال الله: يا عيسى بن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله)ص١٣٢

والحقّ أنه كان فى الشرق مذاهب قالت بعبادة مريم، فقد قال القديس إيبيفان إن الكولريين كانوا يقدمون الخبز إلى مريم عبادة ثم يأكلونه، كما كان يصنع المشركون مع الإلاهة سيريس.

والقرآن ما لم يخطئ فى تقدير أمر واقعى (وكثير من المسلمين! لا سيما ابن هشان صاحب السيرة المعتبرة المعروفة باسمه، يذهبون إلى أن مريم واحدة من الثالوث النصرانى) يكون قد هاجم مذهباً خاطئاً من فرق النصرانية، والقرآن لا يقول إن الثالوث مذهب خاطئ، بل يشير على أنه لا ينبغى أن يفهم هذا المذهب فهماً خاطئاً.

والقرآن حينما ذكر أن الله لا ولد له قصد المعنى الحرفى لهذه الكلمة فكان اختلاف ولا يرى لكلمة ابن فى اللغة العربية غير معنى النسل المادى.

﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا[1] له بنين وبنات بغير علمٍ سبحانه وتعالى عما يصفون، بديع السماوات والأرض، أنى يكونُ لهُ ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾.

والأمر واضح، فالعرب المشركون كانوا يؤمنون بالملائكة وكانوا يعتقدون أن الإلاهات الثلاث اللات والعزى ومناة بنات الله، فكان طعن القرآن فى هذ الحنث[2] العظيم.

وقل مثل ذلك عن قول القرآن:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ[3] لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾

وليس الأقنوم الثانى، بل الكنه الإلهى، هو ما يهم فى الموضوع، فقد قال مؤتمر لاتران الروحانى بما لا يخرج عما تقدم، بسبب يواكيم دوفلور.

وعلماء التوحيد حينما قالوا بعدم خلق القرآن، كلام الله، لم يقولوا غير ما ذهب إليه النصارى بشأن ألوهية المسيح الذى نعته القرآن بكلمة الله، وهذا مالا حظه يوحنا الدمشقى فى القرن الثامن حين قال:" إذا كنتم تقولون إن كلمة الله وروحه قديمتان فإننا نكون متفقين، وإذا كنتم تقولون إنهما مخلوقتان فهل يقال إذ ذاك إنه لم يكن لله قبل ذلك كلمة ولا روح؟"، وهذا إلى أن مبدأ التجسد مما يحقق مثل المسلمين الأعلى الذى يكون لله به العابد الكامل الخليق به، وهذا إلى ماله من المعنى الربانى الأخلاقى، وإلى ما فيه من معنى إملاء الهوة بين الله والإنسان.

وغاية القول أن جميع ما نص عليه القرآن حول مبادئ النصارى حق، والقرآن إذا لم يحط بكل ما هو حق فى الأمر أصبح لزاماً إتمامه بما جاء فى الكتب المنزلة قبله.

ومسألة الصلب هى أصعب المسائل، ويبدو لنا أن فكرة خلاص البشر على يد المخلص لم تنفذ فى الإسلام التاريخى، والإسلام لم ينظر إلى عيسى منقذاً أو وسيطاً، والذى نراه أن

(1) خرقوا له: افتعلوا وافتروا له.

(2) الحنث: الذنب.

(3) الصمد: السيد الذى لا يقضى دونه أمر.

الإسلام يرى ألا يملأ ما يفصله عن الله بكفرة إنقاذ العالم بدم المسيح أو بفكرة حب الله للعالم ما وهب به ابنه الوحيد له، تلك الفكرة التى قلبت العالم الوثنى رأساً على عقب.

ولا يخلو تنزيه الإسلام لله من عظمة لو لم يود إلى تجريد النصرانية من وحيها المثالى القائل "إن الرب هو المحبة"، وما إلى هذا الوحى من النور الذى يلقى أشعته على معنى الخلق وغاية الحياة.

وليس مما يسلم به المسلمون أن يدع الله المسيح الذى يحبه يعذب ويذل ويصلبه أعداؤه، كما أن اليهود لم يكونوا ليسلموا بوجود مسيح ظافر فى هذا العالم قاهر لعبدة الأصنام، والقرآن يقول مع ذلك: ﴿ ... مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾، والقرآن يذكر بذلك بقول القديس بولس: "كما بخطية واحدة (آدم) صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة هكذا ببرٍ واحد (عيسى) صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة".

ومن عقائد الإسلام أن اليهود لم يصلبوا المسيح لما فى الصلب من معنى الخزى والإهانة، ولكن شبه لهم، وأن شبحاً أو رجلاً آخر صلب خطأ بدلاً من المسيح الذى رفعه الله إليه، فبهذا الاعتقاد (الذى يستغربه العقل والتاريخ والذى ينقض أجمل قصة فى العالم) تكون النصرانية قد قامت على أساس خاطئ، ويكون الله قد سمح بقيام دين على خطأ أراده، والمسلمون فى هذا الاعتقاد استندوا على آى القرآن الغامضة:

"وقولهم (اليهود) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾

والمعنى الذى يفهم من هذا النص (الذى يؤكد أمر البعث أكثر مما يدل على الموت لإكثار القرآن من استعمال الرفع بمعنى الموت) هو ما جاء فى سورة آل عمران (الآية ٤٨ وما يليها) من أن الله أبطل مكايد اليهود ومكرهم وأن المسيح خرج ظافراً من أيديهم غير هالك، ﴿.. إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ

http://www.al-maktabeh.com

الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ ، ومثل هذا ما قالته النصرانية التى ذهبت إلى أن اليهود اعتقدوا أنهم أهلكوا المسيح، وأن المسيح لم يلبث أن بعث بعد موته، وأن أعداءه أتموا، عن غير قصد، ما أراد الله تعالى تمامه من المقاصد الرفيعة مع ظنهم أنهم قضوا على عمله، وأنهم حققوا ما فيه خلاص العالم من حيث أرادوا السوء.

إن قول القرآن: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ قد فسر بصلب رجل مشابه للمسيح بدلاً من المسيح، وهذا ما يجعلنا نفكر فى نصوص العهد الجديد والقديس بولس، في حمل الله (المسيح) الذى كفر عن خطايا العالم، فى آدم الجديد الذى حل محلَّ آدم القديم فأنقذ البشر بأن ضحى به، وفى أن نصوص القرآن الحالية هى ما جاء فى مصاحف عثمان والحجاج اللذين أتلفا غيرها من المصاحف وفى خلو المصاحف القديمة من الشكل والحركات وإمكان تلاوتها على أوجه مختلفة، فنسأل : أفتكفى تلك الآية المستغربة التى يعارضها ما جاء فى سورة آل عمران (الآية ٥٥) وفى سورة المائدة (الآية ١١٧) وسورة مريم (الآية ٣٣) من أن المسيح مات وبعث ورفع، (من غير أن تقول هذه الآيات أن ذلك الموت والرفع لم يقعا بعد وأن ذلك يكون آ آخر الزمن) لتقيم بين الإسلام والنصرانية حاجزاً يتعذر اقتحامه مع اتفاقهما فيما عدا ذلك اتفاقاً وثيقاً.

ويمكننا، عند قبول تلك الآية كما هى، أن نجدها ملائمة لتعاليم النصرانية مع ذلك، فقد قال آباء الكنيسة إن اليهود قتلوا طبيعة المسيح البشرية، لا المسيح ابن الله، فيكون اليهود بذلك قد قتلوا الرجل الذى شابهها وربى فى حجر مريم، لا كلمة الله القديمة التى عجزوا عن قتلها.

والقرآن يكون بذلك قد عارض فرق النصرانية الضالة، لا النصرانية الصحيحة التى ترى طبيعتين فى شخص عيسى.

والقرآن يقول إن عيسى الذى رفع إلى السماء سيعود فى آخر الزمن وإنه "لعلم للساعة" (الزخرف٦١)، وإنه سيكون شهيداً على اليهود الذين سيؤمنون به ")وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً((النساء:١٥٩)

والذى أدى إلى تنافر الإسلام والنصرانية وتغلب الإسلام على النصرانية هو ما كانت عليه النصرانية من الفساد فى القرن السابع من البلاد، وفرق النصرانية الضالة هى التى كان محمد شاهداً عليها،/ وهو الذى لم يعرف غيرها والمسائل المشكوك فيها الكثير التى مصدرها ما أدخله اليهود إلى التلمود وغيره مما عرفه حضر يو جزيرة العرب وأعرابها وشعراء صحرائها، وفى القرآن مطابقة لرؤيا آدم وكهف الكنوز وكتاب أخنوخ (إدريس) وإنجيل يعقوب الأول وقصص القديسين وإنجيل برنابا وقصة خلق عيسى الصبى للطير من الطين،ولابد من أن يكون ورقة بن نوفل وأمثاله على علم من هذا الأدب المشكوك فيه، وكان كعب اليهودى، الذى روى عن محمد كثيراً من الإسرائيليات، من الصحابة، واقتبس ابن عباس، الذى هو ابن عم النبى قصة كهف الكنوز اللقديس المتلبس إفريم، فالمسلمون الأولون كانوا يعرفون تلك المسائل المشكوك فيها (إما رأساً أو شفاهاً أو أخذاً عن شعراء العرب)، وكانوا كما يظهر، يجهلون أسفار الكنيسة.

ورأي أحد آباء الكنيسة فى القرن الخامس أن جزيرة العرب كانت ملتقي البدع فكان يصعب أن يفرق فيها بين السابليين والدوسيين الذين ينكرون طبيعة المسيح البشرية (قائلين إن جسمه لم يكن غير شبح)، والآريوسيين الذين ينكرون ألوهيته، والأطاخيين واليعاقبة الذين يقولون بطبيعة واحدة فيه لا بطبيعتين، والنساطرة الذين يقولون بأقنومين فى المسيح، والمريميين والكولريين الذين يعبدون مريم، واللامر يمين الذين ينكرون بقائها عذراء، ونصارى الناصرة الإسرائيليين والإبيونيين والمرسيونيين اللاإسرائيلين والإغنوسيين والبلنسيين والكربو قراسيين والرا كوزيين الخ، وللأحباش مثل قائل إن النصارى لا يتفقون على غير أمر واحد: ولادة المسيح.

والنصرانية. بدلاً من أن تكون موحدة فى فرقة واحدة فى جزيرة العرب قائلة بالنظام والمحبة، كانت مجزأة إلى شيع متعادية منهمكة فى المجادلات العقيمة، فلا عجب إذا بقى الإسلام بعيداً من هذه المناقشات البيزنطية حول العقائد التى لو انتحل محمد واحدة منها ما ظفر بطائل، ومن الطبيعى أن وضع محمد نفسه فوق جميعها مادام على غير علم

بالنصرانية الصحيحة، ومن الطبيعى أن كانت محلاً لذمة إياها وإن كان محقاً فى ذلك ولاسيما فى أمر انقسامها (انظر الآية ١٧ من سورة المائدة).

وما كان يقع فى سبيل النصرانية الشرقية من المنازعات المذهبية موجب للخزى، فقد صار النصارى يضطهد بعضهم بعضاً فى سبيل غريب الآراء ومعقدها بعد أن كان عبده الأوثان يضطهدونهم، وأخذوا يقتتلون ويسجن بعضهم بعضاً وينفى بعضهم بعضاً فى سبيل معنى إحدى الكلمات، ككلمة الطبيعة التى لم تفهمها مدرسة النساطرة بأنطاكية كما فهمتها مدرسة الإسكندرية القائلة بطبيعة واحدة فى المسيح مثلاً، وإن كانت المدرستان متحدتين فى الرأى الأساسي على ما يحتمل، وكان الجميع ينتقلون بذلك من دائرة العقل إلى دائرة الجدل، والعلماء يصرون على مجادلاتهم الكلامية، والخرافات تفسد الجمهور بفعل العدوى.

قال أحد آباء الكنيسة: "لا تجد فى البلد محلاً خالياً من الجدل، لا فرق فى ذلك بين الأسواق وحوانيت السلع ودكاكين الصرافة والمطاعم، فإن أردت أن تبدل نقداً بنقد حدثك الصراف عمن ولد ومن لم يولد، وإذا سالت عن ثمن الخبز أجبت بأن الأب أعظم من الابن وبأن الابن تابع، وإذا سألت عن حرارة خبزك أجابك الخادم بأن الابن خلق من العدم.."

وإن نفس محمد النقية الصادقة التى اتصلت بما وجدته فى قرارتها من الحقائق بفعل العزلة فى الجبل والصحراء شعرت بأن الدين أمر غير المجادلات المجردة والمناظرة الجميلة، فذهب على أن كل إنسان يمكنه أن يعرف الله كما يستطيع، ولكن المهم أن يعرفه على الوجه الصحيح وأن يسلم أمره إليه، أجل، لابد من التعاريف النظرية خوفاً من الضلال والزلل وإرضاء للذكاء، ولكن النظريات فى الثالوث والتجسد والخلاص أمور باطلة إذا لم تعد حد النظريات فتخالط نفس الإنسان فتظهر ناظمة لضرورات حياته الروحية، وإن أنكر الإسلام التاريخى هذه الأمور كلها مع الأسف.

ولا تجد بين الإسلام والنصرانية تلك الهوة التى حفرت بين المسلمين والنصارى، ولبست تلك الهوة غير نتيجة سوء تفاهم بين الأمتين، ومن دواعى الأسف أن سوء التفاهم

هذا لم يلبث أن ظهر واشتد ولم ينفك يعظم، فلم يشأ أهل الكتاب الذين كانوا من أحلاف محمد فى البداءة أن يعتقدوا صدق نبوته، وصاروا يسخرون مع هذا البدوى الحمس، فرأى المسلمون أن يبتعدوا عن النصرانية إلى أقصى حد.

وكان من أمر مفسرى القرآن أنهم لم يألوا جهداً فى إنكار ما بين الديانتين من أوجه الشبه أو فى تصغير هذه الأوجه بدلاً من إظهارها كما هى، كما أنهم أصروا على بيان الاختلافات الظاهرة مؤكدين لها، ومما يستوقف النظر أن القرآن أقرب إلى النصرانية من الأحاديث، وقد يخطر على البال أن هذه القربى كانت أشد عند النظر إلى الكيفية التى جمع بها القرآن، ومهما يكن الأمر فإن المحدثين هم اللذين أحدثوا تلك الهوة بين الديانتين، وليست بمجهولة درجة ما فى تلك الأحاديث من عوالم الميل ومواطن الشك.

ولما نشبت الحرب بين الإسلام والنصرانية فى قرون كثيرة اشتد سوء التفاهم بين الديانتين بطبيعة الحال، وعلينا أن نعترف بأن الغربيين كانوا أسبق من المسلمين إلى إحداث هذا الخلاف، فبعد أن استخف رجال الجدل من البيزنطيين بالإسلام وازدروه من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة دراسته (خلا يوحنا الدمشقى على ما يحتمل) جاء دور الكتاب والشعراء الطوافين فصاروا يحاربون المسلمين بأسخف المثالب، فصور محمد كلص نياق وكخليع وكساحر وكرئيس عصابة من قطاع الطرق وكأسقف رومانى غضب من عدم انتخابه بابا، وعد إلها زائفاً يقرب له عباده القرابين البشرية!

وحدث رجل الجد غيبر دونوجان أن محمداً مات فى نوبة سكر وأن الخنازير أكلت جثته فوق مزبلة، وذلك ليفسر سبب تحريم الخمر وتحريم لحم الخنزير!

ولي اختلاف الديانتين إلا واهياً وهى الأغانى التى جعلت محطم الأصنام محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الإسلامية أماكن ملأى بالصور، ومن ذلك أن وصفت أغنية أنطاكية صنم محمد المصنوع من الذهب والفضة والموضوع فوق فيل جالس على كرسى من الفسيفساء كأن واضع هذه الأغنية قد شاهد ذلك! وأن وصف فرسان شارلمان، فى أغنية رولان، وهم يكبون أوثان المسلمين! وأن جاء فى هذه الأغنية أن المسلمين

http://www.al-maktabeh.com

يعبدون ثالوثاً مؤلفاً من ترفاجان ومحمدٍ وأبولون! وأن ورد فى رواية محمد أن الإسلام يبيح تعدد الأزواج من الذكور!

وظلت الأحقاد والخرافات تحاك فوصف محمد منذ زمن رودولف دولودهيم (٦٢٠) إلى يومنا هذا من قبل نيقولا دوكوز وفيفز ومراتشى وهو تنجر وبليباندرو بريدو وغيرهم بأنه خادع، ووصف الإسلام بأنه مجموعة إلحاد وبأنه من عمل الشيطان وبأن المسلمين من الوحوش وبأن القرآن نسيج من الأباطيل، فكان هؤلاء يعتذرون عن البحث الجدى فى موضوع هذا مبلغ سخافته، وأوعز بطرس المحترم، الذى ألف أول رسالةٍ فى الغرب ضد الإسلام، بترجمة القرآن إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر مع ذلك، وتوسع بطرس بسكال فى دراسة الإسلام فى القرن الرابع عشر، وعد البابا إينوسان الثالث محمداً عدواً للمسيح، ولم تجد القرون الوسطى فى محمد غير ملحد على العموم، وكان لريمون لول فى القرن الرابع عشر وغليوم بوستل فى القرن السادس عشر وورلان وغانية فى القرن الثامن عشر والقسيس دوبرغلى ورينان فى القرن التاسع عشر أحكام متنوعة فى محمد والإسلام، وصحح فولتير، فى غير موضع، هدف روايته الفاجعة الشهيرة الوجيز، وجاء مونتسكيو، بعد بسكال ومالبرانش، فاقترف أغاليط فاحشة فى الإسلام مع ماله من آراء دقيقة صائبة فى طبائع المسلمين، ثم جاء كونت بولنفيلية وشول وكوسان دوبرسفال ودوزى وسبرنجر وبارتلمى سان هيلر ودوكاسترى وكارليل وغيرهم فبدوا، على العموم، منصفين للإسلام ونبيه، مع الثناء عليهما فى بعض الأحيان، وهذا مع العلم بأن دورتى نعت محمداً فى سنة ١٨٧٦ "بالعربى الماكر والوسخ"، وبأن فوستر أعلن فى سنة ١٨٢٢ أن محمداً قرن تيس دانيال الصغير وأن البابا قرنه الكبير، ولا تزال ترى للإسلام حتى اليوم ثالبين متعصبين.

وإذا كان علماء المسلمين، من ناحيتهم، قد درسوا فى الدور الزاهر النصرانية بجد مع إقامة الأدلة المرنة التى سبقوا بها فولتير فإنهم عملوا إجمالاً على تفريق ما بين الديانتين، لا على تقريب ما بينهما، فوضعوا أنفسهم منذ زمن طويل فى دائرة من الجهل مزرية على العموم، فأخذوا يعدون أنصار عيسى من الكافرين، مع أن القرآن نص على أن النصارى

أقرب الناس مودة للمسلمين وأوصى بهم خيراً، واليوم لا تزال ترى أكثر المسلمين يفضلون أن يموت أولادهم أو يصبحوا من الجناة على أن يعمدوا.

فعلينا أن نحطم تلك الحواجز المصنوعة، والنور يكفى لتبديد الأشباح، ولنعلم أن القوة للعقل وأن النسبى لا ينقض المطلق، وأن الوحى الإلهى يجزى على ألسنة الخلق ويتطور مع الزمان والمكان، وإن الحقيقة لا تأتينا كاملة دفعة واحدة، وأن الحقيقة تبدو ناصعة بما تلاقيه من قبول صادق لها، فما يلوح لنا أنه متناقض لم يكن غير انحراف الضياء الأزلى فى موشور[1] الزمن.

وكل وحى خاص يشدد فى أمر، فالإسلام شاهد على وحدانية الله وعظمته وعزته ورحمته، والنصرانية شاهدة على محبة الله، حتى إن الشرك لم يجحد بالله، وإن نسيه، وهو يمجده على شكل خاص، وذلك بشهادته على تعدد صنعه ويعرض الحقائق مفرقة معرجة مشوهة، إلى أن يجئ الوحى الصادق فيقومها وينقيها ويكملها.

والحق أن النصرانية تشمل الإسلام وتضيف إليه بعض الشيء، وأنه لا تناقض بين هاتين الديانتين، فعلى الأديان أن تتنافس فى العبادة والفضائل بدلاً من أن تتناجز، والغرور والأثرة الضيقة يجعلان معظم الناس عاملين على ما فيه اختلافهم على الآخرين أكثر مما يعملون على تمجيد الله، والتعصب هو الذى يحول حماسه المرء لدين إلى الحقد على الأديان الأخرى.

ومن يدرى أن الله لم يرد نوعاً من التمايز الذى هو خلاف التعصب كما فى عالم السياسة، جاء فى القرآن: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون".

وليس مما لا يبالى به إظهار الوحدة الباطنية بأعمال خارجية (كما تراه من افتراق الكنائس النصرانية افتراقاً يرثى له)، ولكن من الخطر أن تنكر الوحدة الباطنية، وأن يضحى

---

[1] الموشور: فى علم الطبيعيات، مجسم من بلور تكون قاعدته مثلثة الأضلاع.

فى سبيل الظواهر بالتنافس الحقيقى فى العبادة، وأن يعنى بالشكل أكثر مما يعنى بالأساس، وأن يعنى بالحرف أكثر مما يعنى بالروح.

ومما يفيد تقدم البشر اختلاف التعاليم والمبادئ باختلاف الزمان والمكان، فقد أباح الرب تعدد الزوجات لآباء اليهود، وحارب قدماء النصارى الوثنية بلا هوادة، فلما زال الخطر سمحت الكنيسة بنوع من عبادة القديسين التى يمكن أن تكون نافعة للحياة الروحية عند عدم الإفراط، ثم جاء الإسلام فكسر الأصنام فأدى ذلك إلى إنتاج الفن الإسلامي، للنقوش العربية المجردة الرائعة على حين سلك الغرب طريق الفن الإغريقى فى تصوير الطبيعة وجسم الإنسان،، وهكذا سار كل من الفريقين على طريقة وأوغل فى سيرة، فكان ما نراه من الفائدة للحضارة التى تعرض للخطر لو ساد التعصب المطلق، وإلا كان من المؤسف حقاً أن تحرم المدنية مداخل شارتر أو حمراء غرناطة.

ساد سوء التفاهم بين الفريقين منذ البداءة، وزاد بالمنازعات والمطامع السياسية، وكانت الفتوح الإسلامية جزاءً مقدراً وخزياً كبيراً على النصرانية الشرقية المتفرقة المنحطة، فلم يكن الزمن الذى تكون فيه حظيرة كبيرة وراعٍ واحد قد حل، وكان سلطان العرب غُلا أكرهت به أوربة على الصواب، فكان ظهور العرب ووعيدهم حافزين للنصرانية إلى سلوك سبيل الإصلاح والترقى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والقرآن يستشهد بالتوراة والإنجيل على الدوام، وما كان للقرآن أن ينقضهما، والقرآن يفسر بهما، وفى القرآن: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾

وفى القرآن ذكر لبعض ما جاء فى الكلام المنزل قبله وتوكيد له وترنم به، وفى القرآن توقع للاتحاد فى شخص إبراهيم الذى هو أبو المؤمنين:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

الفصل العاشر

عام الحزن

﴿لتبلون فى أموالكم وأنفسكم﴾

(من سورة آل عمران)

التجأ محمد وآله وصحبه إلى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة، بعد أن تعاقدت قريش على مقاطعة بنى هاشم، وكتبت قريش أمر المقاطعة فى صحيفة من رق وعلقوها فى جوف الكعبة، فعجز المسلمون المحصورون عن الكسب فصاروا يقاسون ألم الجوع أحياناً، ومن حسن الحظ أن كان للمسلمين من يعطفون عليم فى مكة فيمد هؤلاء المسلمين سراً بالطعام، ولم يكن للمسلمين أن يخرجوا من عزلتهم إلا فى الشهر الحرم، فكان يتاح للنبى، بذلك، الاختلاط بالحجيج ودعوتهم إلى الإسلام، واستمرت هذه الحال ثلاث سنوات، وتعب المشركون من بقائها، وتذمروا مما أدت إليه الضغائن من التفرقة فى مكة، ويظهر أن أبا سفيان أدرك تعذر دوام المقاطعة وأنه لا ينشأ عن الإصرار على الاضطهاد إلا زيادة الميل إلى الدين الجديد، وعمل هشام بن عمرو على نقض الصحيفة فاستمال إليه زهير بن أبى أمية (حفيد عبد المطلب من ناحية الأم) ورجالاً آخرين.

أكلت الأرضة الصحيفة التى سطر عليها عهد المقاطعة أو بليت هذه الصحيفة بسبب آخر فى الوقت المناسب، ولم يبق منها سوى ما هو مكتوب عليه: "باسمك اللهم"، فعد المسلمون ذلك معجزة، وأثر ذلك فى قريش فطلب زهير بن أبى أمية نقضها بقوله:

"يا أهل مكة ! إنا نأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة".

أبو جهل: "كذبت والله لا تشق".

زمعة بن السود: "أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حين كتبت".

أبو البخترى: " صدق زمعة، لا نرضى ما كتب والله فيها ولا نقر به". المطعم بن عدى: "صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منهما وما كتب فيها"، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

أسفر هذا الاجتماع عن عودة محمد وصحبه إلى مكة، ومن المحتمل أن يكون محمد قد أراد أن يركن قليلاً إلى قريش فى هذه الآونة، جاء فى القرآن: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ

http://www.almaktabeh.com

كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ (الاسراء :٧٥) وكان لمحمد السند في دوام الوحي بما يلائم الأحوال، فكان يؤلمه فتوره، ولا أدرى أن محمداً كان يعتقد قرب نهاية العالم، ومن المحتمل أن رأى ذلك، لما تدل عليه بعض الأحاديث التي يفهم منها معاصرته للدجال، نعم، إنه نبي آخر الزمان، ولكن هذا لا يعني أن له بحكم الضرورة وراثة الزمن العتيد، فيمكن أن يحمل قول محمد: " بُعثت أنا والساعة كهاتين" وضمه السبابة والوسطى على أنه، بالحقيقة، نبي الساعة التي أخبر عنها بعلامات لم تعلم قبله، كما أنه يمكن أن يحمل ما أخبر به من العلامات والاشتراط على أن رسالته هي لتوكيد مصير الإنسان وحقيقة البعث.

حدث محمد قومه عدة سنوات عن عذاب من السماء إذا لم يستمعوا له ، فلم يظهر هذا الحكم الإلهي ولا آخر الزمان، وكان ملاحدتهم يضحكون من إنذاره لما يرون من عدم حدوث ذلك أبداً، وكيف تطمئن نفس النبي؟ جاء في القرآن أن الساعة لا تأتي إلا بغتة، ولابد من أن يكون محمد قد ألم من جهله لوقت الساعة ومن تأخر حلولها، ولابد له من تواتر الوحي ليهدأ قلبه، ثم جاء في الحوادث ما قرت به عينه، فكان ما أصابه من الفوز مصدقاً لما وعد به ودليلاً على تأييد الله له، وكان له بما تم من النصر أن يضحك من المهازئ، وأن يكم بسيوف أتباعه أفواه المستهزئين، وأن يظل ملكه قائماً حتى تقوم الساعة.

ولم تنقض محن محمد وآلامه بنقض الصحيفة وزوال عهد المقاطعة، فقد توفي في عام ٦٢٢ مجير النبي وعمه أبو طالب وزوجته الوفية الحبيبة المسرية[1] خديجة فكان "عام الحزن".

كان عمر أبي طالب يزيد على ثمانين سنة حين وفاته، وكان محمد يتعلق به تعلق الابن بأبيه فيألم من عدم إسلامه، وكان فراش موت أبي طالب مسحاً لتنازع العواطف، فقد طلب محمد من أبي طالب أن يؤمن به لينال سعادة الآخرة، فأبى أبو طالب ذلك مخافة أن يظن أنه إنما قالها جزعاً من الموت، ولم يفتر محمد عن دعوة أبي طالب المحتضر على

[1] سرى عن قلبه: كشف عنه الهم.

الإسلام، ولم يأل أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية جهداً فى تذكيره بالثبات على دين آبائه، ثم لفظ أبو طالب أنفاسه الأخيرة، فأمض موت أبى طالب على الشرك محمداً فقال له: "لا أزال أستغفر لك حتى ينهانى الله".

بيد أن النبى لم يلبث أن أوحى إليه بألا يستغفر لمن مات مشركا.

أذعن محمد، وحدث، كما يظهر، أن أبا طالب أقل المشركين عذاباً فى جهنم لما خدم به الإسلام، فقال: "أهون أهل النار عذاباً ابا طالب منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه".

ولما مات أبو طالب نالت قريش من إيذاء محمد ما لم تطمع فيه فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه رجل من قريش فنثر على رأسه تراباً، فدخل بيته، فقامت إليه ابنته فاطمة فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى وهو يقول لها:

"لا تبكى يا بنية! فإن الله مانع أباك".

وفقد محمد بوفاة خديجة تلك التى كانت أول من علمت أمره، تلك التى لم تكف عن إلقاء السكينة إلى قلبه، تلك التى كانت تشمله بحب الأزواج وحنو الأمهات، تلك التى طلب منه جبريل ذات مرة أن يبلغها قوله: "بشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب[1]" تلك التى بلغت الستين من عمرها فلم يفكر فى الزواج بغيرها ما دامت حية، بل بقى آية فى الوفاء لها.

فكر محمد فى الزواج بعد وفاة خديجة، فاختار عائشة بنت صاحبه الصادق أبى بكر التى كانت فى السابعة من عمرها والتى تبشر ملامحها بالجمال، فخطبها وعقد عليها، ولم بين بها إلا بعد سنتين فى المدينة، فكانت زوجته المفضلة، ولم يتزوج ببكر غيرها، وتزوج محمد فى هذه الأثناء بسودة أرملة السكران بن عمرو الذى هاجر إلى الحبشة فرجع على مكة فمات بها منذ زمن قليل، فكان بذلك لسودة عزاء مع قلة حب محمد لها على ما يظهر.

---

[1] القصب: الزبرجد الرطب المرصع بالياقوت.

وفكر محمد منذ زمن قليل فى الخروج من الوضع الذى هو فيه، فما كان ليبقى بمكة ما دام لم يظفر فيها بكبير طائل، فهل يكون له الملجأ فى بلد آخر أو عند قبيلة أخرى؟ وهل يجد هنالك إيماناً برسالته؟ اختار محمد الطائف، مدينة ثقيف، الفتّانة الواقعة على مسافة اثنين وسبعين ميلاً من شرق مكة فوق جبال معتدلة حيث ينبت ما تجهله بقية جزيرة العرب من الأشجار المثمرة كشجرة الخوخ والإجاص والرمان.

ومن المؤسف أن كانت الطائف، مع شهرتها وكونها مصيفاً لأغنياء مكة بسبب ملائمة هوائها للصحة، مركزاً لعبادة اللات التى هى إحدى بنات الله، وأن كان لهذه الآلهة صنم بها، وأن كانت ثقيف شديدة الاحترام لها والارتباط فيها.

أقام النبى الطائف شهراً لم يوفق فى أثنائه لشىء، وإنما لاقى فيها شتائم واعتداء من أوباشها.

قال له ثقفى: "أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟"

أخذ سفهاء ثقيف وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحصى، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة القرشيين، وهما فيه، فرجع عنه من السفهاء من كانت يتبعه، فعمد إلى ظل سياج من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه من نافذة فشكا أمره إلى الله قائلاً:

"ألهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى[1] حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك".

---

[1] العتبى: الرضا.

فلما سمع أبنا ربيعة، عتبة وشيبة، دعاءه تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس، فأمره بأن يحمل إليه قطفاً من العنب، فلما وضع النبى فيه يده قال: "باسم الله".

عداس: "والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد".

النبى: "ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟"

عداس: "نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى".

النبى: "من قرية الرجل الصالح يونس بن متى".

عداس: "وما يدريك ما يونس بن متى؟"

النبى: "ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى".

فأثر ذلك فى نفس عداس النصرانى الذى وجد له بمحمدٍ شبه شريك فى الاعتقاد فى بلد الإشراك، فأكب على النبى يقبل كتفيه ويديه وقدميه، وابنا ربيعة يريان ذلك، فقال أحدهما شيبة إلى أخيه عتبة:

"أما غلامك فقد أفسده عليك".

فلما جاءها عداس قالا له مؤنبين ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه".

سب أهل الطائف محمداً وأخرجوه طريداً على مسافة فأراد الرجوع على مكة، ولكنه رأى أنه لا يستطيع أن يدخلها فى غير جوار، فبحث له صاحبه ورفيقه زيد ابن حارثة عن المجير فلم يرد الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو أن يجيراه أو لم يقدرا على ذلك، وكان محمد ينتظر فى نخلة ما يسفر عنه ذلك، محزوناً ضارعاً إلى الله ألا يعده مقصراً فى دعوة ثقيف.

وإن محمداً ليصلى فى ليلة منزوياً تحت نخلة ويتلو القرآن إذ استمع له نفر من الجن، والجن ذوو أجسام من نار هالكون، كبنى الإنسان، مع طول عمر والجن يرجون، كالبشر،

http://www.al-maktabeh.com

حياة أخرى يثاب فيها المحسن ويجازى فيها المسىء، فأعجب أولئك النفر بما سمعوه من آى القرآن فأسلموا كما جاء فى سورة الجن التى علم النبى منها ذلك الأمر العجب، وما يبغى النبى والجن يؤمنون به حين أنكر الإنس رسالته؟ وما يبغى النبى والجن الذين يعبدهم العرب، على غير حق، يسلمون؟ فيا له من مثال دامغ للمشركين!.

أجار مطعم بن عدى محمداً، فدخل محمد مكة، وكان الناس فى دور المواسم، فعرض محمد نفسه على القبائل، فرده بنو حنيفة، وكاد بنو عامر يتبعونه لو لم يشترطوا عليه أن يكون لهم الأمر من بعده فرد ما طلبوا.

وفى هذا الحين وقع الإسراء الشهير الذى هو موضوع كثير من التفسير، ففى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غايته، وصمتت فيها طيور الليل وسكتت الضوارى وانقطع خرير السواقى وصفير الرياح، استيقظ محمد على صوت ينادى به: "قم أيها النائم!" فإذا الملك جبريل أمامه وضئ الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج أشقر الشعر مرسله واقفاً فى ثيابه المرصعة باللآلئ والموشاة بالذهب، وإذا أجنحة كثيرة من كل الألوان تهتز.

كان جبريل ممسكاً بيده عنان دابةٍ عجيبة هى البراق، لها راس كرأس الإنسان وأجنحة كأجنحة النسر، فانحنت هذه الدابة أمام النبى، فركبها وانطلقت به كالسهم، فوق جبال مكة ورمال الصحراء متوجهة إلى الشمال، وكان جبريل رفيقاً له فى هذا الانطلاق الخارق للعادة، فوقف جبريل به فوق طور سيناء، حيث كلم الله موسى، ليصلى عليه للمرة الأولى، ووقف به مرة أخرى فى بيت لحم حيث ولد عيسى، ثم انطلقا فى الهواء فكانت أصوات خفية تحاول أن تستوقف النبى الذى رأى أن من الإخلاص لرسالته ألا يستوقف دابته إلا حيث يشاء الله، فلما بلغ محمد بيت المقدس ربط البراق وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى، ثم نصب له معراج واسع على صخر يعقوب فعرج فيه مسرعاً إلى السماوات.

بدت السماء الأولى من الفضة الخالصة، وبدت النجوم معلقة فيها بسلاسل من ذهب، وبدا فى كل واحدة منها ملك حارس ليمنع الشياطين من الارتقاء إليها، وليمتع الجن من استراق السمع فيها، وفى هذه السماء سلم محمد على آدم، وفى هذه السماء كانت أنواع

الخلائق تسبح بحمد الله، والتقى النبى فى السماوات الست الأخرى بنوح وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس (أخنوخ) ويحيى (يوحنا المعمدان) وعيسى، ورأى النبى ملك الموت عزرائيل الذى هو من الضخامة ما بلغت معه مسافة ما بين عينيه مسيرة ٧٠٠٠ يوم وما يقود معها ١٠٠٠٠٠ كتيبة، والذى يقضى وقته فى كتابة أسماء المواليد والوفيات فى سجل كبير، ورأى النبى ملك الدموع الذى يبكى من ذنوب العالم، ورأى النبى ملك الانتقام ذا الوجه النحاسى الكثير البثور والموكل إليه عنصر النار والجالس على عرش من لهب، ورأى ملكاً آخر ضخماً نصفه الأول من ثلج ونصفه الثانى من نار وحوله جوقة سماوية تقول على الدوام: " اللهم قد جمعت الثلج والنار وجمعت كل عبادك فى طاعة سنتك*"، ورأى فى السماء السابعة التى هى مقر أرواح أهل العدل ملكاً أكبر من الأرض بأجمعها له ٧٠٠٠٠ رأس ، و٧٠٠٠٠ فم فى كل رأس، و٧٠٠٠٠ لسان فى كل فم، و٧٠٠٠٠ لغة لكل لسان، و٧٠٠٠٠ لهجة لكل لغة، ويسبح بحمد الله تعالى ويقدس له. وبينما كان محمد يتأمل هذا الخلق العجيب إذ نقل إلى قمة سدرة المنتهى المزدهرة عن يمين العرش الإلهى الذى لا تدركه الأبصار والمظلة لألوف من الأرواح الملائكية، ومحمد بعد أن جاوز فى ثانية واسع البحار ومضىء المناطق ومظلمها وملايين الستائر من الياقوت والشفوف والدياجير والنا والهواء والماء والفضاء، أى ما يفصل بين كل واحد من هذه الأشياء مسيرة خمسمئة سنة، ومحمد بعد أن جاوز حجب الجمال والكمال والسلطان والجلال والوحدة، أى ما وجد وراءه ٧٠٠٠٠فرقة من الملائكة الساجدين الساكنين الصامتين، شعر بارتفاعه إلى حيث نور مولاه فكان فيه كالفانى، وكان لا يبصر من هنالك الأرض والسماء مجتمعين كما لو دخلتا فى دور العدم أو كانتا حبة من خردل فى وسط حقل، وهذا ما يجب أن يكون عليه الإنسان أمام رب العالمين.

صار محمد من حضرة العرش "قاب قوسين[1] أو أدنى" ناظراً على الله بعين بصيرته مشاهداً ما يعجز اللسان عن التعبير عنه ومالا يخطر على قلب بشر، ووضع العلى الكبير يداً

---

[1] قاب قوسين: قدر قوسين.

على صدر محمد ووضع الأخرى على كتفه فأحس محمد أن أثلج إلى فقاره، ثم شعر بما لا يعرب عنه من النعيم والفناء فى الله[1].

وبعد حديث لم تراع كتب الأثر روعته أمر الله النبى أن يصلى كل مسلم خمسين مرة فى كل يوم، فالتقى محمد وهو يهبط من السماوات بموسى، فقال له موسى:

"إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإنى والله، قد جربت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك".

فعاد محمد ونقص عدد الصلوات إلى أربعين، فوجدها موسى كثيرة، فأعاد خليفته فى الرسالة محمداً غير مرة حتى انتهت الصلوات إلى خمس.

وأخذ جبريل محمداً لزيارة الجنة التى أعدت للمؤمنين بعد البعث فوجدها واسعة ذات أرض من فضة وحصى من لؤلؤ وجبال من عنبر وقصور من جواهر ومن ذهب.

ثم عاد محمد من المعراج المنير إلى الأرض ففك البراق وركبه وسار عليه من بيت المقدس إلى مكة.

وقد اختلف فى مسألة وقوع الإسراء والمعراج بالجسد والروح أو بالروح وحدها، فروى أن محمد مر فى أثناء عودته من بيت المقدس إلى مكة بعير وأنه أخبر بقرب وصولها، وأنه كان فى غرفته، عندما أفاق، جرة ماء قريبة من فراشه فكفأها الملك بجناحه عند الرحيل وأن بطرك القدس رأى فى اليوم التالى آثاراً فى مسالك الأنبياء بالمعبد، وأكثر العلماء على أن الإسراء بين مكة وبيت المقدس وقع ذهاباً وإياباً على البراق بالجسد والروح وأن المعراج وقع بالروح فقط، ويبدو لنا أن ما دار حول ذلك من الجدل الذى ملأ المجلدات لا يعدو حد اللغو ما دمنا لا نرى للمعراج ما يمتاز به من روًى النبى والأولياء التى صحت

[1] قال ما سنيون: تدلى محمد فى الأفق الأعلى.. فانقطع بصره ثانية عن الخلق .. وغاص فى عالم الروح الوسيع الذى لا تدركه العقول والذى تعجز اللسان عن الشكر له والثناء عليه، فكان لمحمد بما رأى من أمر بسيط سلبى نقاوة إيمان وسكينة نفس دون ما اتحاد بالله ما دامت رسالته قائمة على مبدأ فصل الخلق عن الألوهية، لا على وصل الإنسان بالله.."

روايتها والتى لم تصح، والمهم فى امر المعراج هو اتخاذه أساساً لتأملات كثير من متصوفى الإسلام الروحية.

فلما كان الصباح قص محمد ذلك على عمه العباس وعلى أم هانئ فنصحاه بألا يحدث به أحداً لما قد يؤدى إليه حديثه من فتنة أصحابه وسخرية أعدائه، ولكن النبى رأى ألا يكتم شيئاً مما أوحى إليه به فذهب إلى ساحة الكعبة ليجلس فيها، فمر أبو جهل من هنالك وسأله عما لديه من خبر، فأخبره محمد بإسرائه إلى بيت المقدس، فقال أبو جهل مستهزئاً:

"أرأيت إن دعوت قومك أتخبرهم بما أخبرتنى به؟"

فقال النبى: "نعم".

فقال أبو جهل: "هيا معشر قريش!"

فجاءوا وجلسوا اليها، فأخذ محمد يقص حديث الإسراء فوصف هيكل القدس وأهل السماوات السبع وذلك أن إبراهيم أشد الناس شبهاً به وإن كان أعظم جسماً منه، وذكر أن موسى أسمر فى شعره تثن، وأن عيسى فوق الربعة[1] أحمر الوجه مسدول الشعر، وأن يحيى بن زكريا مربوع القامة أشقر الشعر جعده بفعل الشمس مشابه لأبى جهل ومكتم بن أبى الحور(؟).

أخذت الحيرة أكثر الحاضرين، ومنهم الموالون، ووضعوا أيديهم تعجباً على رؤوسهم، واتهمه بعضهم بالكذب والجنون، وزلزل إيمان الكثيرين من أصحابه، وسعى رجال من المشركين إلى أبى بكر وحدثوه بما سمعوه فقال:

"أو قال ذلك رسول الله؟"

فقالوا" "نعم".

قال: "لئن قال ذلك لقد صدق".

ثبت أبو بكر بذلك إيمان من تردد، وكافأه النبى على إيمانه المتين بأن لقبه بالصديق.

---

(١)

الباب الثانى

المدينة

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الحادى عشر

الهجرة (٦٢٢)

"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" ح البخارى:١)

" قال بطرس: ها نحن قد تركنا كل شىء وتبعناك فقال لهم الحق أقول لكم: إن ليس أحد ترك بيتاً أو والدين أو إخوة أو امرأة أو أولاداً من أجل ملكوت الله إلا ويأخذ فى هذا الزمان أضعافاً كثيرة، وفى الدهر الآتى الحياة الأبدية"

(إنجيل لوقاً: الإصحاح الثامن عشر ٢٨- ٣٠)

دخل حُجاج يثرب خيامهم ليلاً وناموا بعد أن رموا فى عقبة منى، التى هى سهل صحراوى واقع فى أسفل جبل كئيب، جمرات[1] على سارية صغيرة وقربوا القرابين وقضوا مناسك الحج.

وما كانوا جميعهم ليناموا بالحقيقة، فقد نهض قبيل منتصف الليل خمسة وسبعون منهم بهدوء وعملوا على عدم إيقاظ أحد سواهم وخرجوا يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة منتظرين صامتين، وكان الوقت رائعاً والساعة حاسمة، وما علموا أنه سيسفر عن اجتماعهم هذا تغير مجرى تاريخ العالم، وإن لم يجهلوا خطر عملهم، وهم الذى أسلموا فى يثرب على يد مصعب بن عمير وواعدوا النبى ذلك المكان.

وفى العقبة نفسها كان النبى قد اجتمع فى العام الماضى (٦٢١) باثنى عشر حاجاً من أهل يثرب وبايعوه عنهم وعن نسائهم على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتون ببهتان يفترينه بين أيهم وأرجلهم ولا يعصوه فى معروف.

وعرب يثرب الذى استعدوا للتوحيد بما علموه من حلفائهم اليهود تساءلوا عن كون محمد العجيب الأمر نبى آخر الزمان الذى حدثهم عنه بنو إسرائيل أحياناً، فرأوا أن يسبقوا غيرهم إلى مواثقته إذا كان ذلك النبى، وطمع بعضهم أن يهاجر هذا النبى القوى على يثرب التى أكلها انقسام القبائل وعصبياتها والتى عانت حرباً أهلية مخربة بين الأوس والخزرج فير أب الصدع[2] ويحل الوئام محل الخصام.

كانت هذه الأحوال عامل تحول فى رسالة محمد الذى لم يوفق في دعوته لبنى قومه، فمحمد، الذى لم يفكر بعد فى الراحة مع أنه ضحى بهنائه وبسعادته وبكل ما يملك من حطام الدنيا[3] وأضحى كهلاً، أعد نفسه لجهاد جديد فاشتدت عزيمته بدخول هؤلاء

---

(1) الجمرات: جمع جمرة وهى الحصاة.

(2) راب الصدع: أصلحه.

(3) حطام الدنيا: ما فيها من مال قليل أو كثير.

http://www.al-maktabeh.com

الذين لم ينتظر إسلامهم فى دينه، فرأى أن يهاجر وأن يخوض غمار المخاطر، فلعله يرى فى أهل يثرب السند الذى لم يجده فى الطائف، ولا فى وطنه مكة.

حل منتصف الليل، فتسلق العقبة رجال لابسون ثياباً بيضاً، فكانوا محمداً ونفراً من مسلمى مكة، فقال محمد قولاً مؤثراً وتلا القرآن وقال: "تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن تقولوا فى الله ولا تخافوا فى الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم بما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم".

فقال البراء بن معرور: "نعم، والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا[1] فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة[2] ورثناها كابراً عن كابر".

وقال أبو الهيثم بن التيهان: "يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعنى اليهود)، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟".

فتبسم الرسول وقال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وانتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم".

أعرب القوم عن ارتياحهم، واستعدوا للمبايعة، فقال العباس بن عبادة مؤنباً بنى قومه:

"يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة".

---

(1) الأزر: جمع إزار، ويأتى بمعنى النفس

(2) الحلقة: الدرع خاصة وقيل كل السلاح.

فقال القوم: "فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ "

فقال النبى: "الجنة" :

فقال: "أبسط يدك".

فبسط يده وبايعوه، وكان أول من بايع النبى البراء بن معرور، ثم بايع بعد القوم، ومنهم امرأتان، فلما فعوا ذلك قال العباس بن عبادة:

"والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا".

فقال النبى: "لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم".

إذن، يكون مبدأ الحرب المقدسة قد وضع أول مرة فى بيعة العقبة الثانية التى تعرف، أيضاً، ببيعة الرجال، كما عرفت بيعة العقبة الأولى بيعة النساء، ولم يأذن الله لرسوله قبل هذه البيعة الثانية فى امتشاق الحسام[1]، ولم يكن فى القرآن قبلها غير الإيصاء بالصبر، وما كان محمد وأصحابه ليقابلوا الاضطهاد بغير الحلم ونسيان الأذى مدة ثلاثة عشر سنة، ثم أذن للمسلمين فى درء الاعتداء بالاعتداء بعد الآن موقوفاً على أمر الله تعالى.

وما تفرق المبايعون سمعوا من وراء صخور منى صوتاً خفياً متوعداً فارتبكوا، فقال محمد على ما يروى: "لا يرعكم هذا الصوت، فإنما هو عدو الله إبليس، وليس يسمعه أحد ممن تخافون"، وبهذا جملهم محمد على العودة إلى خيامهمليناموا مطمئنين.

ومن الجائز أن كان ذلك صوت جاسوس لقريش.

أمر محمد أصحابه بالهجرة إلى يثرب فخرجوا أرسالاً، فغادر مكة بذلك نحو مئة رجل وامرأة، ولم يتخلف مع النبى بمكة إلا أبو بكر وعلى بن أبى طالب، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن الرسول فى الهجرة فيقول له الرسول: "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً".

---

[1] امتشاق الحسام: استلال السيف.

أبو بكر مسروراً: "أتود ذلك حقاً فداك أبى وأمى؟*"

استعد أبو بكر للهجرة مع صاحبه، فابتاع راحلتين[1]، فحبسهما فى داره يعلفهما أربعة أشهر، وكان النبى يأتى بيت أبى بكر عشية، ثم جاءه ذات يوم بالهاجرة[2]، فلما رآه أبو بكر قال:

"ما جاء رسول الله فى هذه الساعة إلا لأمر حدث".

النبى:" أخرج عنى من عندك".

أبو بكر: "يا رسول الله إنما هما ابنتاى: عائشة وأسماء، وما ذاك فداك أبى وأمى؟"

النبى: " إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة"

أبو بكر : "الصحبة يا رسول الله".

النبى: "الصحبة".

أعد أمر الهجرة بدقة، ما احتمل أن تقتل قريش محمداً إذا حاول الارتحال عن مكة، ويروى أن علياً خاطر بنفسه وقضى الليلة فى فراش محمد مدثراً ببردته الخضراء التى كانت معروفة.

ذهب محمد إلى بيت أبى بكر وخرجا معاً فإختفيا ثلاثة أيام فى غار ثور البعيد عن مكة ثلاثة أميال والواقع فى جنوبها الغربى محاذياً ليثرب.

انقضى زمن احتمال العذاب يصير، وولى زمن مقابلة الأذى بالحلم، فعلى الإسلام اليوم أن يغلب أو يموت.

جاء الأنبياء بالمعجزات فسخر الناس منهم أو قتلوهم، ومحمد الذى لم يأت بالخوارق لم ير أن يدع نفسه للقتل، ومحمد الذى لم يأل جهداً فى تبليغ رسالته فاحتمل ضروب

---

(1) الراحلة: من الإبل القوى منها على الأحمال والأسفار للذكر والأنثى والتاء للمبالغة.

(2) الهاجرة نصف النهار فى القيظ.

الأذى ولم يقصر أعداؤه فى اضطهاده اضطر إلى الهجرة هو وصاحبه أبو بكر حاملاً تحت بُردة شعلة الإيمان الجديد، والأنبياء جاءوا بالمعجزات والآيات، ومحمد يأتى الآن بالسيف.

بدأ النبى يحيا حياة جديدة، فقد أصبح لزاماً عليه أن يكون بعد الآن قائداً وزعيماً سياسياً ورئيس دولة من غير انقطاع عن القيام بأمر الرسالة وتلقى الوحى وتبليغ آى القرآن ، ومن المحتمل أن محمداً سيأسف بعد الآن على حياة الماضى فى بعض الأحيان، ومن المحتمل أن محمد سيتلهف، بين الحقائق الخادعة القاتلة للفكر والخيال وبين تقلب الحوادث الدنيوية، على زمن التأمل فى أثناء عزلته بغار حراء، وعلى الزمن الذى كان يدعو فيه خديجة وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة سراً،

وعلى الزمن الذى كان يجهر فيه فى الكعبة بأن الله وحده هو الإله الحى، ومن المحتمل أن محمداً سيتحسر، بين نعيم الحريم، بين نسائه الأثنى عشرة، اللاتى تزوجهن إما عن حب وإما عن سياسة، على ما كان يلاقيه من الهناء فى منزل خديجة ذات الحلم والدعة.

والآن يأخذ محمد معه بذور النجاة التى ضنت قريش عليه بها، والتى سيضطر إلى حفظها تحت قبة من فولاذ، فالجنة تحت ظلال السيوف، والآن يفر مُحمد بدينه مما يُبيت له، فأخذ ظل رجلين يبدو ممدوداً على نور القمر الكامد فى الصحراء، وكيف يتفلت ذاك الرجلان من مطاردة بلد بأسْرِه لهما، من مطاردة أولئك العرب العالمين بقص الأثر؟ دخلا الغار.

كان أبو بكر فى الخمسين من عمره، نحيف الجسم مع قليل حدب، عالى الجبين مع دقة وجه، أدعج العينين لا معهما مع غور فى المحجرين[1]، ضامر اليدين مع بروز فى العروق ولين فى الملمس كيدى تاجر مترف، ولم يكن لدى أبى بكر اليوم من الوقت ما يخضب فيه لحيته بالحناء، وكان أبو بكر عالماً بروح الإسلام وأدبه فلم يقصر فى البذل، ثم ترك فى مكة جميع ماله تقريباً فلم يأخذ معه سوى خمسة آلاف درهم، وكان ابنه الأكبر الشاعر عبد

---

[1] المحجر : من العين ما دار بها.

الرحمن شديد الخصومة للإسلام فكان شديد الحكم على ما عد صدوره عن أبيه ضرباً من الجنون، وكان ابنه الأخر عبد الله الذكى السريع الفهم أكثر إخلاصاً له فكان يقضى الليل مع صاحبى الغار، حتى إ ذا قرب وقت الفجر عاد إلى مكة ليتسمع لهما ما يقول الناس فيها وليرجع إليهما تحت جنح الظلام، وكانت أخته أسماء تأتيهما مثله فى الغار ليلاً، وكان مولى أبى بكر، عامر بن فهيرة يرعى فى رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا، وكان يقضيان نهارهما فى قلق، وكانا يشربان لبنا خالصاً وكانا يصبان ما يبقى منه على الرضف[1] خوفاً من فساده، وقد جدت قريش فى طلبهما من كل ناحية، وصار محمد يدعو، وهو كالوتر المشدود، فيرتفع دعاؤه بأسرع من السهم إلى الله الواحد الذى هو سند كل مخلوق، والذى لولاه لخرت الجبال هدا وانكدرت[2] النجوم وانطفأت الشمس وماتت النفوس، وبينما كان أبو بكر يرتقب إذ سمع أصوات رجال مسلحين راكبين جمالاً عصفاً[3] يبحثون فى كل ناحية، وإذا هم يلاقون راعياً ويسألونه، وإذ يسمع أبو بكر جوابه:

"قد يكونان فى الغار، وإن لم أر أحداً فيه، وليس عسيراً أن يختبئ الإنسان فيه".

عرق أبو بكر فرقاً، فتكمش ولم يبد حراكاً، وأمسك أنفاسه مسلماً أمره إلى القدر، ثم مس كتف محمد فلم يتحرك، وأضحى الغار بأعجوبة مظلماً هادئاً ندياً كأنه كرة من الظل فى وسط الصحراء المحرقة، ونبه أبو بكر صاحبه إلى الخطر، فكان جوابه:

"لا تحزن، إن الله معنا".

اقترب الرجال بعد أن طافوا فى المحال المجاورة وتسلقوا الجبل الذى فيه غار ثور المتصل بالخارج بباب قليل الاتساع والذى يعلوه منفذ صغير ودنوا من الباب، فقال أبو بكر للنبى:

"لو أن أحدهم نظر إلى قوميه لأبصرنا تحت قدميه".

---

(1) الرصف: الحجارة المحماة.

(2) انكدرت النجوم: تناثرت.

(3) العصف: جمع العصوف أى السريع

فقال النبى: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما".

بلغ القرشيون باب الغار ومحمد يصلى.

هنالك وقعت المعجزة التى اتصلت بها روح الإنسان بالعالم الحادث، فقط نبتت إحدى شجيرات الجبل الجدب فى شق صخرة، وتمت ونشبت أغصانها فى الصخور، وتعهد الهواء الجاف فروعها الرائعة التى كادت تستر باب الغار وجثمت حمامة فى ظل الشجرة وهى تهدل[1]، وأتمت عنكبوت المعجزة بأن نسجبت بهندستها الدقيقة خيوطها الواهية، بين الضياء الخارجى وظل الغار الندى، يميناً وشمالاً وصعوداً وهبوطاً، ثم توسطت بيتها، وباضت الحمامة البيضاء، التى هى طائر الحب، فى الرمل، وحام الذكر حولها وهى راخمة[2] فى باب الغار الذى اتخذاه مسكناً لهما، فيا للحب ويا للدعة فى هذا الجانب من الدنيا!

فهذه الأمور الثلاثة وحدها هى المعجزات التى وردت فى التاريخ الإسلامى الجد: نسيج عنكبوتٍ، وغرام حمامة، ونمو شجيرة، وهى خوارق ثلاث تجدلها نظائر فى أرض الله كل يوم .

قال قائل منهم: "ادخلوا الغار!"

فقال أمية بن خلف: "وما أربكم[3] إلى الغار، إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد!"

لصق أبو بكر فى أقصى الغار، ونظر القرشيون على بابه الأسود فأبصروا الحمامة فلم يريدوا كسر بيضها وأبصروا الشجيرة وبيت العنكبوت فهزوا رؤوسهم معتقدين أنه لم يمر أحد من هنا حديثاً، ثم بال أحدهم قبالة فم الغار، فقال أبو بكر:

"إنه يا رسول الله يرانا".

---

(1) هدل الحمام: صوت.

(2) رخمت الحمامة البيض: حضنته.

(3) أرب إليه أرباً: احتاج إليه.

http://www.al-maktabeh.com

فقال الرسول: "لو كان يرانا ما فعل هذا".

رأى المطاردون من قريش أن ينصرفوا فتنادوا ليجتمعوا ثم سمعت خفاف مطاياهم وهم راجعون فقال النبى:

"الحمد لله، الله أكبر!"

فلما كان مساء اليوم الثالث جاءت إلى الغار أسماء بنت أبى بكر، وجاء عامر بن فهيرة وعبد الله بن أريقط، الدليل الأعرابى المشرك الذى كان يثق أبو بكر به كثيراً، مع بعيرين وسفرة[1]، وأسماء تلك هى التى هيأت لهما هذه السفرة، فلما أرادت أن تعلق السفرة ولم تجد ما تربطها به شقت نطاقها اثنين، فعلقت السفرة بواحدة وانتطقت بالآخر فسميت ذات النطاقين، وقد لفت شاة، مشوية على الملة[2]، وفى جلد مدور فتألفت من ذلك سفرة.

ركب محمد وأبو بكر راحتهما وانطلقا ومعهما الدليل وعامر بن فهيرة، فاتخذوا لهم طريقا غير الطريق المألوف فانحرفوا إلى الساحل ثم توجهوا إلى الشمال على محاذاة شاطئ البحر الأحمر، فأمضوا الليل وبعض الصباح من غير أن يقفوا، وكان الدليل يحدو[3] بالإبل حثاً لها على السير.

فلما قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلا يرى فيه أحد وقفوا فى ظل صخرة طويلة فبسط أبو بكر فروة معه، فنام عليها النبى عطشان تعباً، وإذا براع يقبل بغنمه على الصخرة يريد منها الظل، فطلب إليه أبو بكر أن تحلب شاة منها فحلب له فى قعب[4] معه فصب أبو بكر على اللبن من الماء حتى برد، فعرض على النبى أن يشرب منه، ثم قال النبى.

"ألم يأن[5] للرحيل؟"

---

(1) السفرة: طعام المسافر.

(2) الملة: الرماد الحار.

(3) حدا بالإبل: ساقها وغنى لها.

(4) القعب: القدح الضخم الغليظ.

(5) يأنى: يقرب.

فقال أبو بكر: "بلى؟"

جعلت قريش، مع ذلك، مئة ناقة لمن يرد محمداً عليهم حياً أو ميتاً، فحرك ذلك طمع جميع القبائل المجاورة، فاراد سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى أن يظفر بالجعل[1].

قال سراقة: "فبينا أنا جالس فى نادى قومى إذا أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال: "لقد رأيت ركبة[2] ثلاثة مروا على آنفاً، إنى لأراهم محمداً وأصحابه"، فأومأت إليه بعينى أن اسكت، ثم قلت إنهم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، ثم مكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتى ثم أمرت بفرسى فقيد لى على بطن الوادى، وأمرت بسلاحى، فأخرج لى من زاوية حجرتى، ثم انطلقت فلبست لأمتى[3] وكنت أرجو أن أرده إلى قريش فآخذ المئة ناقة، فركبت على أثره".

أغذ سراقة فى السير حتى أدرك محمداً ومن معه، وسمع محمداً يقرأ القرآن، وكان أولئك الفارون عزلا من السلاح، وأخذ أبو بكر يكثر الالتفات خوفاً من أن يحلقه الطلب فأعرب عن قلقه، ولكن خوفاً خفياً استحوذ على سراقة فشبا[4] فرسه أو كبا، فأبصر محمد ما أصاب سراقة فسأله بفصيح القول، فتوسل الأعرابى سراقة، الذى كان فى وضع حرج ووجل شديد، إلى الرجال الأربعة بان يدعو الله أن ينجيه مما هو فيه، ثم انطلق راجعاً، لا يلقى أحداً إلا رده وهو يقول:

" قد عرفتم بصرى الطريق، وقد سرت فلم أر أحد فارجعوا".

ومما حدث أن الأعرابى الذكى سراقة سأل محمد أن تكتب له شهادة على كنانته، فكان ما أراد، فانتفع سراقة بتلك الشهادة وقتما تم النصر للإسلام بعد زمن.

---

(1) الجعل: الأجر. الذى يأخذه الإنسان على فعل شيء.

(2) ركبة: جمع راكب.

(3) اللأمة: الدرع.

(4) شبا فرسه: قام على رجليه

داوم محمد ورفقاؤه على السير إلى يثرب، فجاوزوا الأكثبة التى بدأ ما عليها من النبات ييبس تحت شمس الصيف، ومروا من التلال الصُفر والآكام الزرق المنثورة عليها شجيرات تؤكل أوراقها عند الجدب، ثم مشوا من منطقة بركانية كان للصحراء بما فيها من بقاع من الحجارة السود ومن الجبال المفرضة ذات الحجارة الدكن[1] والحمر والسمر منظر فاجع، وكانوا كلما تقدموا نحو الشمال قل الماء وندر ما يجدونه فى طريقهم من العيون القريبة من النخيل ومن الآبار المصفرة المفتوحة فى المواطئ، ومن الماء المتجمع فى تجاويف الصخور، وكان فى الأماكن التى مروا منها أعراب رحل وقليل من الحضريين المقيمين بقرى فقيرة مبنية من الطين ومسقوفة بألواح حجر نارية.

دنا النبى ومن معه من يثرب بعد رحلة دامت سبعة أيام، وأصبحوا بين مضارب قبائل الضواحى وشرفها حيث هديل اليمام[2] فلي يبق ما يخشونه، وجاءت قبيلة بنى سهم مع شيخها بريدة للتحية، وكان الزبير زوج أسماء عائداً من الشام على رأس قافلة فعرج عليهم وأعطاهم ثياباً جديدة بيضاً، ثم وصلوا فى ١٢ ربيع الأول إلي قباء البعيدة من يثرب ميلين فأدركهما فيها على بن أبى طالب فى حالة يرثى لها لفراره من مكة ماشياً سارياً بالليل ومستخفياً بالنهار، وكانت قُباء ضاحية قائمة على أكمة خصبة ذات عنب ونخيل وتين وليمون ورمان ، فقضى النبى فيها بضعة أيام ووضع فيها أسس أول مسجد على ما يحتمل، ثم كان يوم الجمعة فخطب خطبة الجمعة وصلى صلاتها، ثم دخل يثرب فى موكب عظيم كما بينا ذلك.

ثم جاءت بعد أيام إلى يثرب عائشة وأسماء ابنتا أبى بكر وآل النبى مع زيد ابن حارثة الوفى، وبهذا يكون جميع المسلمين قد غادروا وطنهم مكة، خلا بضعة أرقاء ومفتونين، وسمى هؤلاء بالمهاجرين، وسمى مسلمو يثرب بالأنصار، وسمى الفريقان بالصحابة.

ذلك هو حديث الهجرة الرائعة التى اتخذها الخليفة عمر بن الخطاب مبدأ للتاريخ الإسلامى.

---

(1) الدكن: المائلة إلى السواد.

(2) اليمام: الحمام.

الفصل الثانى عشر

مدينة النبى

" إن الإيمان ليأرز على المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها - المدينة تنفى الناس كما ينفى الكبير خبث الحديد - لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال لها يومئذ سبعة أبواب لكل باب ملكان" من صحيح البخارى"

http://www.al-maktabeh.com

استقر محمد بالمدينة فاستطاع أن ينظم شؤون العبادة بالتفصيل، وأقام فى جزيرة العرب مجتمعاً مدنياً على أسس جديدة بعيدة من عصبيات القبائل والعشائر مما لم يصنع مثله مؤسسو الديانات إلا نادراً، فكان محمد بذلك الرسول والمشرع والسياسى والقائد فى آن واحد.

وصل محمد إلى المدينة مظفراً أكثر منه مهاجراً، فقد استقبلته أكثرية القوم بحماسة، ولكن سلطانه لم يتوطد إلا بعد انتصاراته الكبرى الأولى.

وكان على محمد أن يعاهد اليهود الكثيرين النافذين وأن يعاهد العرب الذين لم يدخلوا فى الإسلام بعد، فبدا كثير التسامح نحو اليهود، فكان يصوم يوم يصومون ويولى وجهه شطر بيت المقدس فى الصلاة، فآمن به بعض أحبارهم كعبد الله بن سلام، ولكن معظمهم قاوم الدعوة الإسلامية بشدة.

كان عهد وكان تحالف بين المهاجرين والأنصار والقبائل اليهودية وحلفائها ومن ظل مشركاً من الأوس والخزرج على التعاون والدفاع عن المدينة، وكان لليهود بذلك حرية العبادة وحق الحماية على المسلمين، وكان وعد من اليهود بأن يشتركوا فى نفقات حرب يشتبك فيها المسلمون، وكان شرط بألا يحلفوا أو يحاربوا إلا بإذن الرسول الذى يكون حكماً فى المنازعات.

ورأى محمد أن يشد الأواصر بين المهاجرين والأنصار وأن يحول دون تنافسهم وما إليه مما ينذر بشر مستطير، فآخى بينهم، فصار كل أنصاري أخاً لمهاجر، فبدت هذه المؤاخاة أقوى من صلة النسب، لما كان من تفضيل توارث المتآخيين على توارث الأقارب (لقد نسخ هذا الشرط فيما بعد).

وأبدى الأنصار من حسن الضيافة والكرم نحو المهاجرين الشيء الكثير، بعد أن اضطر أكثر المهاجرين على ترك رؤوس أموالهم فى مكة، وصهرُ النبى الغنى الأموى عثمان بن عفان وحده هو الذى استطاع أن يأخذ معه أمواله، فاشترى بعد وصوله المدينة بئر رومة من

يهدى بأربعين ألف درهم وجعله للمهاجرين، وبلغ عثمان من الثراء ما جهز به، بعد زمن، غزوة تبوك تقريباً.

بلغ المهاجرين المدينة فى عوز، فطلب حمزة من ابن أخيه أن يجد له ما يقيم به أوده، وانتهى إليها عبد الرحمن بن عوف من غير أن يكون معه دانق، وعبد الرحمن ابن عوف هذا قد آخى النبى بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى، فعرض عليه سعد أن يناصفه أهله وماله فقال له عبد الرحمن: "بارك الله لك فى أهلك ومالك دلنى على السوق"، ولم يخب ظن عبد الرحمن بن عوف فى حذقة التجارة وثقته بنفسه، فذهب فباع إقطاً[1] وسمناً، ثم ما لبث أن أغتنى فاستطاع أن يصدق امرأة من نساء المدنية، ثم استطاع أن يعد قافلة من سبعمئة بعير، فقال: "فلقد رأيتنى، ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة"، ومما قال النبى مبتسماً عن صاحب آخر له أنه لو باع رمالاً لكسب مالاً، والحق أن المهاجرين جاؤوا إلى المدينة ومعهم عاداتهم وحذقهم وحبهم للكسب فأقاموا سوقاً ثانية فى وسط المدينة ليستغنوا بها عن سوق بنى قينقاع اليهودية.

ومن المهاجرين من تعاطوا الزراعة، فلقد آجرهم أهل المدينة الأراضى على قسم من المحاصيل، ونذكر من المهاجرين الذين قاعدوا أهل المدينة على مثل ذلك على بن أبى طالب وسعد بن مالك وعبد الله بن مسعود وأسر أبى بكر وعمر بن الخطاب وابن سيرين (؟) وغيرهم.

كان أكابر المسلمين يقضون حياة قشف، ومن ذلك أن كان الزبير وزوجته أسماء بن أبى بكر لا يملكان غير بعير وفرس، وأن كانا يفلحان بهما أرضاً بعيدة ثلثى فرسخ من مسكنهما، وأن كانت أسماء هذه تعلف بنفسها الفرس وتسوق البعير لمتح[2] الماء وترقع الأسقية[3] وتحمل على رأسها محاصيل الحقل وتعجن الدقيق، وأن كانت تستعين بجاراتها المدنيات على الخبز لعدم مهارتها فيه، وأن صادفت ذات يوم محمداً وجماعة من صحبه

---

(1) الإقط: الجبن المتخذ من اللبن الحامض.

(2) متح الماء: نزعه.

(3) الأسقية: جمع سقاء وهو وعاء من جلد يكون للماء واللبن وغيرهما.

وهى حاملة على رأسها حملاً ثقيلاً، فوقف محمد ناقته وعرض عليها أن يردفيها[1] فأبت ذلك خجلاً ووجلاً من زوجها الذى كان "أشد الناس غيرة"، فلما علم زوجها ذلك أعرب عن تفضيله ركوبها خلف عديله النبى على مشيها حاملة على رأسها، فأعطاها والدها أبو بكر رقيقاً ليقوم مقامها فى عملها الشاق فلاح لها أنها حررت بذلك كما قالت.

وأقام أبو بكر وآله بمنزل صغير بضاحية السنح، وبقى ابنه الأكبر المشرك الشديد فى مكة، وتزوج ابنه الآخر عبد الله بالمهاجرة عاتكة بنت الحنيف الشهيرة زيد بن عمرو التى كانت أية فى الجمال، فبلغ من الافتتان بها ما أهمل معه الجهاد فحمله أبوه على فراقها حيناً.

وأقام عمر بالضاحية أيضاً، ولم يلبث عمر أن أصبح أحد صحابة محمد المقربين، فكان محمد لا يقطع أمراً قبل استشارة أبى بكر وعمر، وكان محمد يباسط أبا بكر وعمر مع دقة فى علاقته بزوج ابنته رقية الحسناء، عثمان الذى تزوج بعدها بابنة النبى الأخرى أم كلثوم، وكان محمد يعنى بالموازنة بين صاحبيه العظيمين القويين أبى بكر وعمر اللذين تجد لهما أثراً فى سياسته المنزلية، وهما اللذان لم يخلقا إلا للقيادة مع أنهما متوسطا النسب.

ربى الخطاب ابنه عمر بشظف، وكانت حال عمر صعبة فى بدء الأمر صعوبة حال محمد، وكان عمر رجلاً نشيطاً شديداً طويل القامة زيتى اللون لأن أمه خلاسية[2]، وكانت لا تفارقه درته[3]، وكانت النساء يرهبنه، فهربت نسوة أتين النبى لأمر حينما رأينه، وحمل نساء النبى على الحجاب، وأبت امرأتان الزواج به بعد أن أصبح أمير المؤمنين لعبوسه المستمر، وألزم أزواجه بالقرار بالبيت، وكان يطعم آله من خبز الشعير وقديد[4] الجمل، وأجمعت الروايات على شدته، فيقول فى الغلب: "ليقطع رأسه حالاً!*"، على حين يبدو أبو بكر

---

(1) أردفة: أركبه معه.

(2) الخلاسى الولد من أبوين أبيض وأسود.

(3) الدرة: السوط يضرب به.

(4) القديد: اللحم المجفف بالشمس.

أرحم في أساليبه، وأبو بكر من تعلم حزماً وعزماً في الوقت المناسب، ثم اتسع أفق تفكير عمر مع العمر والسلطان بما يقضي الإنسان منه العجب.

وكان لمحمد في غيرة عمر ما يروح به نفسه فقال ذات يوم: "بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبراً" فبكى عمر وقال: "أمنك أغار يا رسول الله؟" فرأى النبي أن يسرى عن عمر.

وأمر محمد المهاجرين بأن يكدوا[1] لكسب ما يعيشون به، حتى لا يظلوا كلاً[2] على الأنصار، وبلغ بعضهم من الجد في الأعمال ما نفرت معه عائشة اللطيفة من رائحة عرقهم، ولكنه جاء المدينة نفر من العرب من أماكن بعيدة فاعتمدوا في معايشهم على الصدقات وصاروا ينامون بإذن من النبي في موضع مظلل من المسجد على صفة، فدعوا بأهل الصفة، وأخذ النبي يعطيهم بقية طعام مائدته ما استطاع ذلك، أو كانوا يعطون ملء وعاء من الشعير المحمص المبتاع بمال الزكاة، وكان للنبي بهؤلاء حاشية غريبة رثة الثياب بجانب أكابر الصحابة، وأبو هريرة أكثر أهل الصفة حبا للاستطلاع، وكان أبو هريرة الأفاق الخفيف الظل من قبيلة دوس الضعيفة الشأن باليمن، فقال النبي حينما علم ذلك: "ما كنت أرى في دوسٍ أحداً فيه خير".

اشتهر أبو هريرة بعدد ما رواه من الأحاديث المشكوك في صحته، وكان أبو هريرة يتبع النبي حينما ذهب، حتى في نزهة الخاصة، فيتسقط أقواله ويلاحظ أدق حركاته، وكان هذه الضيفن[3] المحبوب يفضل على العمل ملازمة مولاه وما يصدر من تعاليمه، وكان إذا ما عضه الجوع يشد بطنه بحجر ويذهب إلى من يتلو عليه القرآن طمعاً في دعوته إلى الطعام، ولاقى أبو هريرة وهو يتضور جوعاً، ذات يوم، عمر بن الخطاب فقال لعمر:

"دعني أرافقك لتتلو القرآن*".

---

(1) يكدون: يشتدون في العمل.

(2) الكل: العيل والعيال.

(3) الضيفن: الطفيلي.

أخذه عمر فتلا عليه عدة سور من غير أن يطعمه، فذهب أبو هريرة إلى النبى وقص عليه ذلك، فسقاه النبى لبناً حتى استقام بطنه كالسهم، وكان جعفر بن أبى بطالب أكرم من عمر لأبى هريرة ورفقائه من أهل الصفة، فكان يدعوهم إلى بيته ويطعمهم جميع ما فيه، فإذا لم يبق فيه غير سقاء فارغ شقه ليلعقوا ما فيه من أثر، وأباح النبي لأعراب سغاب[1] انضموا إلى أهل الصفة أن يشربوا لبن نياق الزكاة وبولها فذبحوا راعيها وفروا بها، فأدركوا وأمسكوا فأمر محمد بأن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأن تقلع عيونهم وأن يتركوا فى البادية ليموتوا فيها وهم يعضون على الحجارة.

ومما تقدم ترى أن الحياة لم تكن سهلة فى المدينة فى كل وقت، ومحمد بعد أن أقام مدة بالطبقة الأولى من دار أبى أيوب الأنصارى استقر بالقرب من المسجد، فقد اشترى البقعة التى بركت عليها ناقته وأزال منها ما فيها من قليل النخل والقبور، وعمل بيديه فى بناء المسجد الذى لم يكن بالحقيقة سوى فناء فسيح مربع تحيط به، من جهة، مساكن النبى و أزواجه المصنوعة من اللبن والمصنوعة أبوابها من الحجارة المصفوفة، ويحيط به من جهة أخرى، رواق أهل الصفة المظلل القائم على جذوع النخل، ولم ينور المسجد ليلاً إلا بنيران الموص[2] لتقام صلاة العشاء، ولم تعلق مصابيح فى الجذوع إلا بعد تسع سنين.

وكان النبى يخطب الناس مستنداً إلى جذع، ثم أمر بإنشاء منبر لم يكن سوى موطئ بسيط مؤلف من ثلاث درج من خشب الأثل فصار يقف عند الوعظ على واحدة من درج هذا الموطئ الذى كان كرسياً ومنبراً وعرشاً فى آن واحد، حاملاً بيده حربة صغيرة أو عصا مرصعة بالذهب والعاج فيرسم بها بعض نقاط خطبته، وكان بلال الحبشى، الذى أعتقه أبو بكر فأضحى مؤذناً حاجباً لمولاه، يقف فى أسفل المنبر حاملاً سيفاً بسيطاً ذا مقبض فضى، وما كان محمد ليتخذ هذا الأسلوب، مع بساطته، إلا فى أواخر عمره، أى بعد أن تم له من النصر ما تم ليؤثر فى العرب، وفى أواخر عمره فقط أكثر من صنع المنابر وصار يأمر بأن يعطر

(1) سغاب: جياع.
(2) الموص: التبن.

http://www.al-maktabeh.com

المسجد يوم الجمعة، وأن يحرق فيه الند فى مواقد، وصارت تنصب فى فناء المسجد أحياناً خيمة كبيرة تسع أربعين شخصاً مصنوعة من جلد أحمر لاستقبال الوفود.

وكان يسكن محمد حول هذه المسجد، فقد بنى لكل واحدة من زوجاته بالتتابع منزلاً نافذاً على مكان الصلاة بباب، وكان أول ما أقيم منزل سودة ومنزل عائشة، ثم بلغ عدد المنازل تسعة، وكانت سودة قد تزوجت النبى فى مكة قبيل الهجرة، وبنى النبى بعائشة بعد ثمانية أشهر من وصوله إلى المدينة، وكانت عائشة إذ ذاك فى السنة التاسعة من عمرها، فقد نادتها أمها زوجة أبى بكر ذات يوم وهى ترتجح فى الأرجوحة مع صديقات لها، فذهبت راكضة على أمها لاهثة من غير أن تعرف السبب، فأمسكتها أمها من يدها فى عتبة البيت حتى هدأت ومسحت عرقها ونضحت رأسها ووجهها بالماء، فلما كانت داخل المنزل قابلتها النساء المجتمعات بالسلام قائلات: "التحيات المباركات الطيبات*!" وجملنها، ثم جاء النبى وسلمن إليه زوجته الصغيرة خجلة، وكانت عائشة زوج النبى المفضلة، فكان يُغضى عن أعمالها الصبيانية، ولم تلبث عائشة الذكية، مع خفة، الرشيقة المدللة أن صارت ذات نفوذ كبير، ولم يكن شأن عائشة التاريخى فى النصف الأول من القرن الأول من الهجرة ميموناً فى كل وقت، وعائشة لم تكن الآن إلا ابنه صغيرة كثيرة الحيوية والمرح نامية الأنوثة، وكانت تلعب بلعب كثيرة وزوجها يغض الطرف أحياناً، على كره ظاهر منه، عن تزين بيتها ببسط أجنبية جميلة عليها صور وجوه غريبة وخيل مجنحة ونسورٍ سود وحيوانات وهمية، فإذا ما حالت هذه البسط البغيضة بينه وبين القبلة أمر برفعها لئلا تشغله عن العبادة، أو طلب من عائشة أن تجزئها على قطع ليصنع منها وسائد أقل إيذاء للشعور، قال النبى: "من صور فى الدنيا صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ".

كانت الانتصارات والمغازى والرحلات التجارية تؤدي، أحياناً، إلى اقتناء ما كان ينعم به ، عن سذاجه ، العرب الحسيون المحبون للأبهه مع فقرهم ، من منتجات الحضارة، وإن شئت فقل من بعض النفائس النسبية، كالنطاق الذى اشترى لعائشة بخمسة دراهم، أى بما قيمته ثلاثة فرنكات، فكانت تفتخر به، وكالنسائج والزرابى، وما كان شيء يقى بلاد الحجاز الصحراوية من مجاعات فى أدوار طويلة، ولم يكن محمد وآله إلا فى أقصى درجات الزهد

فى الطعام، فكان السويق الذى هو مزيد من الدقيق أو الشعير المقلى ومن التمر والماء أو اللبن مأكلهم العادي، وكان طعامهم الآخر من التمر، ولم يكن فى بيت محمد منخل فكان يعجن الدقيق فيه غير منخول، وكان يكتفي بنفخ الشعير فى أثناء طحنه ليزول بعض نخالته، وكان يصنع من بلالة هذه النخالة مرقة تسمى بالخزيرة، وكانت هذه النخالة تمزج بالبن والعسل فيصنع من هذا المزيج حساء اسمه التلبينة، فتصب التلبينة على الثريد الذى يصنع من كسر الخبز المبلولة بماء اللحم والخضر، وكان خبز البر مجهولاً تقريباً، وكان يقتصر فى بعض الأحيان على الماء واللبن والتمر، وكان الطعام يوضع على حصير مفروش، على الأرض، وقلما كانت توضع منشفة لمسح الأصابع، فكانت الأرجل والأيدى تقوم مقامها، وقاسى محمدى ألم الجوع غير مرة ، فاضطر ذات يوم إلى رهن درعه عند يهودى الخلو بيته من صاع شعير.

وكان العوض، بعد المحاصيل الموسمية، فى الغزوات ووصل القوافل أحياناً، وللعرب معد قادرة على هضم كثر الطعام بين حين وحين والصبر على اقله، وكان محمد يدعى الغالب إلى ولائم، وكان يحب ، على الخصوص، كتف الشاة وحساء القرع والعسل والحلوى، وكان يأبى، على خلاف أعراب نجد، أكل الضبان المشوية، وكان يحث على الزهد والقناعة ويوصى بالصبر على الجوع وبألا يملأ المرء أكثر من نصف أحشائه، وكان ينهى عن أكل المضطجع على الجانب، لما يؤدى إليه من البقاء زمناً طويلاً حول المائدة.

ولم يكن صوان ثياب محمد فى البداءة أهم من خزانة طعامه، ومما وقع، ذات يوم، أن أهدت امرأة إليه بردة وكان فى أشد الاحتياج إليها، فجاءه رجل وطلبها منه ليتخذها كفناً، فأعطاه إياها لأنه ما كان ليرد سائلاً، وكان يلبس القميص المخيط ذا الكمين ويرتدى الرداء أو الكساء غير المخيط المصنوع من الصوف الخشن والقطن أو الكتان، ويلبس فى الأعياد وما إليها برود اليمن المخططة أو المطرزة وعباءة وأقمصة حريرية من منتجات دمشق وإزمير، ورداء مزخرفاً جاء به خالد بن الوليد وثياباً موشاة أهداها إليه رهبان ونصارى من نجران، أو اشتريت له من الشام ومن مصر، ويروى أنه كان له ثوب تعدل قيمته

ثلاثمائة جمل فلم يلبسه سوى مرة واحدة، ونهى، على العموم، عن لبس الحرير والثياب ذوات النقوش والألوان الكثيرة.

وكانت نعاله من الجلد عادة، وكان يمشى حافياً فى الغالب، وأهدى النجاشى إليه سراويل وأحذية سوداً فكان يصلى بهذه الأحذية فى الغالب وإن لم يلبس تلك السراويل قط، وكان العمامة لباس رأسه، وكان يستعين بدلو ماء كمرآة حين لفها حوله.

قال محمد: "حبب إلى من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة"، فكان يضع من العطور على رأسه ما يقطر على ثيابه حتى الذيل "كما لو كان بائع زيوت" وكان يدهن شعره ولحيته، وكان النسيج الذى تحت عمامته يبلل بالزيوت، وكان إذا مشى تضوع[1] المسك منه، ودلت هذه الرائحة الزكية عليه، وكان يأذن فى وضع الأسنان المستعارة (فكان لعثمان سن ثابتة من ذهب) والأنف المستعار (فصنع أحد صحابته لنفسه أنفاً مستعاراً من ذهب كما أشار النبى عليه به)، ولكنه حرم الشعر المستعار بشدة، وكان يصبغ أظفاره بالحناء ويكحل عينيه ويدلك أسنانه بالسواك قبل أن ينام على بساط بسيط أو أديم محشو بليف النخل ينفضه باعتناء طرداً للهوام، وكان محمد شديد النظافة.

وكان إسطبل محمد أنفس ما عنده، فكان له سبعة أفراس لقلة الخيول فى جزيرة العرب، وكانت بغلته البيضاء الدلدل، التى أهداها إليه عظيم مصر المقوقس، الأولى من نوعها فى بلاد العرب، وأهدى النجاشى إليه بغلته الشهباء وأهدى هذان العظيمان إليه حمارية الرائعين: يعفور وعفير، وكان له ثلاث نياق: القصواء[2] (التى شريت من أبى بكر يوم الهجرة) والجدعاء[3] والعضباء[4] وأكثر من عشرين ناقة حلوباً، يرعى نصفها مناوبة فى كل يوم ويبقى نصفها الآخر مناوبة بالقرب من منازل أزواجه ليحلبه الخدم، وكانت له جمال

---

(1) تضوع المسك: تحرك فانتشرت رائحته.

(2) القصواء: التى قطع طرف أذنها قليلاً.

(3) الجدعاء: المقطوعة الأنف.

(4) العضباء: المشقوقة الأذن.

ويبقى نصفها الآخر مناوبة بالقرب من منازل أزواجه ليحلبه الخدم، وكانت له جمال عصف[1] برعاية يسار وسبع عنزات برعاية أم أيمن.

وعلم محمد أهمية الفروسية، فحث القرآن بعد غزوة أحد على تنظيم أمرها، فأعدت مرابط للخيل، وكان النبي ينظم أحياناً سباقاً للخيل، وكان يفضل النضال على ناقته العضباء التي لا تسبق تقريباً، فجاء عربي على قعود[2] فسبقها مع ذلك، فشق ذلك على المسلمين، فقال محمد: "حق على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه".

وعلى ما في محمد من ميل إلى النعيم الحسي لم يكن طماعاً ولا صلفاً ولا شديداً عن حرص أو تعصب، وكان حليماً رقيق القلب رحيماً، متردداً عند عدم الوحي، رؤوفاً بالجميع، بسيط المظهر على الدوام، وما أكثر ما كنس غرفته بيده ورقع ثيابه وخصف[3] نعله وحلب نعاجه بنفسه واستلقى على أرض المسجد ونهض ليفتح الباب لهرة وعالج ديكاً مسناً ومسح عرق فرسه بكمه وتصدق بما يتجمع لديه من النقود، وكان يتجنب كل ما يمكن أن يبدو به ملكاً في هذه الدنيا، وكان ينهى عن تلقيبه بالملك وما إليه، وكان لا يرى له بلاط ولا وزير خلا بضعة مستشارين وبضعة كتاب وخاتماً فضياً منقوشاً عليه: "محمد رسول الله".

وصار محمد، بعد الهجرة، يقضي أكثر أوقاته في المغازي، وأما أوقاته في المدينة فكان يقضيها في صلاة الجماعة والنوافل والوعظ والعمل والعناية بالشؤون المنزلية، ولم يكن محمد عدو للترفيه عن النفس ومشاهدة الألعاب، فقد عرض، ذات يوم، على عائشة أن تذهب إلى المسجد لترى ألعاب حبشيين بالدرق والحراب[4] فبهرتها هذه الألعاب فوقفت وراءه، خدها على خده، وهي تشاهد رشاقتهما في صراعهما المنوع وهو يقول: "دونكم يا بني أرفدة[5]"، وأراد عمر أن يطرد ذينك اللاعبين، فقال النبي له: "دعهم، إن لكل قوم

---

(1) العصف: جمع عصوف أي السريع.

(2) القعود: القلوص من الإبل أي الشابة.

(3) خصف النعل: خرزها بالمخصف.

(4) الدرق: جمع درقة وهي ما يتقي به المجاهد من السلاح، والحراب جمع حربة.

(5) أرفدة: جد الحبشة الأكبر، ودونكم يا بني أرفدة: الزموا هذا اللعب يا بني أرفدة.

http://www.al-maktabeh.com

عيداً، وهذا عيدنا"، وكان محمد يعطى، آنئذ، إشارة الألعاب بنفسه، وسمح النبى لجاريتين من جوارى الأنصار بأن تغنيا فى بيت عائشة بحضرته أغانى تشير إلى بعض حروب العرب فى الجاهلية، وذلك على الرغم من أبى بكر الذى كان يعد ذلك من مزامير الشيطان.

وكان محمد يحب صغار الأولاد كثيراً (وقد يكون سبب ذلك أنه لم يرزق ذكوراً) فيسر حينما يلاعبهم، وكان يدع حفيديه يركبان كتفيه فى أثناء صلاة الجماعة أو يلعبان على منبره فى أثناء الخطبة، وجىء ذات يوم ببنيه لابسة قميصاً أصفر فمدحه محمد فأخذت تلعب بخاتم النبوة فأرادت أمها أن تزجرها فطلب منها أن تدعها، وكان يتسلى بوضع القلائد والأساور على يتيمين ويتمنى أن يكون الحبيب ابن الحبيب أسامة بن زيد قد خلق بنتاً ليزينه بالجواهر من رأسه إلى قدميه ويجعله أجمل من فى المدينة، وكان يعجب من أن الأعراب لا يقبلون صبيانهم، وقد قال: "من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار"، وقدم على النبى بسبيٍ، فإذا امرأة من السبى تبتغى، إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فجعل النبى منها مثلاً بقوله: "الله أرحم بعبادة من هذه بولدها".

وامتدح خادمه أنس صبره وأناته، فذكر أنه لم يؤنبه مرة فى السنوات العشر التى خدمه فيها، وكان محمد يحب العزلة ويخصص من وقته جانباً لها مع أنسه للجميع، لا فرق فى ذلك بين الصاحب والخصم، ومع بعده من فحش الكلام والغضب الرخيص، ونهى القرآن عن دخول بيت النبى بلا إذن وعن إيذائه بالمكث ببيته لغير ضرورة، وأن ينادى من وراء الحجرات بدلاً من انتظاره حتى يخرج ويسأل، وأن يرفع صوت فوق صوته.

لم تخل إقامة محمد بالمدينة من المصاعب بعد أن هاجر إليها مع ما لاقاه من الحماسة فى الأيام الأولى، فقد كان وصوله إليها سبباً لمس بعض المآرب وبلبلة بعض المقاصد، ومن ذلك أن رئيس الخزرج عبد الله بن أبى كان يطمع فى الملك، فلم يكن ليطيق أن يحرمه بمجىء محمد إلى المدينة، فكان يجتمع حوله فريق الساخطين، ويروى أن محمد ركب على حمار ليعود سعد بن عبادة مع بعض أصحابه، فمر بعبد الله ابن أبيّ وحوله رجال من يهود ومشركين، فقال له عبد الله بن أبيّ مدثراً بردائه.

"ابتعد عنا فرائحة حمارك كريهة، وأنت تغطينا بالغبار*".

فقال أحد المسلمين: " إن رائحة حمار رسول الله أطيب من رائحتك*".

فكان تشاتم، وكان تلاكم، وكان تضارب بسعوف النخل وبالأيدى والأرجل، فترجل محمد وفصل بين الفريقين بجهد، ثم تلا القرآن راغباً فى إقناع هؤلاء الناس، فقال عبد الله بن أبيّ:

"يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقاً فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغته[1] به ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه".

فركب النبى حماره ودخل على سعد بن عبادة، فقال سعد بن عبادة: "يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، وإنه ليرى أن قد سلبتهُ ملكاً".

ولما كانت غزوة بدر ونال محمد فيها نصراً مؤزراً أسلم كثير من مشركى المدينة عن إيمان أو عن غير إيمان، ورأى عبد الله بن أبى أن يبايع النبى.

وما كان عبد الله بن أبى صادق الإيمان، فكان رأس المعارضة، ولم يأل جهداً فى إثارة المشكلات فى سبيل محمد، فدعا محمد عبد الله بن أبى وأتباعه بالمنافقين مع مداراة محمد له كثيراً.

وليس من السهل أن يحافظ محمد على سلطانه على قوم، كالعرب، مشاغبين مع ما تم له من النفوذ، أجل، إن من القليل أن تجد رجالاً أطيعوا بحماسة كالتى أطيع بها، ولكن العرب فوضويون شبوا على عدم النظام، فكان جمع محمد لهم تحت راية الإسلام معجزة حقاً.

ولم يكن الأنصار، فضلاً عن المنافقين، على وفاق دائم مع المهاجرين، وكان هذان الفريقان يشعران باختلافهما عن الأعراب الذين هم أصعب منهما مراساً، وكان العجب

---

[1] غته: غمه وخنقه.

والاندفاع والنزق أظهر ما فى الجميع، فستكون الأحكام وتقسيم الغنائم سبب نزاع دائم بينهم، فيعالج محمد الأمور بالدعوة إلى كتاب الله وبما يبديه من الحنكة وحسن السياسة، وبما يُرى فى زهده من القدوة.

ومما آلم محمداً، ذات يوم، أن سمع المسلمون صوت قافلة وصلت إلى المدينة وهو يعظهم فانقضوا عليها وتركوه قائماً.

وكان محمد حريصاً على استمالة الأعراب راغباً فى استقرار من يجئ منهم إلى المدينة، لما يراه من كمال بيعتهم بإقامتهم بها، ولما يراه فى عودتهم إلى البادية، بعد أن يسلموا، من معنى الردة، ثم سار الخلفاء الأولون على سنته فى مناهضة حياة البادية، وإن كان الأعراب يعدون استقرارهم بالمدينة انتحاراً، وكان النبى يخاف التبدى[1] على أمته فى المستقبل، فكان من الظلم العظيم اتهام الإسلام بأنه يحث على عيش الصحراء وكان النبى يبين فضائل الإقامة بالمدينة الوخيمة الهواء والتى ينتفخ فيها البطن ويهزل فيها البدن بعد أن يمكث الإنسان بها قليل زمن والتى عانى المهاجرون فيها حمى شديدة، وكان محمد يصبر على ما فى الأعراب من قلة حشمة، فقد بال أحدهم، ذات مرة، فى المسجد فتناوله[2] الناس فقال لهم محمد: "دعوه وهريقوا[3] على بوله سجلاً[4] من ماء أو ذنوباً[5] من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"، وجبذه[6] أعرابى آخر، ذات يوم، بردائه فحمر رقبته قائلاً: "أحمل له على بعيري هذين فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك"، فقال النبى مبتسماً: "لا واستغفر الله..."، ثم دعا رجلاً فقال له: "احمل له على بعيرية هذين: على بعيرٍ شعيراً وعلى الآخر تمراً"، وكان محمد شديداً على الأعراب لعدم إيمانهم، وعاب القرآن عليهم كفرهم ونفاقهم، وعاب النبى عليهم تفاخرهم وباطل انتسابهم، وهم الرحل الذين

---

(1) تبدى: أقام بالبادية.

(2) تناوله الناس: صاحوا به.

(3) هريقوا: صبوا.

(4) السجل: الدلو العظيمة.

(5) الذنوب: الدلو لها ذنب.

(6) جبذه: جذبه

يعيشون في خيام من وبر، وقاسى محمد كثيراً من إدخال إسلامه ونظامه إلى قلوبهم، ومما كان يحدث أن يقول الأعرابى: "هذا دين طيب!" إذا دخل المدينة ووضعت زوجته وفرسه، وأن يقول: "هذا دين خبيث!" إذا دخلها وظلت زوجته وفرسه عقيمتين.

وليس الأعرابي، ذو الأثر والراغب فى قطع السابلة قائلاً فاراً من القتل ما استطاع والتواق إلى امتداح كرمه وبأسه، أكثر تأثراً بالشعر "التوحيدي" الصحراوى من تأثر الريفى بجمال الطبيعة، فكان للدعوة المحمدية من الأثر فى الحضريين المهذبين الذين استعدوا لاعتناق الإسلام بما اتفق لهم من معاشرة زراع اليهود وتجار النصارى ما لا تجده فى الأعراب.

الفصل الثالث عشر

غزوة بدر

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

(البقرة:١٦٩)

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(لأنفال:٦٧)

" الشهيد من يُقتل في سبيل غير سبيل المال*". (محمد)

http://www.al-maktabeh.com

قال النبى : "الجنة تحت ظلال السيوف"، وقال القديس بولس: "آخر عدو يبطل هو الموت"، وسمع جوزيف دوميستر صوت الأرض المتعطشة إلى الدماء ونحيب[1] العالم الذى غيره الفدى وهو "الهيكل العظيم الذى لابد من أن يذبح فيه كل حيٍ إلى أن يهلك كل شيء ويفنى الموت"، وتعظم الأديان بدماء الشهداء.

بذرت فكرة الجهاد فى القرآن وفى ذهن محمد منذ بيعة العقبة الثانية، ورأى محمد أن هنالك أموراً يجب الجهاد فى سبيلها والموت من أجلها أحياناً، فالعنف، فى هذا العالم الذى اختل منذ الخطيئة الأصلية، ليس من السوء ما لم يكن مؤيداً ظلماً أو شافياً حقداً، وليس مما يستطيعه الإنسان أن يظل مكتوف اليدين إذا ما فازا الشر، ولا تناقض بحكم الضرورة بين أن يدير المرء خده الأيمن إذا ضرب على خده الأيسر وأن ينجد ولداً لإنقاذه من القتل.

كابد المسلمون ضروب الأذى والعذاب عشر سنين من غير أن يدافعوا عن أنفسهم، وكان القرآن يأمرهم بأن يصبروا على ما يصيبهم، ثم أخرجوا من ديارهم وجعل جعل[2] لمن يأتى بنبيهم حياً أو ميتاً، واليوم بدت الحرب الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الإسلام وظهر أنها مسألة حياة وموت، ولاح أن القرشيين إذا ما هاجما المدينة وتم لهم النصر كان ذلك قضاء على المسلمين، فوجب على المسلمين أن يقتلوا ويقتلوا وأن يحاربوا أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق لأنهم قالوا ربنا الله ما دامت حرية الضمير لا تتم بغير حرب، وما دامت الشهادة فى الموت فى سبيل الله، وستتحزب قريش وقبائل جزيرة العرب ويهود المدينة على الإسلام، فيضعف أمل الإسلام فى النصر.

ويكون القرآن نشيد حرب محرضاً المؤمنين على القتال جامعاً لشؤونه، محركاً لفاترى الهمم، فاضحاً للمخلفين مخزياً للمنافقين، وأعداً الشهداء بجنات عدن.

---

(1) النحيب : أشد البكاء

(2) الجعل: الأجر الذى يأخذه الإنسان على فعل الشيء.

وفى الحديث: "رباط فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه".

وفى القرآن" ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ .

وفى القرآن تأس[1] بروم هرقل الذين غلبوا الفرس بعد أن غلبوا فأنقذوا ببيع[2] الشام، فكان لمسلمى الحجاز بذلك الحجة (انظر الآيتين ٤٠ و ٤١من سورة الحج).

وفى الغالب يقابل بين وضع المسلمين الأولين والنصارى الأولين، أجل، إن فى دعاء الشهيد النصرانى الأول القديس إتيان لجلاديه من يثير العجب أكثر مما يثيره الشهيد المسلم الأول خبيب بن عدى الذى دعا على قاتليه بقوله: "اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً[3]، ولا تغادر منهم أحداً"، ولكن كلا الرجلين ماتا فى سبيل إيمانهما راجيين نيل الشهادة، وهذا مع النظر إلى اختلاف الأحوال فى الأمرين، لا فى المبدأ ، فأما فى الدولة الرومانية الكثيرة التمدن فقد كان قدماء النصارى العزل من السلاح من أبناء بلاد ذات حكومة منظمة، وإن شئت فقل كانوا من رعايا قيصر الذى أمر عيسى بأن يعطى له ما له فكان يحكم عليهم كما حكم على سقراط، وأما فى جزيرة العرب، حيث أمور الناس فوضى وحيث أهلها مفرقون إلى قبائل وعشائر محارب بعضها لبعض على الدوام وحيث لا يخرج الإنسان من منزله إلا حاملاً سيفه أو حربته، فكان المسلمون يدعون[4] إلى الحرب دعاً، فإذا ما حاربوا فلحقهم فى الدفاع المشروع عن أنفسهم[5].

وكان محمد يقول للمسلمين: "كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط

---

(1) تأسى: تعزى وتصبر.

(2) بيع: جمع بيعة وهى متعبد النصارى.

(3) بددا: متفرقين

(4) دعه: دفعه دفعاً شديداً.

(5) قال مسيو مارتن فى الصفحة ٣٠٠ من كتابه "شرف الروحانى" : "لم يفكر النصارى الأولون فى قلب الدولة التى كانت تضطهدهم لما كانوا عليه من العجز عن إقامة دولة نصرانية، فكانوا لا ينظرون إلا إلى ملكوت السماوات .. ومـــا كانوا، عند العصيان، ليقدروا على شيء غير تعريض حياة الوطن للخطر.. فلم يبق لهم سوى الشهادة التى لم تكن أسوأ حل".

الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون".

لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف، ففى القرآن: ﴿لا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى﴾ والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال وبألا يبدأوا بالاعتداء، وما تجده فى القرآن من الآيات المتتابعة أو المبثوثة أو المبعثرة فى سوره حول الجهاد، فيشير على حوادث ذلك الزمن الراهنة وإلى ما يجب على محمد أن يسلكه هو وأصحابه فى المغازى تبعاً لتبدل الأحوال، ولذلك نرى مْن اللغو جعل تلك الآيات شاملة لأحوال أخرى واستخراج مبدأ عام منها، وذلك إلى ما كان يقع من اختلاط المصالح المادية بأمور الإيمان وطفو تلك على هذه عند العمل فى الغالب وتحويل الجهاد من وسيلة إلى غاية والتضحية بالروح من أجل الزمنى على وجه واضح فى بعض الأحيان.

كان بعض المسلمين، منذ زمن محمد، لا يرون فى الجهاد غير وسيلة لأخذ المغانم، فإذا لقوا، فى طريقهم إلى غزوة، رجالاً قتلوهم من غير أن يتثبتوا عادين إياهم من المشركين تسويغاً لما صنع بهم، فجاء القرآن ينهى عن ذلك، وإذا كان محمد يفرط فى القسوة عند اشتباك الفريقين ويقابل العدوان بالعدوان والمكر بالمكر فإنه قلما يقسو فى حالة دعته، بل كان يبدو معتدلاً إلى الغاية كما يشهد بذلك أمره حين فتح مكة، فقد أبدي فى أثناء هذا الفتح من الكرم وعظمة النفس مالا تجد مثله فى التاريخ إلا نادراً، وكان محمد يوصى جنوده بأن يرحموا الضعفاء والشيوخ والنساء والأولاد، وكان ينهى عن هدم البيوت وإهلاك الحرث وقطع الشجر المثمر، ويأمر بالا يسل مسلم حسامه إلا عند أقصى الضرورة، وسنرى أنه أنحى باللائمة على بعض رجاله فعوض بالمال مما اقترفوه، وهو الذى رأى أن النفس الواحدة خيرمن كل الغنائم.

وأخذ الغنائم نتيجة كل حرب، وهو، مع التجارة وتربية المواشى، مهنة العرب القومية، وأباح محمد أخذ المغانم لأصحابه لما فيهم من ضعف، ولكنه نظم شؤونها بدقة، فجعل الكثير منها لبيت المال وتجهيز الجيش، وحظر محمد فصل الأولاد عن أمهاتهم عند تقسيم

http://www.al-maktabeh.com

الأسارى، ومحمد ، على ما لم يقدر عليه من تغيير سجايا قومه تغييراً أساسياً، استطاع أن يقومهم من عدة نواحٍ، وهو النبى الأمى، فى زمانه وبين قومه، الذى كان يعلم أن رحمة الله وسعت كل شيء وهو النبى الذى كان يمنع نفسه من الانتقام لأن العفو أقرب للتقوى، وهو النبى الذى كان يأسف على عدم بلوغ الكمال فى كل أمر على ما يحتمل.

اغتنى كثير من أتباع محمد فى دور الفتوح، فجمع أكابر صحابته ثرواتٍ عظيمة باستيلائهم على كنوز كسرى وكنائس مصر، ولبس أعراب أساور بنى ساسان، وبلغت تركة الزبير خمسين مليوناً، وأبصر محمد المستقبل فقال يوماً: "إن فتنة أمتى المال".

بيد أن مصعب بن عمير كان من الفقر، حينما قتل فى غزوة أحد، ما كفن معه بتغطيه رأسه بنمرة[1] قصيرة وجعل الإذخر[2] على رجليه، ثم فكر عبد الرحمن بن عوف، ذات يوم، فى أمر هذا الشهيد الذى رغب عن كل شيء فى سبيل الله وترك ما يملكه فى مكة فقال: "قتل مصعب بن عمير وهو خير منى فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه وإن غطيت رجلاه بدا رأسه، وقد بسط لنا من الدنيا ما بسط وأعطينا من الدنيا ما أعطينا، وخشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا فى الحياة الدنيا"، ثم جعل المجاهد القديم عبد الرحمن بن عوف يبكى.

بلغ عدد مغازى محمد أربعين فى عشر سنين، واشترك هذا الرجل (الذى نعته بعضهم بالماكر الماهر ورآه آخرون مصاباً بالصرع) فى نحو ثلاثين غزوة وأدار نحو عشر معارك بشخصه فضلاً عن المفاوضات الصعبة التى قام بها، وليس بمجهول ما يجب أن يتحلى به السيد العربى فى الغزوات بجزيرة العرب من تحمل المشاق والصبر على المكاره وخلق الثبات والأناة وحسن السياسة والنشاط والمرونة، وهذا إلى ما يحيق بسلطانه من المخاطر وإلى اعتماده على مؤازرة جمهور متقلب، ففى هذا المضمار الصعب المضنى برع محمد.

---

(1) نمرة: بردة من صوف تلبسها الأعراب.

(2) الإذخر: نبات طيب الرائحة.

بدأ محمد يتأهب للحرب منذ استقراره بالمدينة، ولم تلبث الأحوال أن جعلت له جيشاً يتصرف فيه، وبيان الأمر، أن المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وصودرت أموالهم وبيعت بيوتهم بإغراء من أبى سفيان رأو مقابلة العدوان بالمثل وأن الأنصار اقسموا على اتباع النبى فى القتال، وأن المدينة كادت لا تفى بطعام المهاجرين، فأوقد محمد بعد وصوله إلى المدينة السرايا فأرسل عمه حمزة إلى الشاطئ على رأس ثلاثين من المهاجرين، وأرسل عبيده بن الحارث على رأس ستين من المهاجرين إلى ناحية أخرى لمراقبة مرور قوافل قريش، فصادف حمزة فرساناً قرشيين أكثر عدداً فاستعد للهجوم عليهم فتدخل شيخ ذلك المكان فى الأمر فحال دون اقتتال الفريقين، وصادف عبيده بن الحارث أيضاً جماعة من القرشيين أكثر عدداً فهجم عليهم بشجاعة حتى ظنوا أنه مؤيد من آخرين فخافوا أن يقعوا فى شرك فولوا الأدبار، واستفاد فى تلك الأثناء رجلان كانا يكتمان إسلامهما من هذه الفرصة ففرا من جماعتهما وانضما إلى فرسان حمزة، ولم يكن هنالك اشتباك، ولم يحدث غير طعن سعد بن أبى وقاص لأحد المشركين بسهم واحد فكان أول سهم رمى به فى الإسلام.

ولم يعتم محمد أن خرج على رأس مئتى رجل إلى بواط يريد أن يعترض لعير قريش، ففاتته العير، ورجع بعد انتظار شهر، ولم يلق حرباً، ثم كان شهر سبتمبر فخرج محمد إلى العشيرة ليعترض لقافلة قريش الشتوية الكبرى الذاهبة إلى الشام وكان ما تشتمل عليه هذه القافلة من الأموال عظيماً، وكانت هذه القافلة من أهم ما أوفدته قريش حتى ذلك الحين منذ زمن طويل، وإن كان عدد جمالها ألفاً وعدد حرسها ٤٠ – ٥٠ رجلاً مسلحاً، فكان المال المخصص لتجارة هذه القافلة خمسين ألف دينار من ذهب، أى ما يعدل مليون فرنك ولم يكن فى مكة شخص إلا كانت له خصة فى هذا المال، غنياً كان ذلك الشخص أو فقيراً، وكان لبنى أمية وحدهم من هذا المال أربعون ألف دينار، وكان مما لبنى أمية ثلاثون ألف دينار لمحل أبى أحيحة الذى آزر القافلة مؤازرة مالية بما أضافة من مال شركائه المضاربين الاحتياطى الذين طمعوا فى ربح يبلغ خمسين فى المئة على الأقل، وكان أبو سفيان على

رأس هذه القافلة وعلى رأس الدليل العارف بالمراحل والخفير الذى يستأجر الآبار والأراضى ذات الكلأ من القبائل.

ولم يصب النبى فى هذه المرة، كما فى المرة السابقة، ما خرج من أجله، فقد فاتته العير، فرجع إلى المدينة بعد انتظار شهرٍ من غير أن يظفر بسوى موادعة إحدى القبائل المجاورة.

ولم تصبر قريش على ذلك، فقد أغار نفر من قريش على سرح[1] المدينة فخرج النبى فى طلبهم حتى بلغ بدراً ففاته أولئك النفر ولم يدركهم.

ولم كان فصل الخريف بعث النبى عبد الله بن جحش الأسدى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين لينزل بنخلة بين مكة والطائف ويترصد بها قريشاً، وكان الأمر صعباً، وكان مسطوراً فى كتاب أمر النبى ألا ينظر فيه إلا فى الطريق، فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب جمع أصحابه وخيرهم بين أن ينطلقوا معه وأن يتركوه، فمضى ومضى معه أصحابه حتى نزل بنخلة فداروا حولها بحذرٍ وكمنوا فى غابة فوق الوادى.

كان الناس فى شهر رجب الذى لا قتال فيه لأنه من الأشهر الحرم، وكان أهل الطائف يقطفون ثمار حدائقهم ويجففون أعنابهم التى تخرجها جبالهم المنبتة، فأخذ عبد الله بن جحش وأصحابه يرقبون الطريق من الغابة حيارى لا يعرفون ماذا يصنعون، وإنهم لكذلك إذ مرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً بقيادة عمرو بن الحضرمى، فقالوا: إليكم المشركين!.. وما العمل؟ .. استحوذت عليهم روح الغزو الموروثة، وثارت فيهم عوامل الحقد على هؤلاء المشركين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم، وما كان عبد الله وأصحابه ليردوا جماح أنفسهم فخرجوا من مسكنهم، وانقضوا من شعاب الجبل ووثبوا من فوق الصخور على العير فقتلوا أحد رجالها وأسروا اثنين منهم فهرب الباقون تاركين العير فقسمها عبد الله بن جحش وأصحابه بينهم جاعلين الخمس للنبى، ثم أسرعوا فى الرجوع إلى المدينة بما أسروه وغنموه، فبلغوها من غير أن يلاقوا فى الطريق ما يزعجهم.

---

[1] السرح: المال السائم.

كان لانتهاك رجب الحرام وقع أليم فى النفوس، فغضبت تهامة وسخطت المدينة وعنف محمد عبد الله بن جحش وأصحابه، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً فسقط فى أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا، فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل على النبى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

ثم كان شهر ديسمبر، فعلم المسلمون أن قافلة أبى سفيان الكبيرة عائدة من الشام مشتملة على ثمين السلع، وقافلة أبى سفيان هذه هى التى رصدت فى العُشَيرة على غير جدوى فى أثناء ذهابها فى شهر سبتمبر، فخرج محمد فوراً هو ومن استطاع جمعه من الرجال، فكان عددهم نحن سبعين مهاجراً و ٢٤٠ من الأنصارر، فتوجهوا إلى بدر التى هى وادٍ تلتقى فيه طريق المدينة بطريق القوافل بين الشام ومكة، وفى بدرٍ آبار كثيرة وفى بدر سهل يحده من الشمال والشرق والجنوب تلال وعرة ومن الغرب كثبان متنقلة، وفى بدر جدول يسقى من مائة بعض النبات، وفى بدر حديقة نخيل، وفى بدر سوق تجارية تجتمع فيها قبائل الحجاز كل عام.

ولم يكن لدى المسلمين عند خروجهم سوى سبعين بعيراً يتعاقب النفر البعير، وكان لديهم من الخيل فرسان لا ينفعان فى غير وقت الطعان، وكان أمام النبى رايتان سوداوان، إحداهما مع على بن أبى طالب يقال لها العقاب والأخرى مع بعض الأنصار، فلقوا فى طريقهم أعرابياً فسألوا عن قريش فلم يجدوا عنده خبراً، فقيل له : "سلم على رسول الله".

فقال: "أو فيكم رسول الله".

فقال: "نعم".

فقال: "إن كنت رسول الله فأخبرنى عما فى بطن ناقتى هذه!".

لم يجبه محمد، وإنما قال له سلمه بن سلامة مازحاً: "لا تسأل رسول الله وأقبل على فأنا أخبرك عن ذلك، نزوت[1] عليها، ففى بطنها منك سخلة".

فقال النبى: "مه ! أفحشت على الرجل!".

بلغ المسلمون منتصف طريق بدر، فعلموا أن قريشاً أدركوا ما يحيق بعيرهم من الخطر وأنهم أوفدوا جيشاً كبيراً لنجدتها، فاستشار النبى أصحابه، فرأى بعضهم أن يسيروا إلى قريش ورأى آخرون أن يسيروا إلى العير، وكان النبى من أصحاب الرأى الأول فكان ما أراد، فسار المسلمون إلى بدر فبلغوها قبل قريش، فكان لهم بذلك أصلح مكان للقتال.

شعرت قريش بالخطر، فقد بعث أبو سفيان رسولاً إلى مكة وأعطاه عشرين ديناراً أجرة، وكانت عمة النبى عاتكة بنت عبد المطلب، المتزوجة فى مكة، قد رأت قبل قدوم هذا الرسول مكة بثلاث ليل فى منامها راكباً مثل به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ: "ألا انفروا يا آل غدر[2] لمصارعكم فى ثلاث"، ففشا الحديث بمكة، فقال أبو جهل لأخى عاتكة العباس:

"يا بنى عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبيه؟ أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال انفروا فى ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت فى العرب".

كان اليوم الثالث فوصل رسول أبى سفيان أغبر إلى مكة فصار يصرخ، كعادة ذلك الزمن، ببطن الوادى واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره[3]، وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: "يا معشر قريش، اللطيمة[4]! اللطيمة! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها! الغوث! الغوث!".

---

(1) نزوت: وثبت.

(2) الغدر: الغادر.

(3) جدعه: قطع أنفه.

(4) اللطيمة: العير التى تحمل الطيب وبز التجار.

أطال رسول أبى سفيان استصراخه، ذاكراً أن جنود محمد أخذوا يهددون قافلة أبى سفيان وأنه يصعب إنقاذها، فقال الناس:

"أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك".

رأى فريق من قريش أن يستعان بالقبائل المجاورة وأن تسلح الموالى وأن يؤتى بالأحابيش، ورأى فريق آخر أن الوقت ضاق وأن النجاح فى السرعة، فرجح رأى هذا الفريق فلم تستصرخ الأحابيش المرتزقة السود السرقة المقيمون بضواحى مكة.

تسلح الناس على عجل، عادلين عن مصارفهم وحوانيتهم إلى السروج، وعن القلم ودفاتر الحساب إلى السهام والسيوف، وكانت قريش بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وتخلف أبو لهب باعثاً مكانه العاص بن هشام المدين له بأربعة آلاف درهم.

جمعت قريش ١٠٠٠ مقاتل و ٧٠٠ بعير و٢٠٠ فرس وبضعة زنوج حاملين حراباً قصيرة لمهارتهم فى رمايتها، ثم اطمأنت قريش إلى تفوقهم على العدو فى العَدد والعُدد فتوجهوا إلى بدر.

حل جيش المسلمين بوادى بدر على العدوتين الشمالية والشرقية المقابلتين لمكة، وكان الراكبون من المسلمين يحملون حراباً وسيوفاً، وكان المشاة منهم يحملون أقواساً وسهاماً، وكانوا فى وضع غير سيئ، فقد أصلحوه بحفر حوض يجلب به الماء أمام الكتائب من الينابيع المجاورة، ورأى سعد بن معاذ الذى أهمته سلامة النبى أن يبنى له عريش فى المؤخرة على ربوة[1] فعمل برأيه.

نام المسلمون فى مواضعهم، وكانوا فى حال حسنة عند الفجر حينما وصلت قريش، والعقنقل[2] يحجبهم، إلى الوادى، ثم أمطرت السماء ولبد الماء الأرض.

---

(1) الربوة: ما ارتفع من الأرض.

(2) العقنقل: الكثيب.

http://www.al-maktabeh.com

وكان المسلمون قد أرسلوا من يتلمسون الأخبار حول ماء بدر، حيث كان عرب تلك النواحى ورجال القوافل يأتون ليسقوا دوابهم، فعادوا ومعهم غلامان فعلموا منهما، بعد ضربهما قليلاً، أن القرشيين وراء الكثيب وأنهم ينحرون كل يوم نحو عشرة جمال.

فقال محمد: "القوم ما بين التسعمئة إلى الألف".

ثم قال لهما: "فمن فيهم من أشراف قريش؟"

فقالا: "عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم ابن حزام ونوفل بن خويلد و الحارث بن عامر وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود".

فقد: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها".

وكان فتيان من المسلمين قد نزلا بدراً ليتنطسا[1] الأخبار، فأخذا وعاء لهما يستقيان منه فسمعا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها:

"إنما تأتى العير غداً أو بعد غدٍ فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك".

فعاد ذانك الفتيان إلى محمد وأخبره بما سمعا، ولكن أبا سفيان أرسل من يتلمس له الأخبار أيضاً، فأتى مناخهما فوجد فى أبعار بعيرهما نوى عرفه من علائف المدينة، فاستنبط من ذلك وجود جيش من المسلمين فعدل عن الطريق إلى الغرب سائلاً على الساحل ذى الكثبان.

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: "إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجت فارجعوا".

---

[1] تنطس الأخبار: تجسسها.

فقال أبو جهل: "والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنعم عليه ثلاث، فننحر الجزور[1]، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان[2]، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا".

دارت الحمية فى رأس أبى جهل المربوع الأشقر فصار يهز سيفه ويرتجز ويرى أن سن السبعين لا تمنعه من الاشتراك فى القتال وأن أمه ولدته للحرب.

أقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوض ليشربوا منه، فانقض المسلمون عليهم، فاستطاع واحد منهم أن يفر، ثم بعثت قريش عمير بن وهب ليأتيهم بالأخبار فعلموا منه أن المسلمين فى وضع حسن وأنهم تواقون على القتال، فخشى بعض قريش مغبة النزال، فقال عتبة بن ربيعة:

"إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم[3] ولم تعرضوا منه ما تريدون".

لم يرق هذا القول الرزين أبا جهل الذى كان قد نثل[4] درعاً له من جرابها وكان يعدها للقتال فقال:

"انتفخ والله سحره[5] حين رأى محمداً وأصحابه، كلاً، واللهِ لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه وقد تخوفكم عليه".

---

(1) الجزور: ما يذبح من النوق أو الغنم.

(2) القيان: جمع قينة وهى الأمة أو المغنية.

(3) ألفاكم: وجدكم.

(4) نثلها: نزعها.

(5) السحر: الرئة.

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمى الذى قتل أخوه فى نخله فى الشهر الحرام، فمزق عامر ثيابه وهز رمحه وبدا عارياً داعياً إلى الانتقام بمؤثر الكلام، فصار عتبة بن ربيعة لا يصغى إليه أحد، وأخذت قريش تزحف من خلف العقنقل[1] فبدوا للمسلمين الذين أرادوا أن ينالوا نصراً رخيصاً رابحاً فخرجوا ليدهموا عيراً قليلة الحرس فأصبحوا الآن أمام عدوو يفوقهم عدداً وعدداً، فوجفت[2] قلوب كثيرين منهم فنفخ النبى فى نفوسهم العزم وثبت أقدامهم مبلغاً وعد الله بالنصر، وهذا إلى أن كل تفكير من المسلمين فى الرجوع أصبح بعد الأوان.

وليست الحروب فى بلاد العرب دامية على العموم، وتكون فى الغالب، مبارزة أو وغياً[3] أو ارتداداً خفياً أو فراراً حقيقياً مما يكون ضوضاؤه أكثر من إثخانه. والمحارب العربى، وهو جماع للشجاعة الصادقة وغاية الحذر، إذا ما أستمات فلكى ينال الغنم الكبير بالجهاد القليل، والمحارب العربى، والحرب خدعة عنده، يفضل النهب على الحرب، والفارس البدوى، كفرسان كريسى فيما مضى، لا يطيق أساليب الحرب العصرية، فلذلك عد من المعجزات اتخاذ محمد فناً جديداً للحرب من بعض الوجوه.

بدأت الحرب فى بدر بغريب المبارزات وكبير الكلام.

ثم خرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد من صفوف قريش لابسين لأما[4] وخوذاً، داعين أشجع الأعداء إلى المبارزة، فانبرى لهم فتية من الأنصار فرفضوهم قائلين:

"مالنا بكم حاجة، يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا".

فدنا منهم حمزة شاكلاً ريشة نعامة على صدرة وعلى لابساً درعاً مضاعفة وعبيدة بن الحارث ذاكرين أسماءهم بصوت عال جداً، فانقض الرجال الستة بعضهم على بعض فقتل حمزة وعلى شيبة والوليد واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر

---

(1) العقنقل: الكثيب

(2) وجف: خاف.

(3) الوغى: الصوت والجلبة.

(4) اللأم: جمع لأمة وهى الدرع.

حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فدففاه[1] وحملا عبيدة فحازاه إلى أصحابه مقطوع الرجل فمات بعد زمن قليل، وبهذا تكون مكة قد خسرت ثلاثة صناديد.

ثم خرج آخرون للمبارزة، وكان القرشيون لا يزالون متفقين، ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض بأمر محمدٍ فصار المسلمون يرمون بالنبل كل من يدنو ليشرب من الحوض، ثم كان وقت الظهر، وكانت الشمس تلقى الملايين من سهامها المحرقة، ورجع النبى ومعه أبو بكر إلى العريش، ووقف أمامه سعد بن معاذ شاهراً سيفه مع نفر من الأنصار، ثم حمى الوطيس فى الوادى وصار الوغى يخرج من دجى النقع والرائحة تنبعث من الدماء ويخفق[2] النبى خفقة، ويراه أبو بكر مستلقياً على الأرض مشدوداً كالمصاب بالثبات[3] متصبباً عرقاً وينتبه النبى فيقول:

"أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذاً بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع[4]"

ثم خرج النبى من العريش فركب، على الرغم من أبى بكر وسعد بن معاذ وحرض المسلمين على القتال قائلاً:

"والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة".

فقال عمير بن الحمام، وفى يده ثمرات يأكلهن: "بخ بخ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء؟"، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل.

وقال عوف بن الحارث الأنصارى، وهو أحد الأنصار الثلاثة الذين خرجوا لمبارزة أبناء ربيعة فى بدء الأمر: "يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟"

فقال النبى: "غمسة يده فى العدو حاسراً".

---

(1) دففاه: أجهزا عليه وأتما قتله.

(2) خفق خفقة: نام نوماً يسيراً.

(3) الثبات: داء معجز عن الحركة.

(4) النقع: الغبار.

http://www.al-maktabeh.com

فنزع عوف بن الحارس درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

ثم ترجل محمد، ومعه حرسه، والتقى الناس وكان وقت العصر، وسمع صوت أبى جهل من بين الوغى وصليل السيوف يقول: "اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه[1] الغداة".

وصل محمد إلى المطمئن من الأرض، فترجل بعد أن ساخت سوق فرسه فى الرمل، فأخذ حفنة من الرمل، ثم استقبل بها قريشاً وقال:

"شاهت[2] الوجوه!"

ثم نفحهم بها وقال: "شدوا فالجنة تحت ظلال السيوف"!

ثم دخل النبى العريش على حين كان المسلمون يثبون على قريش وهم يقولون صيحة الحرب:

"أحد ! أحد!!"

دنت ساعة الفصل، واقترب وقت البت فى مصير الإسلام، وأخذ ميزان القدر يميل فى هذا الحين، فقد جاء دور الأجسام اللطيفة، جاء دور القوى الأثيرية التى يرتبط الإنسان بها فى سلاسل من الألماس الخفي، وبيان الأمر: أن القرشيين خسروا أهم سيوفهم وأصبحوا فى وضع سيئ وكادوا يهلكون من العطش مع زيادة عددهم،وأن الملائكة انقضوا عليهم بسرعة البرق من السماء وأن لمعان النصال وقت القراع هو من دروعهم الساطعة، وأن الجلبة من اصطفاق خيولهم المجنحة.

وصوت أبواقهم، وأن النور الذى يتنوره الجرحى المحتضرون هو من عمائمهم الصفر وثيابهم الطويلة البيض الخافقة كالأعلام.

---

(1) أحنه: أهلكه.

(2) شاهت: قبحت.

قتل على سبعة من المشركين بالتتابع، وطلب عبيدة أن يبارزه الزبير، وكانت عينا عبيدة ظاهرتين من خلال درعه فأدخل الزبير حربته فى إحداهما حتى تعوجت.

وكان أبو جهل لا يزال يحارب، فعرفه عبد الرحمن بن عوف، وكان بالقرب منه فتيان من الأنصار قد حلفا على قتل سباب النبى أبى جهل أو يقتلا، فقال لهما عبد الرحمن بن عوف مشيراً إليه:

"ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه".

فهجما عليه فضربه أحدهما معاذ بن عمرو بن الجموح بسيفه، فضرب عكرمة ابن أبى جهل معاذاً هذا على عاتقه فطرح يده، فتعلقت بجلدة من جنبه، وأجهضه[1] القتال عنه، فلقد قاتل عامة يومه، وإنه ليسحبها خلفه، فلما آذته وضع عليها قدمه ثم تمطى بها عليها حتى طرحها.

شعر القرشيون بأنهم غلبوا وأخذوا يفرون، فكانت الهزيمة، فرموا تروسهم وأسلحتهم ودروعهم ليتمكنوا من الهرب بسرعة وليحولوا بذلك دون مطاردة المسلمين لهم، وذلك لما لهذه العدد من القيمة الكبيرة فى بلاد العرب ولما يهم الغالبين من أمر جمعها.

مر عبد الله بن مسعود بأبى جهل فوجده بآخر رمق فوضع رجله على صدره ليجهز عليه، فسأله أبو جهل:

"لمن الدائرة اليوم؟".

فقال به عبد الله بن مسعود: "لله ورسوله".

نهض أبو جهل قليلاً وألقى على ابن مسعود نظرة هائلة باسرة[2] دالة على معانى الغم والغضب والأنفة، وأمسك لحيته وقال له:

---

(1) أجهضه: غلبه واشتد عليه.

(2) باسرة : متكرهة متقطبة.

"لقد ارتقيت يا رويعى الغنم مر تقى صعباً.. أأعمد من رجل قتلتموه؟" ثم احتز ابن مسعود رأس أبى جهل وجاء النبى به، فسجد النبى الله شكراً وقال:

"الحمد لله الذى أخزاك يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة!"

وأسر أنصارى قصير القامة عم النبى العباس الذى كان يحارب المسلمين فى صفوف قريش، وكان محمد قد نهى أصحابه عن قتل من يلاقونه من بنى هاشم وعن قتل أبى البخترى بن هشام الذى كان قد ساعد على عدم دوام قريش على مقاطعة النبى وآله وأصحابه، فلم يخل هذا النهى من اعتراض بعض المسلمين.

أنقذ العباس، وأما أبو البخترى فكان أقل من العباس حظاً، فقد لقيه نفر من الأنصار ومعه زميل له فقيل له:

"إن رسول الله قد نهانا عن قتلك".

فقال أبو البخترى: "وزميلى؟".

فقيل له : "لا والله ما نحن بتاركى زميلك، ما أمرنا الرسول إلا بك وحدك".

فقال أبو البخترى: "لا والله، إذن، لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصاً على الحياة".

قتل أبو البخترى بعد زميله، وارتجز وهو ينازل:

لن يُسْلم ابن حرةزميله حتى يموت أو يرى سبيله

فارتجل قاتله مجذر بن ذياد الأنصارى أبياتاً نذكر منها:

أنا الذى يقال أصلى من بلى أطعن بالصعدة حتى تنثنى[1]

وأعبط القرن بعضب مشرفى أرزم للموت كإرزام المرى[1]

---

[1] الصعدة: فى الأصل عصا الرمح، ثم قد تطلق على الرمح نفسه لعلاقة المجاورة.

فلا ترى مجدراً يفرى فرى[٢]

داوم المسلمون على تعقب المنهزمين من قريش دوامهم على جمع الغنائم، ومن هؤلاء عبد الرحمن بن عوف الذى جمع أدراعاً كثيرة ذات قيمة فحملها مثقلاً فلقى أحد أشراف مكة أمية بن خلف جالساً على حجر فى حالة يرثى لها وابنه واقف بجانبه، وكان أمية صديقاً قديماً لعبد الرحمن، فناداه قائلاً:

" هل لك فى؟ فأنا خير لك من هذه الأدراع التى معك".

فطرح عبد الرحمن الأدراع، وأخذ بيد أمية بن خلف ويد ابنه، وإن عبد الرحمن ليقودهما إلى معسكر المسلمين، إذ رأى بلال أمية بن خلف معه، وأمية هذا هو الذى كان يعذب بلالا بمكة على ترك الإسلام، فلما رأى بلال أمية بن خلف أكفهر وقال:

"رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا".

فقال عبد الرحمن: "أى بلال! أبأسيرى؟".

فقال بلال: "لا نجوت إن نجا، هو راس الكفر أمية بن خلف". فعيل صبر عبد الرحمن وقال: "أتسمع يا ابن السوداء؟ هو أسيرى، هو مالى".

فقال بلال: "لا نجوت إن نجا، هو راس الكفر أمية بن خلف".

ثم صرخ بلال بأعلى صوته: "يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا".

فاجتمع نفر من المسلمين وصاروا يرددون قول بلال، فأخلف رجل السيف، فضرب ابن أمية فوقع فصاح أمية صيحة مؤلمة لم يسمع مثلها عبد الرحمن قط كما قال، فقال عبد الرحمن لهذا التعس:

---

(1) أعبط: أقتل، والقرن: الذى يقاومك فى الحرب، والعضب: السيف القاطع، والمشرفى: المنسوب إلى مشارف وهى قرى بالشام، وأرزم: أرغو كما ترغو الناقة، والمرى: الناقة التى يستنزل لبنها على عسر.

(2) يفرى: يأتى بأمر عجيب.

" انج بنفسك ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئاً "

حاول أمية بن خلف الفرار، ولكنه أمسك بضخامة جثته، وقتل مع حجب عبد الرحمن له بجسمه، ثم قال عبد الرحمن متحسراً:

"يرحم الله بلالاً ذهبت أدراعى، وفجعنى بأسيرى".

ونادى أبو بكر ابنه عبد الرحمن، وهو يومئذ يولى الأدبار مع المشركين فقال: "أين مالى يا خبيث؟" فقال عبد الرحمن بوقاحة:

لم يبق غير شكة[1] ويعبوب[2] وصارم يقتل ضلال الشيب

ومن دواعى الأسف أن مست قدسية وقعة بدر الخالدة التى كان سببها خروج المسلمين بقصد الغنم السهل، فسموا حيناً إلى أعلى المقاصد، وذلك بما بدا فيه من عوامل الطمع الدنيوى والتعصب الطارئ ففى بدر قتل أربعة عشر مسلماً وسبعون قرشياً وأسر المسلمون خمسة وسبعين قرشياً، وبدئ بدفن القتلى، فأما قتلى المسلمين فقد دفنوا مع الإكرام، وأما قتلى المشركين فقد طرحوا فى قليب[3] قديم مع الإهانة،و لم يكف عن شتمهم بعد أن جيفوا من غير أن يلقى عليهم التراب.

وطلب عمر إلى النبى أن يرد أصحابه، فلم يجبه إلى طلبه، لما لا يصنعون إليه من شدة الفرح.

ولما كان اليوم الثالث دنا محمد من القليب الكريه وبدأ يخاطب من فيه لأنهم يسمعون ما يقوله لهم مثلما يسمع الأحياء كما قال، فقال لاعناً: "يا أهل القليب! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس".

---

(1) الشكة: السلاح.

(2) اليعبوب: الفرس الكثير الجرى.

(3) القليب: البئر.

مكث المسلمون ثلاثة أيام ببدر ليقضوا فى مسئلة الأسرى ومسئلة الغنائم المهمتين، فرأى عمر أن يقتل الأسرى على بكرة أبيهم، ورأى أبو بكر أن يؤخذ منهم الفداء، فرجح رأى أبى بكر، فأخذ الفداء من عم النبى العباس وابن عمه عقيل بن أبى طالب، وكان العباس عارياً لما قد تحرك ثيابه عوامل الطمع فبحث محمد عن قميص يلائم قامته، فلم يجد له غير قميص عبد الله بن أبى فأعطيه، ومن النبى على ن لم يكونوا ذوى أهل ومال بغير فداء على أن يتعهدوا بألا يحاربوا الإسلام، ومن كان يحسن القراءة والكتابة، ولم يكن له الفداء، دفع إليه غلمان من المدينة، فإذا حذقوا فهو فداءه، وذلك لأن أهل مكة كانوا يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، ومكث الباقون بالمدينة ريثما تصل إليهم الفدى.

وانتقل المسلمون من الحماسة الدينية إلى أمر القسائم الاقتصادية، أى على البحث فى أمر الغنائم، وكانت الغنائم تتألف من مقدار لا يستهان به من الأسلحة والإبل وما سيؤخذ من فدى الأسرى، مع إفلات عير أبى سفيان، فكيف تقسم بين الذين جمعوها بالفعل والذين كانوا يحرسون النبى والذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه؟ احتدم الجدال بين هؤلاء الفرقاء الثلاثة فرأى محمد أن ما غنم هو لله ورسوله، وأن الرسول هو الذى يقسمه كما يرى، فأمر محمد بجمع الغنائم والرحيل، حتى إذا نزل محمد على كثيب بين المضيق والنازية قسم الغنائم بين المسلمين على السواء، فلم يرتح له بعضهم.

ومشكلة الغنائم كانت من الأهمية بمكان، وكان لابد من البث فيها لما لابد من ظهورها بتكرار الغزوات، ومن حسن التوفيق أن أوحى إلى محمد بأن يكون خمس الغنائم لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل (مع أن سادة العرب كانوا يأخذون الربع).

ولما كان النبى بالصفراء قتل على بن أبى طالب النضر بن الحارث بأمر النبى لما اشتهر به من تعذيب المسلمين بمكة ومن الاستهزاء بالقرآن وإنشاد أساطير الفرس التى كان يقول إنها أفضل مما يذيعه محمد من (أساطير الأولين) ثم أمر محمد، بعد قليل سير، بقتل عقبة بن أبى معيط الذى بلغ من إيذاء محمد ما كاد يخنقه معه فى الكعبة ذات يوم، فقال عقبة حينما أمر محمد بقتله:

http://www.al-maktabeh.com

"فمن للصبية يا محمد؟"

فقال محمد: "النار!"

ثم بكت قُتيلة بنت الحارث أخاها النضر فى قصيدة جاء فيها:

أمحمد يا خير ضنء كريمة ... فى قومها والفحل فحل معرق[1]

ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنّ الفتى وهو المغيظ المحنق[2]

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق[3]

صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيد وهو عانٍ موثق[4]

فلما بلغ هذا الشعر محمداً بعد بضعة أسابيع قال أسفاً:

"لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه".

بعث النبى زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل المدينة، فلما أتاهم الخبر كانوا يسوون التراب على زوجة عثمان رقية بنت محمد التى لم يمهلها المرض، ثم سار الموكب أما الغزاة الغالبين وفيه الفتيات اللاتى يضربن بالدف.

كانت غزوة بدر فاتحة انتصارات لم تلبث أن غيرت وجه الدنيا، ومما حدث فى تلك السنة أن تم النصر لنصارى الروم على مشركى الفرس كما أخبر به القرآن فكان ذلك سبباً لمضاعفة فرح المسلمين.

---

(1) الضنء: النسل والولد، ومعرق : الكريم الذى يأتى بنسل كرام.

(2) المحنق: الشديد الغيظ.

(3) تنوشه: تتناوله.

(4) الرسف: المشى الثقيل، العانى:الأسير الموثق: المكتوف المشدود وثاقه.

الفصل الرابع عشر

مكة تستعد للثأر

على يتزوج فاطمة

" وللدمع من عينى جوداً كأنه

فريد هوى من سلك ناظمه يجرى"

إليكم صفوان بن أمية يستقسم، هو وبضعة شيوخ، بالأزلام، فى ساحة الكعبة التى تكاد تكون خالية من الناس لذهاب أكابر قريش إلى القتال، وهى التى تكون حافلة بالرجال فى مثل تلك الساعة عادة، والاستقسام بالأزلام مما نهى عنه الإسلام، ويلبس صفوان وصحبه قمصاً مزدوج لطراوة الجو وقت المساء من أيام الشتاء، وتخرج سوقهم الزباء[1] من قمصهم وهم جالسون، وإليكم أناساً يتأخرون فى تلك الساحة ليطوفوا حول الكعبة ويضرعوا إلى هبل واللات والعزى أن يرعوا مكة وأن يكونوا فى عونها ما دامت فى قلق من قلة الأخبار عن جيشها.

وإن الناس لذلك إذ أتى رجل مسرعاً فيقطع صفوان ما كان عليه ويعلم منه أن القافلة سلمت وأن أبا سفيان فى طريقه، وأنه لم يقتل أحد من رجاله ولم يفقد واحد من جمالها، وأن التجارة ربحت فى طريق بلاد الروم فصارت الأموال مثليها أو ثلاثة أمثالها.

فحمد صفوان الله على ذلك وسأل الرسول عن الجيش، فقال الرسول:

"لا أعلم، وإنما أخبرك بأن العير تفلتت من أصحاب محمد، شتت الله شملهم لسلوكها طريق الساحل، والجيش، لا ريب، أراد حماية أمولنا أو ضرب أولئك الخوارج وأصحابهم من أهل يثرب ضرباً لا ينسونه أبداً إذا لم يبادوا*".

سرى عن الشيخ الأموى وعاد إلى لعبه، ثم إليكم محارباً لا يزال متقلداً سيفه من غير أن يكون ترسه معه، إليكم هذا المحارب الذى يغشى الغبار ساقيه والممزق الرداء يركض وهو ينادى بصوت محزن والنساء وراءه ينحن ويلطمن ناتفات شعورهن والأولاد يولولون.

هنالك سأل أحد اللاعبين ذلك الجندى عن نسبه وخبره فأجابه أنه من بنى خزاعة وأنه ممن اشترك فى معركة بدر مع قريش وأن قريشاً أصيبت بعار الهزيمة.

فقيل له ثانية: "ما الخبر؟ بعدالشر!"

---

[1] الزباء: الكثيرة الشعر.

http://www.al-maktabeh.com

فقال: "قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية ابن خلف وزمعة بن الأسود ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام".

فلما جعل يعدد أشراف قريش تبادل الحاضرون النظرات، ثم ذعروا و بهتوا، فقال صفوان بن أمية بصوت خافت:

"والله إن يعقل هذا، فاسألوه عني*".

فقالوا: وما فعل صفوان بن أمية؟"

فقال: "ها هو ذاك جالساً في الحجر، وقد، والله، رأيت أباه وأخاه حين قتلاً".

ذاع خبر هزيمة قريش بسرعة، وكان أبو لهب في بيته، فجاءه مولى له مسرعاً بالنبأ، فلطمه، وصرع لوجهه وكبت، ثم خرج أبو لهم المسن من بيته متوكئاً على عصاه، وكان مولى العباس أبو رافع ينحت لسيده الأقداح في حجرة زمزم، وكان أبو رافع نحيفاً نصرانياً فسره، مع امرأة كانت جالسة بجانبه، ما أصاب المشركين من الخزي؟ ثم أقبل أبو لهم الضخم الجثة يجر رجليه بشرٍ، حتى جلس على طنب تلك الحجرة[1]، فكان ظهره إلى ظهر أبي رافع، فبنما هو جالس إذ قدم أبو سفيان والمغيرة، فقال أبو لهب لرئيس القافلة أبي سفيان:

"هلم إلي فعندك لعمري الخبر".

فجلس إليه أبو سفيان الذي كان أعقل قريش، والناس قيام عليه، فقال له أبو لهب:

"أخبرني كيف كان أمر الناس؟"

---

(1) طنب الحجرة: طرفها.

فقال أبو سفيان: "ما هو إلا أن لقى جنودنا القوم فمنحوهم أكتافهم يقتلونهم كيف شاءوا ويأسرونهم كيف شاءوا، فمن أين أتتهم هذه القوة؟ "، "آه! لماذا لم يتبعوا نصيحتى فيعودوا ما دامت العير قت تفلتت[1]*".

فقال أبو رافع: "تلك والله الملائكة".

فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجه أبى رافع الضعيف الجسم ضربة شديدة فثاوره[2] أبو رافع فاحتمله أبو لهب فضرب به الأرض ثم برك عليه بضربه، فقامت تلك المرأة التى يجانب أبى رافع إلى عمود فأخذته فضربته به ضربة فلعت[3] فى رأسه شجة منكرة، وقالت:

"استضعفته أن غاب عنه سيده".

فقام أبو لهب مولياً ذليلاً، ولم يعش إلا سبع ليال حتى أصيب بالعدسة[4] مضافة إلى شدة الكمد، فمات.

كان يوم بدر عاراً على قريش، فلم تفكر مكة بعده إلا فى الانتقام، فتنزل أغنياء مكة عن أرباحهم فى قافلة أبى سفيان (نحو نصف مليون فرنك من ذهب) استعداداً للثأر، مادام أولئك الأغنياء من أكابر رجال المال الذين تعودوا المضاربات وما قد تجر إليه المضاربات من الخسارة وما داموا من الوطنيين المشبعين من حب بلدهم، وبلغ ما أدته قريش من فدى أسرى بدر ٢٠٠٠٠٠درهم فضلاً عن كثير الأسلحة، وعدلت قريش عن الجدال، وأبدت من الحلم والرؤية السياسية ما استطاع العرب أن ينتفعوا به بعد حين فى توجيه مصير دولتهم الإسلامية وأن يوسعوا به نطاق نشاطهم فى أوسع ميدان.

---

(1) قصد المؤلف أبا سفيان بن حرب مع أن الذى حضر هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ولذلك ترجمنا ما عزاه المؤلف إلى أبى سفيان "آه! لماذا لم يتبعوا نصيحتى .. إلخ" مضافاً إلى قول أبى سفيان بن الحارث الأصلى. (المترجم)

(2) ثاوره: وثب إليه.

(3) فلعت: شقت .

(4) العدسة: بثرة تخرج بالبدن فتقتل.

وأظهر أبو سفيان، الذى توجهت إليه الأنظار ليقود حركة الثأر، حنكة عظيمة، فقد قتل ابن له ببدر واسر ولد له فيها، فلم يعجل فى افتدائه من محمد قاصداً ألا تبدى قريش وقع الانخذال فيها ، وقتل مخزومى صهره الدوسى وإشراكهم، فمحمد كان يعلم أنه قد يكون للأهاجى من الإيلام وجرح النفوس ما لا يكون للسهام.

والواقع أن الشعراء كانوا صحفيى جزيرة العرب، فكان على صاحب كل سلطة أن يستعين بهم، وكان الشعراء على شيء من العرافة، فكان الإلهام يأتيهم فى حال ثانية يكونون عليها، أى حين يكون الواحد منهم ذا خطأ غريبة مدهون نصف الشعر منتعل الرجل الواحدة مجرراً رداءه دالا بفزعه على اتصاله بالغيب، وكانت أهاجيهم تعد ضرباً من الرقية، لما للكلمة فيها من قدرة السحر، ولما تنطوى عليه من المعرفة المتصلة أو الشعر الخالص، وفى هذا سر نفوذهم وخوف الناس منهم، وكان الشاعر حكم قبيلته، فكانت القبائل لا تقطع أمراً لم يره شعراؤها، فإذا رأى الشعراء الرحيل ارتحلت، وإذا قالوا بالحرب حاربت.

والواقع أن القرن السادس كان قرن الشعراء، فكانت العبقرية العربية تتجلى فى عالم الشعر، فظهر من العرب طبقة من أعاظم الشعراء الذين كان للروح اليهودية النصرانية المتجلية فى أشعار بعضهم ما هيأ النفوس للإسلام.

واتخذ محمد ثلاثة شعراء من أهل المدينة للرد على أهاجى قريش، وهم حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، فأما حسان وكعب فلم يتورعا عن التعرض لمجد أسر قريش، وأما عبد الله فقد عاب على قريش كفرهم وأعمالهم.

وكان أحد الحنفاء أمية بن أبى الصلت، الموحد المشكوك فى نصرانيته والمعزو إليه كثير من القصائد ذات الوصف المشابه لما فى القرآن عن الجنة والنار، ينفس على محمد رسالته، فرثى من أصيب من قريش يوم بدرٍ بقصيدة أولها:

"ألا بكيـــــت عـــــلى الكـــــرام بــــنى الكـــرام أولى الممـــــادح
كـــبكا الحمــــام عــــلى فــــروع الأيــك فـــى الغصــن الجوانـــح[1]

وقالت زوج أبى سفيان هند بنت عتبة بن ربيعة تبكى أباها يوم بدر:

أعيـــنى جـــوداً بدمـــع ســـرب عـــلى خـــير جـــندف لم ينقلـــب
تداعـــى له رهطـــه غـــدوة بـــنو هاشـــم وبـــنو المطلـــب
يذيقونـــه حـــد أســـيافهم يعلونـــه بعـــد مـــا قـــد عطـــب
يجـــرونه وعفـــير الـــتراب عـــلى وجهـــه عاريـــاً قـــد ســـلب

وأشاد شعراء المسلمين من ناحيتهم بذكر ما تم لهم من النصر ببدر، وفى بدر قال محمد من مؤثر الكلام ما تجد بعضه مبعثراً فى القرآن، ومما جاء فى قصيدة قالها شاعر مسلم فى يوم بدر:

وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهم فشقت جيوب النائحات على عمرو
جـيوب نسـاء مـن لـؤى بـن غالـب كـرام تفـر عـن الذوائـب مـن فهـر[2]
أولـئك قـوم قـتلوا فـى ضـلالهم وخلـوا لـواء غـير محتضـر النصـر
لـواء ضـلال قـاد إبلـيس أهلـه فخـاس بهـم إن الخبيـث إلى غـدر[3]

وفى هذه القصيدة جاء:

---

(1) الأيك: الشجر الملتف، واحدته أيكة - الجوانح: جمع جانحة وهى المائلة.
(2) تفر عن: علون، والذوائب: الأعالى، يريد أنهن من فهر فى المكان الذى لا يسامى ولا يبلغه قدر.
(3) خاس: غدر.

وكنا طلبنا العير لم نبغ غيرها فساروا إلينا فالتقينا على قدر
فلما التقينا لم تكن مثنوية لنا غير طعن بالمثقفة السمر[1]

فأجابه الحارث بن هشام بقصيدة جاء فيها:

ألا يالقومي للصبابة والهجرة وللحزن منى والحرارة فى الصدر[2]
وللدمع من عينى جوداً كأنه فريد هوى من سلك ناظمه يجرى[3]
على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى رهين مقام للركية من بدر

وفى هذه القصيدة حث لقريش على الثأر وعلى الجهاد فى سبيل الآلهة والديار.

وكان حسان بن ثابت "الذى كان قد أخرج لسانه فرأى أنه يستطيع أن يخرق به الأجسام، وأنه، مع قصره، لا يبادل به لساناً طويلاً طول ما بين صنعاء وبصرى الشام*[4]" من أنصار المدينة، فكان يمتدح أبناء بلده الذين أحسنوا إيواء النبى وقاسموا المهاجرين أموالهم وكان للمسلمين بهم النصر ببدر، وساء المهاجرين تماديه فى سب قريش الذين هم ذوو قرباهم، فرأى محمد ألا يحط من أقدار أبناء بلده ما يخبو به كل ما لهم من نفوذ.

ودهش اليهود فى بدء الأمر من قهر أناس قليلين من زراع المدينة لقريش، فأخذوا يقولون إنه ليس على الناس أن يستخرجوا نتائج كبيرة من نصر رخيص تم للمسلمين على وجوه غير محاربين، ونذكر من اليهود كعب بن الأشرف الذى صار ينشد الأشعار ويبكى

---

(1) المثنوية: الرجوع والانصراف. المثقفة: الرماح التى تقوم بالثقاف، والثقاف: خشبة تتخذ لتقويم الرمح، والسمر: جمع أسمر وهو من صفات الرمح.

(2) الصبابة: رقة الشوق.

(3) الجود: الكثير، والفريد: أراد به العقد، والسلك: الخيط الذى ينظم به العقد.

(4) اشتد أذى قريش على السيد الرسول بالهجاء فقال لأصحابه: "ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله أن ينصروه بألسنتهم؟" فقال لحسان: "أنا لها" وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال: "والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصنعاء، والله لو وضعته على صخرة لفلقه أو على شعر لحلقه"، فالذى يبدو أن العبارة التى اقتطفها المؤلف مأخوذة من هذا الحديث (المترجم).

أولئك الأشراف و "ملوك العرب"، وكبر على اليهود أن يزيد نفوذ محمد ويثبت سلطانه بنصر اتخذه دليلاً على تأييد الله لرسالته، فأصبحوا يجهرون بكرههم للإسلام.

ومهما يكن الأمر فقد فرحت المدينة بانتصار المسلمين، وكان لها بفدى الأسارى رخاء وأوصى النبى بالأسارى خيراً ومن الأسارى من هم أبناء أعمام للمسلمين وأخوة لهم، ومن الأسارى أبو العاص بن الربيع الذى كان زوجاً لزينب بنت النبى وابن أختٍ لخديجة، وكانت زوجته زينب قد بقيت معه بمكة بعد الهجرة، فلما أسر أبو العاص بن الربيع بعثت فى فداء أبى العاص بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين تزوجها، فلما رآها النبى رق لها رقة شديدة فبكى، وقال: "إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا"، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها، فذهب أبو العاص إلى مكة حاملاً القلادة، وغير هذا أمر عم النبى العباس، فلم يوافق النبى على تنزيل دانق واحد من فديته غير مطمئن إلى ما أعرب عنه العباس المرابى البخيل من ميله إلى الإسلام.

وكان للنبى ابنة أخرى فى العشرين من عمرها، أسمها فاطمة، وكانت فاطمة هذه نحيفة طويلة القامة مع شحوب (وقد توفيت فتاة كبقية أولاد محمد)، وكانت فاطمة العابسة هذه دون رقية (زوجة عثمان التى توفيت منذ زمن قليل) جمالاً، ودون زينب (زوجة أبى العاص بن الربيع) ذكاء وفاطمة، على ما لم يكن ليدها ما تزعم به أنها كانت فوق السن المعتادة للزواج فى بلاد العرب، لم تدار حينما أخبرها أبوها من وراء ستر أن على بن أبى طالب ذكر اسمها.

كان من العادة أن البنت إذا وافقت على الزواج سكتت، وإلا حركت الستر، فلما أخبرت فاطمة بذلك صمتت، فكان ذلك عن حياء أو حيرة ما دامت قد قالت لأبيها، ذات يوم، إنه زوجها بمعسر، وكانت فاطمة تعد علياً فقيراً دميماً محدود الذهن مع عظيم شجاعته، كأنه من قبيل متوسط، وما كان على أكثر رغبة فيها من رغبتها فيه مع ذلك.

http://www.al-maktabeh.com

والإنسان حينما يقرأ ما جاء فى كتب التاريخ والأقاصيص من الأحاديث عن أعمال سيدنا[1] على ومصائبه والخاتمة المفجعة لهذا الذى ألهه الدروز والنصيرية تتمثل له صورة شاب بطل عبقرى ظريف لطيف منير جميل لم يدنس وجهه بالسجود لصنم، فاعلم أن علياً كان قصيراً أسمر البشرة دقيق الذراعين ضخم الرأس غير بهى الوجه لعينيه الكبيرتين الفاترتين وفطسه (مع أنه قيل إن بنى هاشم ذوو أنوف طويلة تسبق شفاههم فى الشرب) وكبر بطنه وصلعه الباكر،وعلى كان، مع ذلك، ذا محياً جذابٍ وأسنان باسمة، وعليّ كان، مع ذلك، شجاعاً تقياً صادقاً وفياً مخلصاً صالحاً مع توانٍ وتردد، ومما حدث أن رأته امرأة ماراً ذات مرة فقالت: "يا له من رجل غريب! يخيل على الناظر إليه أنه خلق من أجزاء مرتوقة على غير انسجام*".

تمت حفلة العرس على الوجه اللائق، وإن اضطر على إلى جمع الإذخر[2] ليبيعه من الصواغين اليهود حتى يكون لديه ما يؤدى به نفقات العرس، وكان جهاز فاطمة بأربعمئة درهم، وكان ثلاثة أرباع هذا الجهاز من الأطياب، وكان صداقها درع من غنائم بدر، وقد أوكِل طعام العرس هنيئاً وغنت القيان[3] على الدفوف مادحات أبطال بدر.

ولكن الزوجين أخذ يقضيان حياة بؤس منذ اليوم الأول، فقد كانا من الفقر ما خلا معه منزلهما من الفراش، وكان الترب[4] والاختلاف يلمان بدارهما فى الغالب، ودام أمرهما على ذلك إلى أن نالا بعض الثراء من الغنائم التى أصابها المسلمون فى انتصاراتهم الكبرى، ونهكت أمور المنزل فاطمة البكاءة، فلما توالت حسراتها بسبب متاعبها المنزلية وأسقامها وشثنت[5] كفاها بسبب الطحن والعجن سألت أباها أن يعطيها رقيقاً ليعاونها، فأشار عليها بأن تتلو عند منامها دعاء خاصاً، وكان على ينهت[6] فيستقى الماء لنخيل أحد اليهود فى مقابل

---

[1] كما جاء فى الأصل الفرنسى (المترجم)

[2] الإذخر: نبات طيب الرائحة.

[3] القيان: جمع قينة وهى الأمة أو المغنية.

[4] الترب: الافتقار.

[5] شثنت: خشنت وغلظت.

[6] ينهت: يزأر.

حفنة تمر، فإذا ما عاد بها قال لزوجته عابساً: "كلى وأطعمى الأولاد..*"، قاصداً بالأولاد الحسن والحسين اللذين هما رأسا دوحة الأشراف من ذرية النبى، وكان على يحرد، بعد كل منافرة، ويذهب لينام فى المسجد بدلاً من أن يواجه مصاعبه، وكان حموه النبى يربته على كتفه ويعظه ويوفق بينه وبين فاطمة إلى حين، ومما وقع أن رأى النبى ابنته فى بيته، ذات يوم، وهى تبكى من ضرب علىّ لها.

ولم تنل فاطمة خادمة إلا بعد فتح مكة، أجل، لم يكن عدد الموالى والإماء قليلاً فى المدينة بعد السنة الثالثة من الهجرة، وكان لدى عائشة نفر منهم، ولكن محمداً، مع امتداحه قدم على فى الإسلام إرضاء لابنته، كان قليل الالتفات إليه، لما كان من مداراة صهرية الأمويين عثمان الممتاز وأبى العاص له أكثر من على، وكان علىّ يألم من عدم عمل النبى على سعادة ابنته ومن عد النبى إياه قاصراً، فالنبى وإن كان يفوض إليه ضرب الرقاب كان يتجنب تسليم قيادة إليه، ولما أراد علىّ أن يتزوج علي ضُور غضب النبي واحتج علي ذلك جهراً من فوق المنبر و كان علي غير لبق وغير موفق فى تفكيره فى الزواج بابنة أبى جهل، لما يؤدى إليه من جمع بنت رسول الله وبنت أشد أعداء رسول الله تحت سقف واحد، وقد حقد علىّ على حميه لأنه لم يأذن له فى الزواج بأخرى كما صنع مع صهريه الآخرين.

وأسوأ من ذلك ما كان يقع عند مصاقبة علىّ وفاطمة لعدوانهما أزواج النبى وتنازع الفريقين فتقول فاطمة لأبيها متحسرة: "إنك لا تنحاز إلى بناتك*".

وكان علىّ على جانب كبير من كرم الطبع وحسن السجية، مع بؤسه المنزلى وتعسه السياسية ومع ما لقيه من لؤم الناس وتركهم له وغدرهم به، فإذا كان جميع ما نسب إليه من الشعر وجوامع الكلم مما يشك فى صدوره عنه فإنه يلوح لنا، مع ذلك، أن الحياة أوحت إليه سوء الظن مع ثبات الجنان فنطق بالحكم التى لا تخلو من سمو روحٍ، فمن هذه الحكم: "اليأس إحدى الراحتين.. سلامتك فى مقاومة نفسك .. الرغبة قاتلة للراغب.. الدنيا جيفة، فليعاشر الكلاب من يرغب فيها..*"

ومن حسن الحظ أن ولد لعلى من فاطمة الحسن والحسين، فكانا أداة تسلية وبهجة لجدهما النبى، مع زيادة أمهما هزالاً بسبب ولادتها لهما ومع عدم قدرتها على إرضاعهما، قال النبى:

"هما ريحانتاى[1] من الدنيا" ، والنبى قد قرأ لهما المعوذتين منذ ولادتهما وخلط ريقهما بريقه ونطلق بالشهادة فى آذنهما، وقد تأخر اختلاط زيق النبى بريق الحسين عن الرضعة الأولى فكان الحسين دون أخوه الحسن ذكاه، والحسن ما قال عنه أبوه على جاداً إنه يشابه، فقالت أمهما فاطمة وهى تهزهما إنهما شبيهان بجدهما النبي، لا بأبيهما علىّ، فضحك من ذلك أبوهما علىّ.

وكان محمد يحب ملاعبتهما، فكان يقبل سرتيهما، ويمرهما من بين ساقيه، ويرشف لسانيهما، ويوثبهما على ركبتيه، ويدعهما يصعدان على ظهره فى أثناء صلاته، فيطيل السجود لكيلا يزيحهما عنه، وكان إذا ما بالا عليه يمنع نهرهما ويصب ماء على قميصه، وكان إذا ما أتياه لا بسين ثياباً حمراً جميلة وقت الخطبة ينزل من المنبر ويدنيهما منه معتذراً عن ذلك بقول الله: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة".

ذهب على بن أبى طالب يوم عرسه مع أصحاب له الجمع إذخر يستعين بثمنه فى الوليمة، فلما عاد أناخ شارفيه[2] إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، وكان فى هذا البيت عم النبى حمزة بن عبد المطلب يشرب منذ حين، حتى أصبح فى حالة سكر شديد، فقالت قينته[3] فى غنائها وهى تضحك:

"ألا يا حمزة للشرف النواء[4]"

فوثب حمزة كعملاق، إلى السيف فاجتب[1] أسنمتهما[2] وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما.

---

[1] أى هما عندى كالريحانة التى تحب فتشم وتقبل

[2] الشارف: من النوق المسنة الهرمة، ج: شرف.

[3] القينة: الأمة المغنية، الماشطة.

[4] النواء: المعادة.

فلما عاد على ورأى هذا المنظر الهائل انطلق ليشتكى إلى النبى، فانطلق النبى يمشى ومعه على و زيد فدخل على حمزة وطفق يلومه فيما فعل، فإذا حمزة لا يزال ثملاً ملطخاً الدم فصاح قائلاً:

"وهل انتم إلا عبيد لأبى؟"

اصفر وجه النبى فنكص على عقبيه القهقرى وهو ينظر إلى حمزة. فأدى هذا وما إليه من العربدة، التى تؤدى من فورها إلى المنازعات الدامية، إلى تحريم الخمر والميسر، والعرب كانوا يشربون، بالحقيقة، من نبيذ التمر الذى كان أقل ندوراً من نبيذ العنب فى بلادهم، والعرب كانوا يصنعون الخمر من العسل والحنطة والشعير أيضاً، ولم يحرم النبى آفة الخمر إلا بالتدريج، فقد نهى القرآن المسلمين عن قرب الصلاة وهم سكارى، ثم أعلن القرآن أن إثم الخمر أكبر من نفعه، ثم لما كانت فعلة حمزة جاء فى القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟﴾

أرسل النبى منادياً ليعلن للناس فى أسواق المدينة تحريم الخمر وتجارة الخمر، وكان أنس بن مالك يعرض النبيذ على أبى طلحة وأبى بن كعب وأبى عبيدة ليشربوا منه حينما مر المنادى من أمام البيت، فأوعز أبو طلحة إلى أنس بإراقة الخمر بعد سماع خبر التحريم وبعد أن أراق ما فى قدحه، فكبت الدنان وسال الخمر إلى الشارع.

وحدثت بعض المناوشات فى غضون السنة، ومنها أن أبا سفيان، الذى نذر ألا يضع طيباً على نفسه وألا يأتى النساء حتى يغزو المسلمين، خرج من مكة على رأس مئتى راكب واقترب من المدينة وضاف، ليلة، رئيس يهود بنى النضير، ثم حرق نخلاً خارج المدينة وقتل اثنين فى حرث لهما، ثم انصرف راجعاً بسرعة، فخرج محمد ومعه جماعة من المسلمين فى

---

(1) اجنب الشيء: قطعه

(2) أسنمة: جمع سنام وهو حدبة فى ظهر البعير.

http://www.al-maktabeh.com

طلبة على غير جدوى، وإنما رأى المسلمون ما تركه القرشيون فى معسكرهم من أكياس الدقيق الذى يصلح لصنع السويق[1] فسميت هذه الغزوة بغزوة السويق.

وخرج محمد بعد بضعة أيام ومعه جماعة من المسلمين يريد بنى سليم الذى تجمعوا لإيذاء المسلمين، فلما بلغ ماء من مياههم يقال له الكدر لم يجد المسلمون منهم أحد فظفروا ببعض نعمهم فغنموها مع رعاتها.

ولم يظفر محمد فى غزوة بحران بطائل، وظفر المسلمون فى قَرْدَةَ بعير لقريش الذى لما رأوا منع المسلمين لهم من سلوك طريق الشام سلكوا بها طريق العراق، وأخذت قبائل الصحراء تميل إلى هذا الفريق أو إلى ذلك، وصارت الدسائس والسعايات تحاك بكثرة، وأمر محمد بقتل شيخ بنى لحيان الذى كان يستعد لمقاتلته، وطلبت هذه القبيلة إلى محمد أن يبعث إليهم مبشرين من المسلمين، فبعث إليهم عاصم ابن ثابت مع عشرة من أصحابه، وإنهم لفى طريقهم إذ باغتهم مئتا راكب من بنى لحيان، فلما شعر عاصم بن ثابت ورفقاؤه بالخطر التجأ هو ورفقاؤه إلى ربوة فأحبط بهم فأبوا التسليم، فدعا عاصم بن ثابت (وقد خر صريعاً هو وستة من رفقائه) الله أن يخبر نبيه بما أصيبوا به.

وأما الثلاثة الذين ظلوا أحياء فقد آثروا التسليم بعد أن أعطوا الأمان، فشدت أيديهم خلف ظهورهم، ثم أبى أحدهم السير فقتل، وسيق رفيقاه إلى مكة حيث بيعوا من قريش رقيقين، وكان أحدهما خبيب بن عدى قد قتل فى بدرٍ الحارث ابن عامر، فاشترى أبناء الحارث خبيباً هذا من بنى لحيان ليقتلوه بأبيهم وليهدئوا الهامة[2] التى تحول حول قبره مطالبة بالثأر، فقادوه إلى بيتهم مصفداً واستعد خبيب ثابت القلب ليقتل صبراً، فبعثت ابنة الحارث إليه موسى ليتطهر بها، فاقترب ابنها منه فى ذلك الحين، فجلس على فخذه، فرجعت أمه مصفرة الوجه إذ رأت خبيباً ممسكاً الموسى بإحدى يديه وممسكاً الغلام بيده الأخرى وأصبحت عاجزة عن النطق بكلمة، فأحس خبيب ذلك فقال:

---

(1) السويق: هو قمح أو شعير يقلى ثم يطحن ليسف تارة بالماء وتارة بسمن وتارة بعسل وسمن.

(2) الهامة : نوع من البوم الصغير تالف القبور و الأماكن الخربة و تنظر من كل مكان أينما درت أدارت رأسها

"خفت على ابنك أن أقتله، فلست بالذى ينتقم من صبى*".

لم تشفع هذه المروءة لخبيب، فقد سيق إلى خارج الحرم ليقتل فى الأرض المباحة أمام أفراد العشيرة، وطلب أن يؤذن له فى الصلاة فى بضع دقائق فلم يركع سوى ركعتين لكيلا يظن أنه طول جزعاً من القتل، فكان خبيب بن عدى أول من سن هاتين الركعتين للمسلمين الذين يقتلون صبراً.

الفصل الخامس عشر

اليهود

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة:٥)

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجمعة:٦)

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة:٨٧)

وطد نصر المسلمين ببدر سلطان محمد في المدينة، ولكن ذلك لم يقض على المعارضة التي قاسى محمد من أمرها ما قاسى، وأصبح محمد من القوة ما شعر معه بقدرته على الخلاص من أخطر أعدائه، لا القضاء على جميع معارضيه قضاء شرعياً وفكر خصومه في اغتياله مع ذلك، فقد وعد صفوان بن أمية عمير بن وهب بأن يقضي عنه ديونه إن قتل محمداً"، فاكتشف عمر بن الخطاب ذلك فطلب عمير بن وهب العفو فأسلم.

وقالت الشاعرة عصماء بنت مروان قصائد قذف بالنبي فقتلت ذات ليلة بين بنيها الذين كان أصغرهم نائماً بين ذراعيها، وهجا أبو عفك الذي كان في السنة العشرين بعد المئة من عمره الإسلام لمخالفته لدين الآباء فقتل.

ولم ينفك يهود المدينة عن العطف على مشركي مكة، وقد رأينا أن أبا سفيان ضاف أحد رؤسائهم فأطلعه هذا الرئيس على أخبار المسلمين، ولم يسطع اليهود أن يتحدوا، فتمكن محمد من قهر قبائلهم الواحدة بعد الأخرى، وأول أمرٍ حدث ما أسفر عنه شغب في سوق بني قينقاع من قتل أحد المسلمين، فتحصن بنو قينقاع في بيوتهم ذات الطبقات الكثيرة المتصل بعضها ببعض وغير النافذة لسوى سوق داخلية لها أبواب متينة والتي كان يتألف من مجموعها قلعة بالحقيقة، فناداهم النبي قائلاً:

"يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم أقرضوا الله قرضاً حسناً".

فقالوا: "إن الله فقير إذن، إنك تبعث عما تنقض به العهد، إننا راغبون عن القتال*"، "ولكن لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس".

حوصر بنو قينقاع فلم يأت لنجدتهم قبائل اليهود الأخرى ولا حلفاؤهم من العرب، فلما مضت خمسة عشر يوماً نزلوا على حكم محمد، فأراد محمد أن يجعلهم عبرة لغيرهم فأمر بأن

http://www.al-maktabeh.com

تربط أيديهم وكادت رقابهم تضرب لو لم يشفع لهم حلفاؤهم الخزرج الأقوياء عند الرسول فيجعله رئيس الخزرج عبد الله بن أبى يعفو عنهم بعد جهد.

أنقذت حياة بنى قينقاع المغلوبين، ولكنهم نفوا إلى الشام تاركين ديونهم ومواليهم وأراضيهم ليقتسمها الغالبون بينهم، آخذين معهم كل ما استطاعوا حملة على دوابهم متوجهين إلى الشمال سائرة رجالهم على الأقدام راكبة نساؤهم قطاراً طويلاً مؤثراً من الإبل.

وكل كعب بن الأشرف من أغنياء يهود المدينة، وكان حبراً شاعراً مجيداً من شعراء العربية محباً لقريش، فلما كانت واقعة بدرٍ أخذ ينشد الأشعار باكياً قتلى قريش ببدر، وخرج من المدينة حتى قدم مكة وجعل يحرض على النبى منشداً أشعاراً، ويقول إن بطن الأرض خير من ظهرها ما لم تثأر قريش لقتلاها، ولما صار شعراء المسلمين يردون عليه رجع إلى المدينة ليثيرها على النبى ونشر فيها الأهاجى اللاذعة فقال النبى بعد أن عيل صبره:

"من لى بابن الأشرف؟"

فقال له محمد بن مسلمة: "أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله"

فقال له النبى: "فافعل إن قدرت على ذلك".

وكان كعب بن الأشرف يسكن حصناً خارج المدينة ليس من السهل دخوله، فلجأ محمد بن مسلمة إلى الحيلة فائتمر به مع ثلاثة من المسلمين ومع أخ مسلم لكعب بن الاشرف من الرضاعة اسمه سلكان بن سلامة والمكنى بأبى نائلة.

جاء أبو نائلة ذات ليلة كعب بن الأشرف على ضوء القمر فتحدث معه ساعة وتناشدا شعراً وتبادلا النكات والنوادر، ثم قال أبو نائلة لكعب وقد وضع يده على كتفه:

"ويحك يا ابن الأشرف، إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى!"

كعب: "أفعل".

أبو نائلة: "كان قدوم هذا الرجل (محمد) علينا بلاء من البلاء، عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل، حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا".

كعب: "أنا أبن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير على ما أقول".

أبو نائلة: "إنى قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك و نوثق لك وتحسن فى ذلك".

كعب: "أترهنوننى أبناءكم؟"

أبو نائلة: "لقد أردت أن تفضحنا، إن معى أصحاباً لى على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء، إن فى الحلقة لوفاء".

فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند النبى، فمشى معهم النبى حيناً ثم وجههم فقال: "انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم"، ثم رجع النبى إلى بيته.

كانت الليلة مقمرة وكان ظل حصن كعب بن الأشرف ممدوداً على أرض فضية، وأقبل المؤتمرون، فهتف أبو نائلة بكعب بن الأشرف من أسفل الحصن، وكان كعب حديث عهد بعرس فقالت له امرأته الحسناء:

"إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة". فقال كعب: "إنه أبو نائلة، لو وجدنى نائماً لما أيقظنى".

فقالت: "والله إنى لأعرف فى صوته الشر"

تبس كعب بن الأشرف من خوف زوجته عليه معتقداً أن حبها له هو الذى أملى عليها خوفاً، ثم نزل فتحدث مع المؤتمرين الخمسة حيناً من الليل سائرين، ثم قالوا:

"هل لك يا ابن الأشرف أن تماشى إلى شعب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا هذه؟".

فقال كعب: "إن شئتم".

وكانت زوجة ابن الأشرف قد مسحت شعره بالأطياف، فقال مسروراً:

"امرأتى أكثر الناس تطيباً والعرب كمالاً*".

فقال أبو نائلة: "أتأذن لى فى أن أشيم يدى فى فود رأسك[1]؟"

ثم شم أبو نائلة يده فقال: "ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط".

ثم مشوا يتهادون ليلاً، ثم شم أبو نائلة شعر كعب ثانية مادحاً هيفة، ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه، ثم قال:

"اضربوا عدو الله".

فضربوه فاختلفت عليهم أسيافهم فلم تغن شيئاً، فجرح أحدهم منها فصاح كعب بن الأشر صيحة شديدة، فطعنه محمد بن مسلمة بالسيف فقضى عليه.

أفاق المجاورون من صيحة كعب وخرجوا من الخيام هائجين فلم يبق حوله حصن إلا وقد أوقدت عليه نار، وفر قتلة كعب من بين أحياء اليهود والعرب، وأبطأ عليهم صاحبهم الجريح، فوقفوا له ساعةً حتى أتاهم يتبع آثارهم من غير أن يرى فاحتملوه فجاءوا به النبى آخر الليل وهو قائم يصلى، فأخبروه بما حدث.

وإليكم يهودياً آخر كنيته أبو رافع، فأبو رافع هذا كان كثير الغنى فلقب بتاجر الحجاز، وكانت له دار بخيبر، وكان يحرض يهود خيبر وقبيلة غطفان على المسلمين، فحث النبى خمسة من الخزرج على الذهاب إلى خيبر متنكرين بقيادة أحدهم عبد الله بن عتيك، ونهاهم عن أن بقتلوا وليداً أو امرأة.

فلما بلغوا دار أبى رافع قال عبد الله بن عتيك لرفقائه:

"الزموا مكانكم هنا وانتظرونى".

---

[1] شام يده فى فود رأسه: معناه أدخل يده فى شعره، يقال: شمت السيف إذا أغمدته وإذا سللته، فهو من الأضداد، وفود الرأس: جانبه من جهة الأذن.

وكان الباب لا يزال غير مغلق مع حلول الليل، وذلك لأن أهل الدار كانوا يبحثون فى الحقل على ضوء المشاغل عن حمار مفقود، ثم دنا عبد الله كمن يريد قضاء حاجة، فصاح البواب قائلاً:

"ليدخل من يريد الدخول قبل أن أغلق الباب".

دخل عبد الله مع أناس آخرين واختبأ فى مربط حمار حتى أتم الناس طعام العشاء ودخل كل واحد منهم غرفته، ثم أخذ عبد الله المفتاح من الكوة التى وضعه البواب فيها قبل أن ينام ليتمكن من الفرار، ثم توجه عبد الله إلى غرفة أبى رافع بعد أن مر من عدة غرف.

وكان رب البيت أبو رافع نائماً مع زوجته بعد عشاء فاخر، وكان سواد الليل حالكاً.

فنادى عبد الله قائلاً:

"يا أبا رافع!"

فقال أبو رافع: "من الذى ينادينى؟"

فعمد عبد الله نحو الصوت ليضربه بسيفه، فحال لحاف أبى رافع دون نفوذ الضربة فيه، فرأت زوجته أن الصوت هو صوت عبد الله بن عتيك، فقال لها زوجها أبو رافع:

"أن ابن عتيك بهذه البلاد!"

فغير عبد الله بن عتيك بهذه البلاد!"

"مالك يا أبا رافع؟"

فقال أبو رافع لزوجته: "لأمك الويل! دخل على رجل فضربنى بالسيف".

فعمد ابن عتيك إليه أيضاً فضربه أخرى فلم تغن شيئاً فتأخر وصدمه، فإذا هو مستلق على ظهره، فوضع السيف فى بطنه ثم انكفأ عليه حتى سمع صوت العظم ثم خرج

http://www.al-maktabeh.com

فر عبد الله بن عتيك ذاكراً نهي النبي عن قتل امرأته، فلم يضربها حينما استغاثت، وكيف أمكن الناس أن يتعارفوا ليلاً في ذلك الحصن المظلم ذي الغرف والمراقي والساحات؟ تقاطر رجال أبي رافع من كل صوب وتصادموا وصرخوا وأوقدوا المشاغل، ولم تشأ الدواب ألا تشاركهم فيما هم فيه، فصارت الشياه تثغو والخيول تصهل في الحظيرة.

أراد عبد الله بن عتيك النزول من السلم فكسرت ساقه، فعصب ركبته بعمامته بعد حلها واستطاع الخروج من غير أن يعرفه أحد، ثم أحب عبد الله أن يطمئن إلى موت أبي رافع فجلس قريباً من الباب، فلما كان وقت الفجر صعد الناعي فوق سور الحصن الخارجي فقال:

"أنعى تاجر الحجاز أبا رافع*".

فأتى عبد الله بن عتيك أصحابه وقال لهم: "لننطلق، فقد قتل الله أبا رافع".

كنا نود ألا نسجل مثل هذه الوقائع في تاريخ محمد الذي علمنا من نبله وسمو نفسه ما علمنا، ومحمد هو الذي لم يصنع غير الدفاع عن النفس ببقائه ضمن مبادئ زمنه وبلده الحقوقية، وكنا نود لو كان محمد أصفى وأرحم، ولو كانت صفحته الشديدة النور خالية من ذلك، وهو رسول الله الذي بعث أمته وأحياها.

وإذا كان محمد قد قسا على اليهود فإن من الإنصاف أن يعترف بأنهم خانوه، وأن ينظر إلى ما كانت عليه بلاد العرب من الفوضى، وهذا مع صعوبة عده بعد ذلك، مثالاً في كل أمر وفي كل أمر وفي كل شيء، كما ادعاه بعضهم في المجلة الإسلامية لسنة ١٩١٧، وإن قتل أحد أنبياء بني إسرائيل ثلاثمئة كاهن من كهان بعل في يوم واحد.

وكان المسلمون يرون ما يعملونه مما يرضى الله فلا يبالون بذلك، فقد مدح كعب بن مالك وحسان بن ثابت قاتلي ابن الأشرف.

ثم تبع قتل ابن الأشرف حرب صغيرة، وإن شئت فقل بعض الحوادث الفردية، ومن ذلك أن مسلماً قتل يهودياً محسناً له فعيره أخوه، الذي لم يزل مشركاً، بتربية اليهودي له قائلاً:

"لا يزال دسم ما أطعمك في بطنك!*"

"والله إننى لا أتأخر عن قتلك كما قتلت ذلك الرجل إذا أمرنى الله بذلك*".

فأثرت هذه الحماسة فى أخيه فأسلم مثله، فياله من أسلوب للتبرير غريب!

فزع اليهود مما حدث، فوادعوا محمداً وعاهدوه على عدم مهاجمته، وهم لم يرفعوا رؤوسهم إلا بعد غزوة أحد.

وعدل النبى عن كتاب اليهود، فاتخذ زيد بن ثابت كاتباً له على الخصوص موعزاً إليه بأن يتعلم الآرامية.

وعدل المسلمون عن القدس إلى الكعبة لتكون قبله لهم، والكعبة هى مصلى إبراهيم، وإبراهيم هو جد اليهود والنصارى والمسلمين على السواء، وإبراهيم هو ما رأى محمد ارتباط دينه فى دينه.

الفصل السادس عشر

أُحُد

" الحرب سجال "

(من قول أبى سفيان فى مساء المعركة)

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:١٤٠)

ذهب محمد فى أوائل شهر شوال من السنة الهجرية الثالثة من المدينة إلى قباء، وإنه لفيها إذ رأى أعرابياً يغذ فى السير على ناقته حتى نهكها، فأسر إليه بما يأتى:

"يا أبا القاسم! لقد جئتك من مكة فى خمسة أيام حاملاً لك حوادث خطيرة، فقد أرسلنى إليك عمك العباس بن عبد المطلب الذى يهمه أمرك لأخبرك بأن قريشاً استعدوا لمقاتلتك وليثأروا بقتلى بدر، فقد صاروا لا يحتملون العار الذى أصابهم من غلبهم ببدر ولا يطيقون قطع أصحابك لطريق الروم على عيرهم، فتسلح منهم كل قوى، واستعانوا ببنى كنانة وحلفائهم من تهامة، ودعوا الأحابيش إلى نصرهم، وأصبح لديهم من الجنود ثلاثة آلالف مقاتل، منهم مئتا فارس وسبعمئة دارع، لينقضوا فى بضعة أيام على المدينة، وأبو سفيان هو قائد هذا الجيش القوى، ويعاونه عكرمة الذى غدا لا يعيش إلا للانتقام من أجل أبيه ويعاونه، أيضاً، خالد ابن الوليد ذو البأس الشديد[1]*".

مثل العباس الأريب دورين بالحقيقة: الأول أنه أسرع فى الذهاب إلى مكة بعد أن افتدى نفسه من الأسر ليقوم بأعماله من غير حماسة للإسلام، والثانى أنه أخذ يجعل لنفسه باباً يخرج منه بمداراته لابن أخيه النبى.

عاد محمد إلى المدينة مسرعاً وجمع وجوه المسلمين فجعلوا يتشاورون فيما يصنع، فرأى النبى أن يتحصنوا بالمدينة، ورأى شيوخ المدينة مثلما رأى النبى، ورأى شبان ألهبتهم ذكرى بدر الخروج إلى العدو وملاقاته، فانحاز إلى هؤلاء أكثر المسلمين، فنزل محمد إلى رأيهم، كما كان يفعل فى كل أمر لم يوح به من الله، معه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه درعه، وقد نضبت الراية لينضوى[2] الناس إليها.

---

(1) جاء فى كتب الحديث والسيرة أن العباس كتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يخبره بجمع قريش وخروجهم فأرسل كتابه مع رجل من بنى غفار فأخذ النبى هذا الكتاب وهو بقباء ورفعه لأبى ابن كعب فقرأه عليه، ولم أجد فى تلك الكتب العبارة التى رواها المؤلف فترجمناها من الفرنسة (المترجم).

(2) انضوى إليه: انضم.

http://www.al-maktabeh.com

فلما خرج محمد، مدججا بالسلاح متقلداً سيفاً حاملاً رمحاً بيده معلقاً ترساً على كتفه، عرض جيشه المؤلف من نحو ألف رجل والذى لم يكن فيه سوى مئتى دارع وفرسين، ثم لاح لأكثر هؤلاء حماسة خطر ما رأوه، فندموا، فعادوا إلى رأى القائلين بالتحصن بالمدينة، فقال النبى:

"قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، وما ينبغى لنبيٍ إذ لبس لأمته[1] أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، انظروا ما آمركم به فاتبعوه، والنصر لكم ما صبرتم".

وعقد النبى لواء للأوس وجعله بيد أسيد بن حضير، ولواء للخزرج وجعله بيد الحباب بن المنذر، ولواء للمهاجرين وجعله بيد على بن أبى طالب، ثم حدث ما زعزع الجيش، فلما كان هذا الجيش خارج المدينة وقت الفجر عرضه النبى، بعد صلاة الصبح، فرأى كثيراً من اليهود فى صفوف حلفائهم الخزرج، فأبى أن يشتركوا فى القتال معه ما لم يسلموا، فرفض اليهود ذلك وانصرفوا، فألم رئيس الخزرج عبد الله بن أبى "المنافق" من ذلك فانصرف مع ثلاثمئة رجل فمضى جيش المسلمين، ولم يبق منه سوى سبعمئة رجل، إلى جبل أحد، بعد أن قتل منافقاً سب النبى.

ويبعد جبل أحد من المدينة ستة أميال، وهو جبل قليل الانحدار يكاد يكون قائماً فجعل النبى ظهر عسكره إلى أحد ووجههم إلى المدينة، ووضع منهم خمسين من الرماة على شعب الجبل ليحموا ظهور المسلمين خوفاً من أن يجيئهم العدو من ورائهم، موصياً إياهم بألا يبرحوا مكانهم، وكان للنبى محمد سيف منقوش عليه: "لن ينفع حذر من قدر"، وكان محمد راغباً عن الاشتراك بنفسه فى النزال فأعطى أبا دجانة الأنصارى سيفه ليضرب به العدو حتى ينحنى، وكان أبو دجانة رجلاً يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد النبى أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، ثم جعل يتبختر، فقال النبى:

"إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن".

---

[1] اللائمة: الدرع.

ولما وصل القرشيون إلى أحد كان فريق منهم بين المسلمين والمدينة، وقد أحضروا معهم صنماً حملوه فى قبة على جمل، وكان حول هذا الصنم خمس عشرة امرأة يضربن الدفوف ويحرضن مقاتلى قريش على القتال بأناشيدهن الحادة، وكانت زوجة أبى سفيان هند الحسناء أشدهن حماسة وتعطشاً للثأر بأبيها عتبة وأخيها، وكن يقلن:

ويها بنى عبد الدار، ويهاحماة الأدبار، ضرباً بكل بتار[1]

وكن يقلن:

نحـــن بـــنات طـــارق نمشـــى عـــلى الـــنمارق مشـــى القطـا الـنوازق[2]
والمسك فـى المفـارق والـــدر فـــى المخـــانق إن تقـــبلوا نعـــانق[3]
ونفـــرش الـــنمارق أو تدبـــروا نفـــارق فـــراق غـــير وامـــق[4]

رأينا أن المحارب العربى يبتعد عن مواطن الخطر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ما دامت الحرب عنده خدعة نافعة لا مجزرة خرقاء، ويجلب محاربو العرب النساء معهم فى الأحوال العظيمة ليشجعنهم على خوض المعارك ويحملنهم على القتال حتى النفس الأخير.

برز من صفوف المشركين أبو عامر، الذى كان زعيماً لفخذ من الأوس يسمى بأوس الله، فترك المدينة حقداً على محمد، وأبو عامر هذا كان راهباً داعياً إلى دين جامع لمبادئ الوثنية اليهودية مخالف للإسلام، فلما خرج من المدينة اتبعه خمسون غلاماً من الأوس، ولما التقى الناس طلب أبو عامر من الأوس أن ينضموا إليه فردوه فقاتلهم شديداً وراضخهم[5] هو والأحابيش وعبدان أهل مكة بالسهام والحجارة، وحاول عكرمة بن أبى

(1) وبها: كلمة تحريض وإغراء، حماة الأدبار: الذين يحمون أعقاب الناس، البتار: السيف.
(2) الطارق: النجم، النمارق: جمع نمرقة وهى الوسادة الصغيرة، النوازق: الخفاق.
(3) المخانق: جمع مخنقة وهى القلادة.
(4) الوامق: المحب.
(5) راضخهم: رماهم

جهل، وكان على الميسرة، أن يأخذ المسلمين من جناحهم، فلم يوفق هو وأبو عامر لذلك، هنالك صاح حمزة عم النبى صيحة القتال:

"أمت! أمت!"، واندفع إلى قلب جيش قريش.

كانت صولة المسلمين مما لا يصد، فأحدثوا ثغرة فى جيش المشركين، ووجد أبو دجانة نفسه من ناحية أخرى تجاه نسوة قريش اللاتى التجأن إلى رأس الجبل مترقبات قتلهم أو أسرهن فحمل عليهن شاهراً سيفه، ثم رأى أن يرتد عنهن مكرماً سيف النبى أن يضرب به امرأة، وقد كب الصنم من فوق الجمل وتحصن القرشيون خلف الجمال الثلاثمئة التى كانت تحمل أثقالهم.

بيد أن رماة المسلمين اعتقدوا أن النصر تم لهم فخالفوا ما أمرهم به النبى، فتركوا شعب الجبل، واندفعوا قائلين: "الغنائم! الغنائم!*"

فشاهد الذكى خالد بن الوليد، فشد بفرسانه فى ميمنة قريش على المكان الذى تركه أولئك الرماة واستولى عليه ودار برجاله وراء جيش المسلمين، فاضطربت صفوفهم واختلط حابلهم بنابلهم، فرأى حذيفة بن اليمان قتل أبيه خطأ بعينيه.

ومما حدث أن أبا سعد بن أبى طلحة صاحب لواء المشركين تحدى المسلمين بقوله:

"يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم فى الجنة وأن قتلانا فى النار، كذبتم، واللات لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إلى بعضكم".

فخرج إليه على بن أبى طالب، فاختلفا ضربتين فضربه على فصرعه، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه لأنه استقبله بعورته فعطفته عنه الرحم.

ومما حدث أن صاحب لواء قريش لم يزل صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش فأخذه صواب العبد الحبشى، فقاتل به صواب فقطع سعد بن أبى وقاص يده اليمنى فحمله بيده اليسرى، فقطعت يده هذه أيضاً فبرك عليه يقاتل، فأخذ اللواء بصره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول: "اللهم هل أعذرت؟"، فعير الشاعر المدنى

حسان بن ثابت قريشاً بجعلهم اللواء مع امرأة ثم مع عبد حبشي، وذلك في قصيدة جاء فيها:

فلـــولا لـــواء الجارثـــية أصـــبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب[1]

وأصيب حامل لواء قصي مسافع بن طلحة بسهم فيأتي أمه فتنذر أن تشرب الخمر في رأس قاتله وأن تعطى من يأتيها به مئة جمل، فحمل اللواء بعده أخواه الحارث وكلاب ابنا طلحة وأربعة من أشراف قريش بالتتابع فقُتلوا، الواحد منهم بعدالآخر.

وكان النبي بالقرب من سعد بن أبي وقاص النشاب الماهر يناوله السهام ويمدح حذقة في الرماية، وكان بعض النساء المسلمات يطفن في ميدان القتال حاملات على ظهورهن قرب ماء ليشرب منها المقاتلون والجرحى، فخرق سهم ثوب إحداهن مولاة النبي أم أيمن، فوقعت مكشوفة الساقين من الخوف، فناول محمد، وقد أزعجه ذلك، سهماً غير ذي نصلٍ سعد بن أبي وقاص، فطعن به سعد أحد الأعداء فتبسم محمد.

ولم يحرم شرب الخمر تحريماً مطلقاً على المسلمين قبل غزوة أحد، فشرب مسلمون كثيرون منه ليزيدوا شجاعة، وأسكرت حرارة الإيمان بعض المسلمين من غير أن يشربوا الخمر، ومن هؤلاء شيخان مسلمان قد حضرا، غير معلنين أحداً، لينضما إلى المجاهدين، وينالا شرف الشهادة، فزجا بنفسيهما في المعركة عند اشتباك الفريقين، فقتل المشركون أحدهما وقتل المسلمون الآخر لجهلهم أمره.

وأراد أنس بن النضر أن ينال ما فاته ببدر، فقال للمسلمين وهم يرتدون من أحد:

"أين تذهبون؟ إنني أجد هنا ريح الجنة*".

ثم قتل فوجد به ثمانون ضربة، فما عرفه إلا أخته، عرفته ببنانه[2].

---

(1) الجلائب: جمع جلبية، وهي ما يجلب إلى السوق ليباع فيها.

(2) البنان: الأصابع أو أطرافها.

http://www.al-maktabeh.com

تفاقم الخطب واشتد الخطر على المسلمين الذين ضغطهم العدو بعدده، فولى عثمان، وأبو بكر وعمر على ما يحتمل، ظهورهم فارين إلى المدينة حيث أشفق الناس، ولم يبق حول النبي سوى اثني عشر رجلاً للذب عنه ورمت نسيبة بنت كعب المازنية سقاء فيه ماء من يدها وحاربت بجانب النبي هي وزوجها وأبناؤها، وأمسكت بترسٍ منهزم، ودافعت عن البقعة خطوة خطوة فأصيبت بثلاثة عشر جرحاً، وأصيب ابنها فضمدت جرحه وأعادته ليقاتل.

ومن أهل المدينة رجل لم يلحق بجيش المسلمين في البداءة، ثم انضم إليه خوفاً من تعيير النساء له، فأبلى في القتال بلاء حسناً، ثم فضل الموت على الفرار ولم يصبر على الجراح فقتل نفسه بنفسه، وإنه ليسلم الروح إذ قال له أحد المسلمين:

"هنيئاً لك الشهادة!"

فقال: "إنني والله ما قاتلت على دين، ما قاتلت إلا على الحفاظ[1] أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمنا وتطأ سعفنا[2]، ووالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت".

فذهب النبي، بسبب هذا الرجل، إلى ضرورة انتظار الخاتمة للحكم في المصير.

مر رجلان بعد نصف قرن بحمص، وكان وحشي قد سكنها وأقام بها، فقال أحدهما للآخر: "هل لك في أن نأتي وحشياً فنسأله عن قتل حمزة كيف قتله؟" فخرجا يسألان عنه بحمص، فقال لهما رجل: "إنكما ستجدانه بفناء داره، وهو رجل قد غلبت عليه الخمرة، فإن تجداه صاحياً تجدا رجلاً عربياً وتجدا عنده بعض ما تريدان وتصيبا عنده ما شئتما من حديث تسألانه عنه، وإن تجداه وبه بعض ما يكون به فانصرفا عنه ودَعَاه". فمشى الصاحبان حتى أتياه فإذا هو شيخ كبير أحدب أبيض الشعر حاد البصر متكرش الوجه أسوده كأنه البغاث[3]، فسلما عليه فرفع رأسه وقال:

---

(1) الحفاظ: الذب بأنفة.

(2) السعف: جريد النخل وقيل ورقه.

(3) البغاث: طائر ضارب إلى السواد.

"أعبيد الله بن عدى بن الخيار أنت؟ أما والله ما رايتك منذ ناولتك أمك السعدية التى أرضعتك بذى طوى، فإنى ناولتكها وهى على بعيرها، فأخذتك بعرضتك[1] فلمعت لى قدماك حين رفعتك إليها، فوالله ما هو إلا أن وقفت على فعرفتهما".

فقال عبيد الله بن عدى: "نعم إننى عبيد الله بن عدى، جئناك لتحدثنا عن قتلك حمزة، كيف قتلته؟"

فقال وحشى: "أما إنى سأحدثكما كما حدثت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألنى عن ذلك، كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة ابن عدى قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق، فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق[2] يهد الناس بسيفه هدا ما يقوم له شىء، فوالله إنى لأتهيأ له أريده واستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إلى يا ابن مقطعة البظور، فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوى فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة أعتقت، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها .. ثم قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فلم يرعه إلا بى قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق، فلما رآنى قال: "أوحشى؟" قلت: "نعم يا رسول الله"، قال: "أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة؟" فحدثته كما حدثتكما .. فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتى التى قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائماً فى يده السيف، وما أعرفه، فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية

---

(1) العرضة: الجلد الذى يكون فيه الصبى إذا أرضع ويربى فيه.

(2) الأورق: الذى لونه بين الغبرة والسواد.

الأخرى، كلانا يريده فهززت حربتى، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه، وشد عليه الأنصارى فضربه بالسيف، فربك أعلم أينا قتله، فإذا كنت قتلته، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قتلت شر الناس".

والآن أخذت قريش تجد فى قتل محمد، وقد قتل حامل لوائه مصعب بن عمير أمامه، فظن أن محمداً نفسه هو الذى قتل لما بينهما من شبه، فأذاع العدو ذلك، فزاد مرج أكثر المسلمين.

ومما وقع أن مالك بن الأصوم مر وهو هارب على خارجة الذى أثخنته الجراحة فكان يحتضر، فأنبأه بذلكن فقال له خارجة:

"إن كان محمد قد قتل فإن الله حى لا يموت، ارجع فقاتل فى سبيل الله" ورمى أربعة من المشركين بالحجارة النفر الذى ظلوا ثابتين حول النبى فشج النبى فى وجهه وكلمت[1] شفته، فجعل يمسح الدم بذيل ردائه وهو يقول متوجعاً:

"كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم!"

وخرجت وجنته بنصل سهم فدخلت حلقتان من حلق المغفر فيها فوقع فى حفرة، فأخذ على بن أبى طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، ثم ساروا إلى أن بلغوا رأس الشعب الذى التجأ إليه كثير من المسلمين، وحدب أبو دجانة على النبى ليكون ترسا له على حين كان أبو عبيدة بن الجراح ينزع حلقتى المغفر من وجه الرسول فسقطت ثنيتاه[2]، ومص مالك بن سنان الدم عن وجه النبى، ثم حضرت فاطمة وغسلت فك أبيها بالماء الذى أحضره على فى درقته[3]، ثم حرقت قطعة حصير ووضعت رمادها على الجرح قطعاً لنزفه ولأماً له.

---

[1] كلمت: جرحت.

[2] الثنية: واحدة الثنايا، وهى أربع أسنان فى مقدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من أسفل.

[3] الدرقة: هى الترس من جلود ليس فيها خشب ولا عقب.

ومر الفارس القرشي أبي بن خلف من هنالك فأبصر محمداً في الشعب فانقض عليه ليقتله، فلما دنا منه تناول محمد حربة طعنه بها.

انتهى القتال، وفضل القرشيون الذين كانوا قابضين على زمام الموقف شفاء غليلهم من جثث قتلى المسلمين، ونهب ما معها، ودفن قتلاهم الذين كانوا دون عدد قتلى المسلمين ثلاث مرات، وترك نسائهم يشتمن قتلى المسلمين، وقطع آذانهم وأنوفهم، وصنع قلائد وأساور ومناطق منها، على الاستفادة مما تم لهم من النصر، وبقرت هند صدر حمزة عن غيظ، وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها.

وطاف أبو سفيان في ميدان القتال لعله يجد جثمان محمد، وقد عرف فيه جثة ابنه حنظلة الذي قتل في صفوف المسلمين (؟)، ثم سار إلى الربوة التي كان النبي فيها مع اثني عشر رجلاً من صحبه، فصرخ بأعلى صوته قائلاً:

"أفي القوم محمد؟"

فنهى النبي عن الجواب، ثم سأل:

"أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟"

فلم ينل جواباً، فقال:

"أما هؤلاء فقد قتلوا، لو كانوا في الأحياء لأجابوا".

فلم يملك أحد صحابة النبي أن صرخ قائلاً: "كذبت يا عدو الله!"

فقال أبو سفيان: "كان النصر لنا!"

فقال أحد الصحابة: "لنا وحدنا إن شاء الله".

ثم نادى أبو سفيان: "إنه كان في قتلاكم مثل، واللهِ ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت .. إن موعدكم بدر للعام القابل".

ثم أخذ أبو سفيان يرتجز بصوت عالٍ قائلاً:

"أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم أحد بيوم بدرٍ، أعل هبل،أعل هبل".

الرسول قولوا له : "الله أعلى وأجل"

أبو سفيان: "ألا لنا العزى ولا عزى لكم".

الرسول: "ألا تجيبونه؟*"

الصحابة: "بماذا نجيبه يا رسول الله؟*"

الرسول: "أجيبوه الله مولانا ولا مولى لكم".

ابتعد القرشيون من غير أن يطاردوا جيش المدينة المنهزم، ثم جاء المسلمون ميدان القتال، فلما وجد الرسول عمه حمزة مبقور البطن ومجدوع الأنف والأذنين ساءه ما رأى فقال مغاضباً: "لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم"، فأوحى الله إليه:

﴿وإن عاقبتهم)وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ .

فعفا الرسول ونهى عن المثلة وقال : "أصبر واحتسب، جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السماوات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله".

وكان عدد قتلى المسلمين نحو سبعين، فكان الرجلان يدفنان في القبر الواحد حيث نالا الشهادة.

وقال النبي وهو قائم على القتلى: "الله أكبر"، غير مرة، ذاكراً أنه سيكون شاهداً لهم يوم القيامة.

ونهى النبي عن غسل جثث القتلى وقال: "ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة وجرحه يدمى، اللون لون دم والريح ريح مسك".

وأذن النبي في البكاء على القتلى لما في ذرف الدموع من التنفيس، وإنما نهى عن نتف الشعور وخمش الوجوه وشق الجيوب والنياحة التمثيلية.

ونهك التعب جنود المسلمين الباقين فصلوا قعوداً، وكانت الليلة عسيرة على المسلمين فتساءلوا عما يصنعه العدو الغالب، والمسلمون قد أصابهم من الغلب والهزيمة ما علمت، ثم أمر النبى بالرجوع إلى المدينة، ثم عرض ما بقى من رجاله، ولم يجرؤ أبو سفيان على مهاجمة محمد خشية أن يكون قد نال من المدينة المدد، بل سار إلى مكة، ولما كان الغد، وكان يوم الاثنين عن لأبى سفيان أن يعود فيبيد المسلمين، بيد أن محمداً رأى سلوك سبيل الحزم فنفخ، مع جرحه، روح الشجاعة فى أصحابه، على ما أصابهم من وهن ونصب، وجد فى طلب العدو إلى أن بلغ حمراء الأسد، فمكث بها أربعة أيام مواجهاً للعدو موقداً النيران فى الليالى لتكون دليلاً على عدم انثنائه، فلم يسع العدو إلا الرجوع إلى مكة، فعاد محمد وصحبه إلى المدينة حيث صعب الوضع.

رفع خصوم النبى فى المدينة رؤوسهم، فصار اليهود والمنافقون يضحكون ويقولون إن غلبه داحض لرسالته، وإن انتصاره ببدر إذا كان دليلاً على عون الله فإن قهره بأحد برهان على أنه قائد لا نبي، وبلغ عبد الله بن أبي من القحة ما طرد معه من المسجد فتدخل النبى فى الأمر فحال دون إيذائه، ثم رد القرآن على أولئك بأن جاء فيه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ[1] بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وضاعف محمد، الذى أبدى من الحزم ما تعقب به العدو غداة قهر المسلمين، جهوده بعد واقعة أحد، وعزم على جعل المدينة قبضته وإعداد جنوده وشغل أعدائه، ونظم كتيبة للفرسان وأصل للدواب ناهياً عن تربية البغال، مقبلاً على تربية الخيل.

وقَدِم شيخ بنى عامر أبو براء على النبى بالمدينة، فترجح بين المداهنة والإهداء والوعيد المقنع والتعاهد المؤدى إلى السيادة على نجد.

[1] تحسونهم: تقتلونهم قتلاً شديداً.

http://www.al-maktabeh.com

فسار فريق من ركبان المسلمين إلى نجد التى كانت سياستها المحلية أعقد من ذنب الضب، وليس عندنا إيضاح كاشف عن شأن أبى براء الذى قال إنه جار لهؤلاء المسلمين، والذى قد يكون قاصداً الاستعانة بهم على منافسة شيخ بنى سليم عامر بن الطفيل، وإنما نعلم أن عامر بن الطفيل قتل رئيس كتيبة المسلمين وأراد أن يسوق بنى عامر إلى قتل المسلمين الآخرين، فأبى بنو عامر اقتراف هذه الخيانة، فانقض بنو سليم على هؤلاء المسلمين الذين نزلوا بئر معونة فقتلوهم على بكرة أبيهم خلا رجل أعرج كان يحرس الجمال، فاستطاع أن يفر إلى الجبل.

وما حل بالمسلمين فى بئر معونة كان مصيبة عليهم، لا بعدد قتلاهم الذى كان أكثر مما يبدو وكان يعدل ما بأحد، بل لما نكب به نفوذ محمد بين القبائل البدوية، وآلم ذلك محمداً فصب اللعنات على الخائنين واعتكف شهراً، وحدث ما كان يؤدى إلى حرب من أجل هذه المصيبة، فقد وقع أن مر مسلمان من ذلك المكان وشاهدا الطير تحوم على قتلى بئر معونة فأراد الثأر بهم، فقتل أحدهم يهوديين على أنهما من العدو، فقال النبى "لأدينهما[1]"، وإن النبى ليفاوض فى ذلك بنى النضير من اليهود وبالمدينة إذ ظهر منهم ما اعتقد به أنهم يعملون على خيانته، وهم الذين كانوا يحوكون الدسائس، فأراد طردهم من المدينة منذ زمن لو لم تعقه غزوة أحد عنه.

قام محمد من الاجتماع ببنى النضير بغتة، وخرج راجعاً إلى بيته وسلح أصحابه، ثم بعث إلى بنى النضير يأمرهم بالجلاء فى عشرة أيام، فترددوا وشجعهم على الثبات عبد الله بن أبى المنافق الذى وعدهم بالمساعدة، فلم يخضعوا لما أمرهم به النبى فحاصرهم وهم فى حصونهم البعيدة من المدينة ثلاثة فراسخ، وأمر بالتحريق فى نخيلهم ، ولما أيسوا من نصر عبد الله بن أبى لهم اضطروا إلى التسليم بعد حصار ستة أيام، فأذن لهم النبى فى الجلاء عن المدينة على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[2]، فصودرت بذلك

---

[1] ودى القاتل القتيل بدية: أعطى وليه دينه.

[2] الحلقة: السلاح كله وأصله خاص بالدروع.

أسلحتهم وما خلوا من الأموال، والمسلمون أصابوا الغنائم فى هذه المرة بغير قتال فجعلها القرآن للنبى، فقسمها النبى على المهاجرين حتى لا يظلوا عالة على الأنصار.

حمل بنو النضير نساءهم وأبناهم وأمتعتهم على ستمئة بعير، وكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[1] بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فتوجهوا إلى الشمال، وكانت معهم الدفوف والمزامير، وكانت القيان[2] اللابسات ثياباً صفراً مزخوفة يعزفن حلفهم، وذلك للإعراب عن عدم الأسف على مغادرة المدينة، وهكذا مروا من سوق المدينة سائرين إلى الشمال، ومنهم من سار إلى الشام، ومنهم من سار على الواحة اليهودية الكبرى خيبر الواقعة فى منتصف الطريق.

وما كان محمد ليغفل عما أصاب عاصم بن ثابت ورفقاءه، وما أصاب المسلمين فى بئر بعونة، فأراد أن يؤدب الأعراب الذين جاء فى القرآن عنهم: ﴿الأعرَابُ أشد كُفُراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أن لا يَعلَمُوا حُدُودَ مَا أنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِه والله عَلِيم حكيم، وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ، فخرج محمد وفريق من أصحابه فجأة من المدينة وأوغلوا فى نجد، وكان الحر شديداً، وكانوا يتناوبون على الجمال، ويعصبون أرجلهم بالخرق حفظاً لها من الرمال المحرقة والحجارة الحادة، ونقبت[3] قدما أبى موسى وسقطت أظفاره من شدة الحر، وكان على المسلمين أن يصلوا خمس مراتٍ كل يوم فى أثناء سفرهم، فلما بلغو منطقة الخطر صلى النبى، وأصحابه صلاة الخوف متوجيهن إلى مكة، وذلك بأن صلى بطائفة منهم ثم سلم وطائفة مقبلون على العدو الحاضر أو الغائب، فجاءوا فصلى بهم ثم سلم، وكان يصلى على الخيل أحياناً، فالحق أن هؤلاء السذج الشداد عدوا السماء قبة دائمة لأرضٍ رغبوا فى جعلها معبداً واحداً يعبد فيه الله بجانب الموت المتوعد، والحق أنهم تحولوا بما صبه زعيمهم النبى، فيهم من حرارة

---

(1) نجاف الباب: العتبة التى بأعلى الباب.

(2) القيان: جمع قينة وهى الأمة أو الغنيمة.

(3) نقبت: تخرقت.

الإيمان، فتهيئوا بهذا الإيمان في تلك، البقعة الصحراوية القاحلة، وذلك بين مناوشتين هزيلتين أو بين مرحلتين موهنتين أو بين غزوتين وضيعتين لأن يقبلوا الدنيا.

انقض المسلمون، بما أسرعوا به من السير، على بعض غطفان، فتفرق هؤلاء في رؤوس الجبال تاركين بعض أمتعتهم ونسوة.

وقفل النبي وصحبه، فنام النبي تحتُ سمرة[1] في نهار حار بعد أن علق بها سيفه المشرفي الجميل المحلى مقبضه بالفضة، فاستيقظ محمد فوجد أمامه أعرابياً قد أخذ سيفه واستله وجعل يهزه وهو يقول له: "من يمنع مني؟"

النبي ثابت الجنان: "الله!"

فبهت الأعرابي، وسقط السيف من يده، فأخذه النبي وقال: "من يمنعك مني؟"

الأعرابي: "آه! لا أحد*"

النبي: "والآن تعلم الرحمة من ربي*.."

---

(1) السمرة: شجرة من العضاه، وليس في العضاه أجود خشباً منها.

الفصل السابع عشر

الخندق

﴿هُنَالِكَ ابتُلِيَ المُؤمِنُونَ وَزُلزِلُوا زِلزَالاً شَدِيداً... وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ (الأحزاب:٢٥)

http://www.al-maktabeh.com

كان أبو سفيان قد تغنى بما ناله من النصر فى مساء واقعة أحد وقال: "إن موعدكم بدر للعام القابل" فعقب ذلك شبه هدنة بين المسلمين وقريش، فلما حل الأجل ذهب النبى على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه فلم يجد ببدر أحداً، لمجاعة أصيب بها المشركون، فاكتفى المسلمون بالتجارة فى سوق بدر وابتاعوا منها بعض السلع.

ولكن الحرب لم تلبث أن أوقدت، فقد تحالفت قريش واليهود ومشركو الأعراب وتحزبوا على الإسلام واستعدوا للقضاء عليه، وحرض بنو النضير الذين هاجروا إلى خيبر الناس على النظام الجديد الذى يهدد فوضى بلاد العرب ووصفوا محمداً بالطاغية الذى يريد إخضاع جميع القبائل بالسيف، وأهرع أعراب تهامة ونجد إلى نصرة قريش، وكان للأحزاب فى المدينة العيون من بنى قريظة اليهود الذين تمنوا إبادة حلفائهم المسلمين جهراً تقريباً.

زحف الأحزاب فى شهر شوال من السنة الهجرية الخامسة فى عشرة آلاف جندى إلى المدينة، وكان عدد جنود المسلمين ثلاثة آلاف، ولم تعرف الحجاز جيشاً كثيفاً كذلك فيما مضى.

وكان الخروج من المدينة لمنازلة جيش الأحزاب يعنى مخاطرة كالتى كانت فى أحد، وما كان محمد ليرضى بمقاتلة عدو كثير العدد فى ميدان مكشوف مع إمكان اعتماد العدو على مساعدة اليهود والمنافقين له سراً، فجعل محمد المدينة فى حالة دفاع، ووضع الأولاد والنساء فى الأحياء المحصنة، وأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق واسع حول المدينة لشل صولة المهاجمين، وحفر الخنادق مما لم تعرفه جزيرة العرب، فأثار حفر ذلك الخندق عظيم الحيرة والعجب، ولسرعان ما أدرك محمد بعبقريته العسكرية قيمة أمر يكون خير ما تدافع به مدينة مؤلفة من أحياء منفصل بعضها من بعض، وكان لابد من استعانة محمد بنفوذه الكبير فى حمل المسلمين على الرضا بهذا الطراز الغريب من الحرب وعلى صنع ما يرونه مزرياً من الحفر ونقل التراب فجعل من نفسه القدوة.

بدئ بحفر الخندق فى صباح يوم بارد من أيام الشتاء، فصار محمد ينقل التراب على كتده[1] وهو شبه عارٍ، وصار يرى على صدره الناصع البياض الذى اغبر مسربة[2] دقيقة كما لو خطت بقلم من العنق إلى السرة، وكان النبى يرتجز هو ينقل التراب بكلمات عبد الله بن رواحة:

والله لـــولا الله مـــا اهتديـــنا ولا تصـــــدقنا ولا صـــــلينا
فأنــــزلن ســــكينة عليـــنا وثبـــت الأقـــدام إن لاقيـــنا
إن الألى قـــد بغـــوا عليـــنا وإن أرادوا فتـــنة أبيـــنا

ورفع به صوته: أبينا! أبينا!

اقتدى الناس بالنبى، فكان إذا ما مر حاملاً على متنه قفة مملوءة تراباً استقام أصحابه الذين كانوا يألمون من الجوع والتعب ليقولوا هاتفين:

نحـــن الذيـــن بـــايعوا محمـــد علـــى الإســـلام مـــا بقيـــنا أبـــدا

فيقول النبى مجيباً لهم:

"اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فبارك فى الأنصار والمهاجرة".

وكان النبى يبدو طليق الوجه، وكان يمزح حتى فى الضر[3]، ومن ذلك أن جابر بن عبد الله صنع للنبى شيئاً من خبز الشعير مع الدهن، فأحب أن ينصرف النبى وحده معه إلى منزله، فلما قال للنبى ذلك، أمر النبى صارخاً يصرخ: "أن انصرفوا مع رسول الله إلى بيت جابر بن عبد الله!"

---

(1) الكتد: مجتمع الكتفين.
(2) المسربة: الشعر وسط الصدر إلى البطن.
(3) الضر: سوء الحال والشدة

دنا العدو، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وقال المنافقون ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، وقال أحدهم:

"كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب على الغائط!"

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً، قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً، قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (الأحزاب:١٩)

وما كاد الخندق يتم حتى حضر العدو، فصف محمد جنوده الذين كانوا ثلاثة آلاف خلف الخندق، بعد أن استعمل على المدينة ابن أم مكتوم الأعمى الوفي المخلص، وذلك ليقوم بقيادتها في غيابه ويراقب فريق الساخطين فيها.

تقدم أبو سفيان وجنوده، فوقفوا حيارى مضطربين أمام الخندق وأمام وابل من نبال المسلمين ثم عسكروا وحاصروا المسلمين، وظل الفريقان متقابلين نحو شهر وهما يتبادلان الشتائم الأوميرسية من غير أن يتقاتلا بجد، وكان المسلمون يطوفون حول الخندق ليل نهار اجتناباً لمباغتتهم من إحدى النقاط، وكان العمل شاقاً وكان من المحتمل أن يصبح الموقف خطراً ما طال الحصار وما عاهد بنو قريظة اليهود المشركين على المسلمين، فرأى محمد أن يلجأ إلى السياسة وأن يقضي على حلف المشركين بمفاوضته غطفان على انفراد، فعرض عليهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عنه وعن أصحابه، فسأل رئيس الأوس سعد بن معاذ النبى الذى عقد مجلساً حربياً للتشاور:

"يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟"

النبى: "بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما".

سعد بن معاذ: "يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزانا بك نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم".

النبى: " فأنت وذاك".

وجد عكرمة بن أبى جهل ونوفل بن عبد الله المخزومى وعمرو بن عبد ود مكاناً ضيقاً فى الخندق، فاقتحموه، فدعوا صناديد المسلمين إلى النزال، فأخذ عمرو بن عبد ود يجول فوق حصانه ملهوب الذى كان على رأسه مرآة ساطعة وهو يقول:

"من يبارز؟"

فبرز له على بن أبى طالب، فقال له عمرو:

"والله مام أحب أن أقتلك".

فاقتحم عمرو عند ذلك عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علىّ وهو يقول:

"لم يبق لى مفر، فسأريح الناس منك ومن شرك*".

عمرو: "والآن*؟"

على: " حضر ابنك ليعينك!*"،

التفت عمر فأبصر على نجاح خدعته فقطع ساقه، فقال عمرو:

"عملك خدعة!*"

علي: " الحرب خدعة*".

أمسك عمرو بساقه المقطوعة وطرح بها على عليّ فقتله علي.

وأصيب في تلك الأثناء سعد بن معاذ بجرح بليغ، وأخذ من اقتحم الخندق من قريش يعود منه، فوقع نوفل بن عبد الله المخزومي في الخندق مسيناً تقدير نتائج صولته فرماه الناس بالحجارة فجعل يقول:

"قتلة أحسن من هذا يا معشر العرب!"

فنزل إليه علي فقتله، ثم طارد علي عكرمة بن أبي جهل ورماه بحربة في حقوه[1].

وطارد عمر بن الخطاب المشركين وشتمهم إلى ساعة متأخرة فنسي صلاة العصر فلم يصلها إلا عند الغروب.

فقال النبي: "والله ما صليتها".

بئست الأحزاب فأخذت تفكر في العودة، فخاف بنو قريظة اليهود أن يصبحوا عرضة لانتقام المسلمين إن رجعت الأحزاب، فاستمهلوا الأحزاب وأبانوا أن لهم النصر إذا ما أعطوا بضع كتائب وباغتوا المدينة ليلاً، وأرسل محمد المدد إلى المدينة في الوقت المناسب وعاد إلى ما كان قد فكر فيه من فصم عرا الأعداء، فاعتمد في تنفيذ ذلك على رجل من غطفان، فذهب هذا الغطفاني إلى بني قريظة ونصح لهم ألا يقاتلوا مع الأحزاب حتى يأخذوا منهم رهناً، ثم أخبر قريشاً أن بني قريظة عزموا على خيانتهم بأن يطلبوا منهم رهناً ليسلموهم إلى المسلمين.

فلما بعث أبو سفيان إلى اليهود من يخبرهم بأن يستعدوا لمناجزة محمد والفراغ منه طلبوا الرهن وقالوا إنهم لا يقاتلون يوم السبت، فأيقن المشركون بمخادعة بني قريظة لهم فلم يقوموا بهجومهم المنتظر، وهذا إلى ما كان المشركون يقاسونه من الصعوبة في الحصول على الميرة والعلف على الخصوص.

---

[1] الحقو: الخصر.

http://www.al-maktabeh.com

هنالك هبت ريح شديدة باردة وهطل المطر مدراراً فى بدء فصل الشتاء وارتبك معسكر الأحزاب فى بضع دقائق بما لم يسمع بمثله ، فاقتلعت العاصفة خيام الأحزاب وأطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم وشتتت جمالهم وخيولهم وقذفت فى قلوبهم الرعب، فأعلن محمد أن ذلك من عمل الملائكة، وعز الأعراب ذلك إلى الجن، ثم زاد عيون المسلمين الطين بلة فأضحى الأعراب لا يفكرون فى غير الفرار من ذلك المكان اللعين تاركين المدينة النحسة للمسلمين ولنبيهم، وأبصر أبو سفيان عجزة عن إعادة النظام على نصابه، ولم يرد أن يبقى هو ومشركو قريش وحدهم فأمر بالتقهقر ، وهكذا ختم أمر الخندق، وإن شئت فقل غزوة الأحزاب، بغير قتال وبغير ضحايا تقريباً (قتل فيها ثلاثة من المشركين وستة من المسلمين)، مع ما كانت تهدد به الإسلام بالفناء إلى الأبد.

قال النبى بعد انصراف الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا"

ود المسلمون بالمدينة لو ينالون شيئاً من الراحة بعد غزوة الأحزاب، وما كان محمد ليصغى إليهم، فلما رجع من الخندق ووضع السلاح واغتسل اعتقد أنه سمع جبريل يقول له فى الصباح:

"قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم".

فقال النبى: "فإلى أين؟"

فقال جبريل: "هاهنا!" وأشار إلى بنى قريظة الخائنين.

والحق أنه كان من الصعب ألا يصفى المسلمون حسابهم مع بنى قريظة اليهود الذين انحازوا إلى العدو أيام غزوة الأحزاب.

فقد أمر النبى أصحابه بالزحف إلى بنى قريظة مساء وحاصر حصونهم صباحاً، ولما دنا من حصونهم بدأ يشتمهم، فقالوا:

"يا أبا القاسم ما كنت جهولاً".

فبلغ ذلك من إثارة محمد ما سقط معه رمحه وبردته وبلغهم على عزمه على مهاجمتهم بما لا هوادة فيه، فدافع اليهود قانطين مدة خمسة وعشرين يوماً، فلما حان وقت التسليم طلب حلفاؤهم الأوس إلى النبى أن يعاملهم بمثل ما عامل به بنى النضير الذين كانوا حلفاء الخزرج، فرئى أن ينزلوا على حكم رئيس الأوس سعد بن معاذ، وكان اليهود يطمعون أن يرأف سعد بهم، وكان النبى يعلم أن سعداً، الذى جرح فى غزوة الخندق جرحاً خطراً، حاقد على اليهود كثيراً لما أدوا إليه من إيقاد تلك الغزوة.

أتى سعداً قومه فحملوه على حمار وطأوا له بوسادة من أدم[1] ممسكين بإبطيه، وكان رجلاً جسيماً.

فلما أتو قالوا "يا أبا عمرو! أحسن فى مواليك!"

فقال لهم: "لقد أتى لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم".

فكان حكمة حين دنا من النبى: "إنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء".

فقال النبى: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[2] ".

ثم استنزلوا فحبسهم النبى بالمدينة فى إحدى الدور فقضوا الليل فيها لا يأكلون سوى ما يتلقفونه من التمر بأفواههم وبطونهم على الأرض، ومكثوا على ذلك إلى أن تم نقل أموالهم وأسلحتهم إلى المدينة فى ثلاثة أيام، ثم حفر خندق كبير فى سوق بالمدينة،ثم جلس محمد على حافته وأمر علياً والزبير بقتل أولئك المحكوم عليهم، فكانوا ما بين ستمئة وسبعمئة، ولم يقتل من نساء بنى قريظة إلا امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى[3] على أحد المسلمين فقتلته، ونال ثابت بن قيس العفو عن يهودى كان قد أنقذ حياته، فسأله اليهودى عن بعض أقربائه فعلم من حاميه ثابت أنهم قتلوا، فقال اليهودى لثابت:

---

(1) الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ.

(2) الأرقعة هنا: السماوات.

(3) الرحى: الطاحون.

"إنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتله دلو ناضح[1] حتى ألقى الأحبة".

فقتله ثابت بيده كما طلب.

دوام على والزبير على القتل النهار كله، ولم يتم القتل المرهوب إلا ليلاً على ضوء المشاعل ومحمد جالس على حافة الخندق ونساء اليهود باكيات.

وكان ماغنمه المسلمون من بنى قريظة ، خلا البيوت والأراضى والأمتعة والمواشى والدواب، ٣٠٠ درع و ١٠٠٠ رمح و٥٠٠ حربة، فقسم بينهم، فكان الخمس للرسول حتى ينفقه على الفقراء وآله وشؤون المسلمين ، وجعلت حصص الفرسان وعددهم ٣٦، من الغنائم أكثر من حصص غيرهم، وبيعت الذرارى والنساء فى نجد واشترى بالثمن سلاح، واصطفى محمد لنفسه من نسائهم ريحانة، فظلت زمناً طويلاً يهودية وهى فى ملكه.

ثم مات سعد بن معاذ بعد بضعة أيام، فقد انفجر جرحه، فأخبر النبى أن مصيره إلى الجنة، وأشاد القرآن بذكر هذا الفتح فى الآيتين ٢٦ و ٢٧ من سورة الأحزاب، كما أشادت التوراة بذكر ما حدث لكنعان.

[1] فتلة دلو ناضح: مقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا أخرجت فيصبها فى الحوض يفتلها أو يردها إلى موضعها.

الفصل الثامن عشر

رسول الله

القرآن، التوحيد، أدب الدين، أركان الإسلام الخمسة

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ (من القرآن)

"ويستوى فى الركون لما يجئ به الأنبياء المالك والمملوك والسلطان والصعلوك والعاقل والجاهل والمفضول والفاضل" .(من رسالة التوحيد لمحمد عبده)

"لم يقم دين على الكذب" (بالانش)

"إذا كان هذا هو الإسلام، أفلا نكون جميعنا مسلمين؟"

(غوتـــــــــــــــة)

http://www.al-maktabeh.com

تاريخ البشرية مجموعة من الوحى والإلهامات، فترن بين وقت وآخر صرخة ويدوى صوت فى الليل ويسمع نداء بين الصمت، فيصحو رجل مرتجفاً ليسير على طريق الحق هائماً كإلياس وكإبراهيم الذى فر من بلاد كلدة المحرقة، ويمشى ذلك الرجل غير متوانٍ ويدواوم علىالقول إلى أن يوقظ الآخرين من نومهم العميق.

وهكذا تقوم نجاة البشر على سلسلة من الأفعال الحرة الطليقة، وتغذى طريق الخلاص بفيوض الشهداء والأولياء على الدوام، وهكذا نهض محمد ليدعو قومه إلى دين الواحد الأحد، ولينبه غافل بعض آسيه وإفريقية وليحرر من رق التقليد جميع الذين يدركون حقيقة رسالته وليجدد بلاد فارس الناعسة وليحث نصرانية الشرق التى أفسدتها التأملات والفاترة فحلها الإيمان غير الملتحم.

وشأن الأنبياء فى العالم كشأن قوى الطبيعة الهائلة النافعة، كشأن الشمس والمطر، كشأن عواصف الشتاء التى تهز الأرض وتثيرها لتتزين ببساط أخضر فى بضعة أيام، ويقدر الأنبياء بما أسفرت عنه رسالاتهم من النتائج، وأحسن شهادة لهم ما يورثونه من راحة العقول وسكينة القلوب وشدة العزائم والصبر على الشدائد وشفاء الأخلاق المريضة والأدعية والصلوات التى تصعد فى السماء.

يأتى الأنبياء، وهم الذين لا حول لهم ولا معين، وهم الذين يقاتلهم الناس غروراً، بسر الحرية العليا، فيقولون خير للإنسان أن يعصى الناس من أن يعصى الله الذى يساوى الجميع أمامه وحده، والذى يجب على الجميع أن يسجدوا له دون سواه، ويقولون إن المقصد والمعنى أفضل من اللفظ والمبنى.

قام محمد، الأمى الجاهل لكل ما لا يمت إلى العلم المطلق بصلة، والنقى الفطرى الكامل الطليق من فساد العقل والقلب، يدعو العلماء ليفقهوا ما يقولون، ويقوم ما يتيه فيه الحكماء من الطرق المعوجة، فالناس حين يستمعون لكلامه الموحى إليه به ولأمثاله الملائمة لروح الزمن ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ يعود إليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم خاشعين لله عالمين كيف يسلكون أحد النجدين مهتدين

إلى مبدأ حي ناطق لا يجدون مثله في نصائح الفلاسفة وآراء أقطاب السياسة، وكان ظهور محمد في دور من أشد أدوار التاريخ ظلاماً، في دور كانت الحضارات التي قامت في البلدان الممتدة من بلاد الغول الميروفنجية إلى بلاد الهند مضطربة متداعية.

وبين محمد ومن تقدمه من أنبياء بني إسرائيل شبه قوي، فكان، وهو نبي بمكة، كإشعياء في إسرائيل، وكان، وهو حاكم بالمدينة، كيشوع في كنعان وتسمى بمحمد[1]، وحامل هذا الاسم هو من ينتظره اليهود فأبوا أن يدعوه بغير أبي القاسم، وبلغ محمد الأمي أنه بعث في الأميين رسولاً.

وكان محمد يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن يكون أميناً مصغياً أو سجلاً صادقاً أو حاكياً معصوماً لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أم الكتاب، الكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة، وسواء أكان هنالك فرق برهاني، إن لم يكن وجدانياً، بين القرآن السماوي والقرآن المحفوظ في صدور الناس أو المكتوب في صحف أو في عظام أو في رق أم لم يكن، وسواء أكان هنالك فرق بين الكلام الأزلي والكلام الزمني أم لم يكن، نرى أن إدراكنا النسبي للمراحل الربانية في العالم أيسر من إدراك معاصري النبي العربي وعلماء المسلمين لها، فنحن نرى ملاءمة القرآن الوثيقة للأحوال، وأنه نزل يوماً فيوماً تبعاً لمقتضيات سير الإسلام ومصالحه متناسخاً، إن لم يكن متناقضاً، مقوماً لأحكامه مدارياً فيها ضعف المسلمين مجارياً لاعتراضاتهم، وعند النبي أن الرسالة فوق الرسول "وأن آية من القرآن أفضل من محمد وآله*".

ولابد لكل نبي من دليل على رسالته، ولابد له من معجزة يتحدى بها مختلفة عن كرامات الأولياء، فقد تحدى موسى سحرة فرعون بأن يأتوا بمثل ما أتى به من المعجزات، وحنى موسى شعبه العبري الحرون بنير من المعجزات الساطعة، ولم يتكلم أحد مثلما تكلم عيسى الذي هو كلمة الله كما شهد به القرآن.

---

[1] انظر إلى تعليقنا على رأي المؤلف في اسم محمد على هامش مقدمة المؤلف (المترجم).

والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه التى لا تزال لغزاً مذبذباً إلى يومناً يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله ، وكان هذا التحدى أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته، وهذا لا يعنى الإشارة إلى قيمة أدبية خاصة فى القرآن، ما دام محمد كارها للشعراء محترزاً من أن يكون أحدهم، وما دام هنالك فرق بين وحى الله ونفث الجن، ولا ريب فى أن كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة فى حياته الخاصة، تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب فى أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سر نفوذه وعظيم نجاحه.

ولا يستطيع أن يشك اليوم فى إخلاص محمد، فحياة محمد، مع أغاليطه التى لم ينكرها قط، شاهدة على اعتقاده صدق رسالته التى حمل أمانتها الثقيلة ببطولة، وإن قوة إبداعه وعبقريته الواسعة وذكاءه العظيم وبصره النافذ الحديد وقدرته على ضبط نفسه وعزمه المكين وحذره وحسن تدبيره وطراز عيشه مما يمنع عد ذلك الموحى إليه الموهوب الجلى مبتلى بالصرع.

ولم يدر فى خلد محمد ثانية أن يجعل كلامه ملائماً لذهنية معاصريه حتى يسهل إقناعهم واجتذابهم إليه، فإذا كان محمد قد استمال الناس إليه فلم يكن ذلك بما هو هين سهل، بل بعرضه عليهم رسالته الساطعة القاطعة الحادة كالسيف المنفصلة عن نظراته الشخصية، وإذا عاد محمد فى المدينة غير صابر ولا خاضع كما كان فى مكة فلتبدل الأحوال، وفى ملاءمة الأحوال سر البقاء، والرجل، كإنسان، قد هفا وضعف أحياناً ما دام العمل دليلاً على الزكاء ولكنه كنبيٍ، ظل مخلصاً ثابتاً لا يلوى وهو، وإن أمكن خطأه، لم يكذب قط، وكيف يتصور المرء تحول الرجل إلى كاذب بغتة (وهو الذى تتعذر نسبته إلى عدم الإخلاص فى بدء بعثته) ما ظل يرى انتصاراته دليلاً على تأييد الله لرسالته؟ وكيف كان يجرؤ على إفساد رسالته فى وقت تأيدت فيه؟ وكيف يُحَدث عن اللاشعور ما اسفر الاشعور عن ثمرات الحقيقة؟

وكانت هفوات النبى نفسها تدل على أن عظمته الحقيقية أتته من الله ومن وحى الله إليه، فلولا الله لشعر بأنه أعزل ضعيف.

وكان النبى يدعو فى الليل: "رب ثبت قلبى، رب لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين*".

فقالت له زوجته أم سلمة: "لماذا تقول هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟*".

فقال لهم: " يا أم سلمة كيف أطمئن وقد ترك الله النبى يونس ذات مرة اللهم اغفر لى ما تقدم من ذنوبى وما تأخر وما خف منها وما عظم وما ظهر منها وما بطن*" ، "اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنى من خطاياى كما يغسل الثوب بالماء والثلج والبرد".

وفى القرآن عتاب لمحمد حين تولى أن جاءه الأعمى، وحين دعا على أعدائه بشدة وحين ونى تجاه زوجاته، إلخ.

وغفل المشتغلون بأمور النفس الحضريون، الذين افترضوا وجوده من الصرع والاستحياء والخيال المتقد، عن حياة الخيام فى الصحراء، وعما يجب أن يبديه الرجل فيها من الحذق والدهاء ليبقى زعيماً بسيطاً لعصبة من الأعراب[1]، فحياة محمد كانت منتظمة موزونة قبل بعثته بما يشمل النظر، وما انفكت تكون كذلك بعدها إلا فى حالات الوحى، قال أرميا، كالأولياء الصادقين وكأنبياء بنى إسرائيل: "انسحق قلبى فى وسطى، ارتخت كل عظامى، صرت كإنسان سكران ومثل رجل غلبته الخمر من أجل الرب ومن أجل كلام قدسه" ومثل هذا ما قاله عاموس المدثر ببردته كمحمد، ولم تنشأ رؤى محمد ووحيه عن مرض فيه، بل كانت تبدو عليه علائم المرض بسبب الرؤى والوحى، وهنالك ظواهر مشتركة

---

[1] ذكر ماسينيون فى الصفحة ١٢٢ من رسالته عن الاصطلاح الفنى فى التصوف الإسلامى أن على الذى يود أن يعد محمداً مشترعاً ماهراً وازناً لأحكام القرآن ووحيه وزناً مصنوعاً "أن يتغافل عن الأمر الجوهرى القائل: إن محمد غير صانع للقرآن".

بين مريض الأعصاب أو المهوس وبين الموحى إليه الصادق، والأول منفعل غير فعال والآخر مبدع فاعل، ثم إن من الجائز أن يقال إن البنية المريضة قليلاً تساعد على التصوف ويزيدها التصوف مرضاً، والحق أن محمداً كان مبرأ من مثل هذه الأمراض على الدوام، فقد كان تام الصحة إلى أن بلغ سن الكمال، ولم تبد العوارض عليه بعد هذه السن إلا عند تقبل الوحى، وأنت إذا استثنيت هذا، وأنت إذا عدوت المرض الذى استولى عليه فى الستين من عمره، رايته لم يصب بغير وجع الرأس مرتين أو ثلاث مرات بسبب أسفاره الطويلة تحت وهج الشمس فيعالج بوضع المحاجم على رأسه.

وكان لمحمد بالوحى آلام كبيرة، وكان لمحمد بالوحى حالات مؤثرة كره أن يطلع الناس عليها، ولاحظ أبو بكر، ذات يوم، والحزن ملء قلبه، بدء الشيب فى لحية النبى فقال له النبى:

"شيبتنى هود وأخواتها: الواقعة والحاقة والقارعة".

وكان النبى يشعر بعد الوحى بثقل فى رأسه فيطبه بالمراهم، وكان يدثر حين الوحى فيسمع له غطيط وأنين.

وكان النبى إذا نزل الوحى عليه يتحدر جبينه عرقاً فى البرد.

طلب يعلى بن أمية من عمر بن الخطاب أن يريه النبى وقت الوحى، فحدث أن أتاه الوحى فى طريق مكة، وذلك بعد أن سأله بعضهم عن العمرة[1]، فقد صمت محمد هنيهة، ثم أتاه الوحى فأدنى عمر يعلى بن أمية ورفع طرف الثوب عن وجهه وهو يوحى إليه، فإذا هو محمر الوجه، وهو يغط كما يغط البكر[2]، فلما سرى عنه بعد خدر قال: "أين الذى سألنى عن العمرة آنفاً؟.."

---

(1) العمرة: اسم من الاعتمار وهى لغة القصد إلى مكان عامر، وشرعاً أفعال مخصوصة تسمى بالحج الأصغر، وأفعالها أربعة الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة والحلق.

(2) البكر: الفتى من الإبل

http://www.al-maktabeh.com

وكان محمد، إذا ما خرج من نوبة الوحى، يتلو ما أوحى إليه من الآيات، فكان بعض المسلمين يحفظونه على ظهر القلب أو يكتبونه كما يمليه عليهم.

ويظهر أن زيد بن ثابت كان كاتبه المفضل، فلما أنزلت عليه: "لا يستوى القاعدون من المؤمنين" شكا ابن أم مكتوم ضرارته[1]، وكان زيد بن ثابت يكتب ذلك، فنزل عليه الوحى ثانياً، وكانت فخذ النبى آنئذ على فخذ ثابت فكادت فخذ النبى ترض فخذ من ثقل الوحى، ثم تلا محمد: "غير أولى الضرر.." بعد لا يستوى القاعدون من المؤمنين".

وكان الوحى يأتى النبى على أشكال مختلفة بعضها أكمل من بعض، فأحياناً يأتيه مثل صلصلة الجرس[2] أو تصفيق الأجنحة أو دوى كلام مشوش فيفصم[3] عنه وقد وعى ما قال، وهذا كان أشده وأقساه عليه، لما يؤدى إليه من الأوضاع الجثمانية الشاملة للنظر، وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً (على صورة دحية بن خليفة الكلبى الذى كان من جميلى رجال عصره أو على صورته) فيعى ما يقوله، وهذا الشكل الذى يعد أربع من السابق هو دون الرؤيا المباشرة الصادقة التى كانت تتفق للنبى فى بعض الأحيان، وهنا نذكر تقسيم علماء اللاهوت الكاثوليك للرؤى التى تتدرج من الرؤيا الحسيه إلى الرؤيا الخيالية فإلى الرؤيا الذهنية، فنقول: إن هنالك فرقاً بين وحى الأنبياء، الذى يسفر عن تبليغ رسالة أو نصوص شريعة أو أوامر قاطعة، وإلهام الأولياء النفسى الذى تفيض عنه الحياة الباطنية المتحولة.

وأوصى القرآن النبى فى أمر الوحى بالآية: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ به إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

وكان محمد، وهو البعيد من إنشاء القرآن وتأليفه، ينتظر نزول الوحى إليه أحياناً على غير جدوى، فيألم من ذلك، كما رأينا فى فصل آخر، فيود لو يأتيه الملك متواتراً.

---

(1) الضرارة: ذهاب البصر.

(2) صلصل الجرس: رجع صوته.

(3) أفصم عنه: انقطع عنه.

وأظهر ما فى أى القرآن التى انتهت إلينا هو عدم الترتيب وعدم الارتباط، ولم تدون الكتب المقدسة، على العموم، إلا بعد تبليغها بزمن طويل، أى حين يكون حفظها قد ضعف وتكون رواياتها قد كثرت، وهذا هو أمر القرآن الذى اختير له نص رسمى بعد النبى بسبعين سنة فاتلف ما سواه.

كان أربعة من الأنصار يحفظون القرآن على ظهر قلب حين وفاة النبى، وهم: معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود، وأشار عمر بن الخطاب على أبى بكر بجمع القرآن مع كره أبى بكر لذلك، ومع ما خامر زيد بن ثابت من الوساوس، ففوض أبو بكر إلى زيد بن ثابت أن يجمع القرآن بجمعه ما هو مكتوب من آياته على الفخار والخوص وعظام الكتف وما هو محفوظ فى صدور الرجال، ثم عهد الخليفة عثمان بن عفان إلى زيد بن ثابت وثلاثة من قريش فى إقرار نسخة واحدة للقرآن معتمدين فى ذلك على النسخة التى حفظت عند زوجة النبى حفصة، ثم أمر عثمان بحرق النسخ الأخرى، فاعترض عبد الله بن مسعود الذى قال النبى عنه: "استقرئوا القرآن من عبد الله بن مسعود" على هذه النسخة التى لم يشترك فى جمعها، فأمر عثمان بجلده جلداً شديداً، وأما آخر مصحف اعتمد عليه فهو المصحف الذى صنع الحجاج من أجله مثل ما صنع عثمان.

ولم يرتب القرآن ترتيباً منطقياً، بل وضعت الآيات، التى وجدت، بعضها بجانب بعض، وفتح القرآن بأطول السور، وهى التى أنزلت بالمدينة على العموم، وختم بأقصر السور، وهى التى أنزلت بمكة فى أوائل الرسالة، وفى القرآن تكرارا للآيات كثير، وفى القرآن حشر للآيات فى غير موضعها غير قليل كما هو واضح، وكيف يعرف فى القرآن وجود تحريف وحواش وحذف وإلى أى حد؟ وكيف تكتشف فى القرآن آيات لم تكن من غير الأحاديث التى نطق بها محمد بشراً لا من الكلام الموحى إليه به نبياً؟ يرى جعفر الصادق أن القرآن كان شاملاً لأسماء سبعة رجال من قريش فلم يبق منها سوى اسم أبى لهب، ويتهم الشيعة أهل السنة بأنهم حذفوا من القرآن ما يناسب علياً من الآيات، وكان أحد كتاب الوحى عبد الله بن سعد بن أبى السرح يتلهى بتبديل ما يمليه النبى عليه، ثم هرب إلى مكة لما كشف أمره مرتداً عن الإسلام، ثم عاد إلى الإسلام، ولا نزعم أننا نحل معضلة القرآن ، ونحن يمكننا

أن نذهب إلى أن نصوص القرآن صحيحة على العموم مع اختلاط آيه، وفى الأحاديث، على الخصوص، كان التحريف الجرئ.

ولم يكن محمد من علماء اللاهوت الذين يبحثون فى كنه الله، بل كان ثملاً من الله، فالله عنده هو الحق، هو واجب الوجود، ولم يكن العرب لينكروا الله العلى الخالق، بل كانوا يرونه فى أقصى السماوات فلا يخشونه إلا قليلاً، وكانوا لا يفكرون فى حبه، فيبدون له من التعظيم أقل مما للجن والأصنام التى كانوا يرجون منها نفعاً صحيحاً وعوناً محكماً.

والعرب، إذ كانوا يرون بعد الله وقرب الأصنام، كان لصنم كل قبيلة منهم كهان وعرافون ينطقون باسمه وحماة متعصبون يعارضون به الآلهة المجاورة، ثم جاء محمد فجعل الحق حاضراً بإفراط بعد تجريد مبهم ، ورجع الملائكة والجن إلى موضع التابع لا المتبوع، فكان الله بذلك أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وثبت وجود الله من وجوب موجود مسير للأمور شاهدٍ دائم على الحوادث، "لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، الله أكبر"، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن والواحد والحى والعلى والقوى والخالق والكبير واللطيف والمهيمن والعزيز والمجيد والعظيم والملك القدوس والقادر والقاهر والحكم العدل والرازق والحق والعليم والغنى والباقى والأزلى والوارث والحكيم والشهيد والمؤمن والهادى والحفيظ والرقيب والوهاب والحسيب والمجيب والمبدئ والمعيد والعفو والغفور والرحمن والرحيم.

ولله الحجة البالغة، ولا يسأل عما يفعل، وهو يحب العفو وهو الذى كتب فوق العرش: "إن رحمتى تغلب غضبى"، وهو يعفو عن العافين،وهو يسر بتوبة التائب أكثر من سرور أعرابى يجد ناقته الضالة فى البادية بعد أن ينهكه البحث عنها، وعلى الإنسان ألا يعيش إلا ليعبد الله والله غنى عن العالمين، وعلى الإنسان أن يبتغى وجه الله وأن يعمل لوجه الله، وكل شىء هالك إلا وجهه، وفى لاهوتية محمد ما يبهر بيرول وكوندرن والشماس بريمون، وفى كلمة الإسلام تعبير عن مثله الدينى الأعلى.

ومن التجلى الربانى راحة النفس والإيمان بالله الذى هو أصل كل شىء، ويصل الإنسان إلى هذا بالصلاة والصوم وإنفاقه ما يحب.

وإذا كان القرآن لا يردد الوحي النصراني الكبير الذي أفصح عنه مار يوحنا بأن "الله هو المحبة" فإن محمداً لم يجهل أن الله يحب ما خلق أكثر من حب الأم لابنها، فقد قال: "جعل الله الرحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه".

وجاء في القرآن: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

والإيمان بلا محبة وغير ما تقتضيه هذه المحبة من الأعمال هو إيمان خامد، فعلى المسلم ألا يترك للغضب والحقد والحسد والثلب[1] والغيبة والتكبر إلى قلبه سبيلاً، قال النبي: " لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام -أفضل المؤمنين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل المهاجرين من هاجر ما نهى الله عنه" ،والنبي طلب، كعيسى أن يترك الإنسان أمه وأباه مهاجراً على الله، قال النبي: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً - لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه".

والله العلي (الذي فصله العلماء من العالم بما لا يوصل إليه) يبلغ بالمحبة، والله العلي هو ملك الضعفاء، والله الكبير هو رب الوضعاء والله الخالق هو الودود، قال النبي: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتهجمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي.."

وكان النبي يعلم أن الدين الصحيح والعبادة بالروح، قال النبي: "إنما الأعمال بانيات.." وقال النبي: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".

---

[1] ثلبه: عابه وتنقصه

http://www.al-maktabeh.com

وجاء في القرآن : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

وجاء في القرآن: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى منكم﴾.

وقال النبى يوماً : "لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره".

وقال النبى راجعاً من غزوة: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: جهاد النفس".

ويجب أن تكون المحبة شاملة لجميع الناس وجميع المخلوقات مادام أصغر الطيور يسبح لله ببسط جناحيه.

وكان للدعوة المحمدية فى جزيرة العرب أثر عظيم ثابت فى تقدم الأسرة والمجتمع وفى تقدم الصحة أيضاً، فقد حسن بها مصير المرأة كما ترى فى فصل آت، وحرم بها الزنا والمتعة وحياة الغرام، ومنع بها إكراه القيان[1] على البغاء لإثراء سادتهم، والإسلام، وإن أباح الرق، نظم أحكامه، فعد فك الرقاب من الحسنات ومكفرات لبعض السيئات، قال النبى: "أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنفذ الله بكل عضو منه عضواً من النار"، وقال النبى "من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تكتسون، ومن لم يلائمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى".

ودعا أبو ذر بلالا بابن الحبشية معيراً فقال له النبى: "يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية"، وقال النبى: "لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى، كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى" وكسر ابن النضر سن رقيق ذات مرة فاقتص النبى منه.

---

[1] القياك: جمع قينة وهى الأمة أو المغنية.

وسئل النبى ذات يوم: "وإن لنا فى البهائم لأجراً؟" فقال: "فى كل ذات كبد رطبة أجر" وقال: "من حفر بئراً كتب له أجر من أجل كل جمل يشرب منها*".

والإنسان حين يرى الآن كيف تعامل الحمير فى إفريقية الشمالية مثلاً يعجب من درجة نسى الناس للأحاديث الكثيرة التى تحث على الرفق بالحيوان، فقد لعن محمد من يبتر حيواناً، حظر ذبح حيوان عمداً لغير ضرورة، وذكر ابن عمر ذلك فأنقذ دجاجة من صبية أرادوا اتخاذها مرمى، وروى أن الحيوان يشكو يوم الحساب من يعذبه، وأن هراً يخمش امرأة فى النار خمشاً متواصلاً لأنها تركته يموت جوعاً بحبسه، وأن عاهرة تدخل الجنة لأنها رأت يوم كلباً واقفاً على حافة بئر لاهثاً من شدة العطش فاستخرجت له الماء بخفها الذى ربطته بخمارها.

وأنت إذا نظرت إلى علماء الكلام وعلماء الأخلاق والفقهاء والصوفية من المسلمين وجدتهم يلتمسون من تعاليم الإسلام براهينهم مع اتجاه كل واحد منهم إلى ناحيته الخاصة ومحافظته على الأسس العامة، وأنت إذا نظرت إلى المذاهب الإسلامية وجدتها تستند إلى أحاديث النبى الصحيحة أو الموضوعة فى تأييد آرائها المتناقضة، وإلى هذه الأحاديث استندوا فى حل كبريات مسائل ما بعد الطبيعة مع رغبة محمد عن توكيد أمرها، فأنت إذا أخذت معضلة الإرادة مثلاً رأيت الجبريين وخصومهم القدريين يبحثون عن الأدلة فى القرآن والحديث ، وكان أمرهم فى ذلك أمر علماء اللاهوت من النصارى، كتوماس داكن وبوسويه وأنصار جانسينيوس ومولينا، الذين وضعوا معضلة الإرادة أيضاً فانتهوا إلى نتائج مماثلة، وترى القرآن مع توكيده قدرة الله على كل شىء وإحاطة علمه بكل شىء ومع قوله:﴿قل كل من عند الله﴾ يقول﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾، وفى القرآن آيات مؤيدة للإرادة وآيات نافية لها، والإثبات والنفى هما طرفا السلسلة التى لم تمسك روح البشر بحلقاتها المتوسطة، والمسلمون ، وإن مالوا إلى "الجبرية الشرقية" فى جور الانحطاط على الخصوص، لا نرى فى الإسلام ما يحملهم عليها خلافاً لما اعتقده ليبنتز بسيرة وراء الرأى الدارج، ومما حدث أن أعرابياً سأل محمد عن ضرورة عقل ناقته، فقال له: "أعقلها وتوكل"،

ولما قيل للنبى إن من اللغو يعمل الإنسان ما علم الله كل شيء مقدماً قال: "اعملوا فاليسر في العمل*" أي "كان الله في عون العبد ما دام العبد في عون نفسه".

وجاء في الأثر: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً"، وفي هذا حكمة الأخلاق وحل لمسائلها، وجاء في الأثر أيضاً: "أكيس الناس أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم استعداداً للموت" وتعارض الآداب الإسلامية بالنسك النصراني أحياناً معارضة مصنوعة، فالإسلام، وإن بدا أكثر تسامحاً في الميل الجنسي، لم يكلف نفساً إلا وسعها ويرى كمال العبادة في نيل الجسم حقه الشرعي، ولكن زهد الصوفية المسلمين يعدل زهد نساك جميع الأديان، ولكن الإسلام حرم الخمر وفرض الصوم الصارم الذى لم تعرف مثله ديانة أخرى، ولكن المسلمات ملزمات بهندام وزى يبتعدن بهما كثيراً عن الأزياء الأوربية العصرية، فمن العبث، إذن، أن يزعم وجود فروق كبيرة بين الأدبين مع اختلاف في النظر والعمل وتباين في النظريات نفسها، ثم لا تنس عوامل البيئات والأزمان والطبائع والعادات في تقرير المبادئ، فانظر إلى العالم الروماني المتمدن المترف المنغمس في الشهوات فدب الانحطاط في مفاصله تجد قدماء النصارى قد قاوموا فيه حب اللذات الشامل بحكم الطبيعة، ولما ظهر الإسلام في بلاد العرب ذات العادات الطليقة الغليظة معاً دمغ المسلمون الأولون ما ألفه المشركون، وانظر إلى الأعراب العراة الجياع الساكنى القفار تجدهم كانوا محرومين أطايب النعم طوعاً أو كرهاً، وأنهم لما تيسرت لهم هذه الأطايب أخذوا يتمتعون بها تمتع كبار الأولاد السذج الهانجين، وأن الثروات لما عظمت كل رد فعل، فبدا ورع الصوفية وزهدهم في المجتمع الذى عاد أبناؤه لا يكونون رجال حرب أو رعى.

والزهد أظهر الأمور في فجر الأديان، فما فتئ القرآن يقول: "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.. وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الأخرى لهى الحيوان" وشبه سلمان، كما شبه بسكال، المؤمن بالمريض الذى يمنعه الطبيب من أكل ما يشتهي ويضر، وكان ابن عمر يرى الإنسان في هذه الدنيا غريباً عابر سبيل: وقال النبى: "لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" ولم يأل النبى جهداً في إدخال هذا المعنى إلى قلوب الأعراب الأجلاف، ومن هذا أن النبى لما عاد أعرابياً اشتد عليه المرض قال له: "لا بأس طهور"،

فقال الأعرابى : "كلا، بل هى حمى تفور، تسوقنى إلى القبور" ، فقال له النبى: "فليكن ذلك"، وكان النبى يفيق من نومه أحياناً مذعوراً من هول يوم الحساب فيجمع جميع نسائه ليلاً ليعظن، وكان الصحابة يكثرون من الاستغفار والروع، وكان أبو طلحة أكثر أهل المدينة نخيلاً، وكان يملك حديقة فيتردد النبى إليها ليشرب من مائها العذب، فلما سمع أبو طلحة قول القرآن: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ عرض على النبى تلك الحديقة ليضعها حيث شاء فسر النبى منه وأشار عليه بأن يجعلها فى الأقربين، وأهرع أنصارى، ذات يوم، إلى المسجد وجلس على ركبتيه وخبط رباطه وهو يقول: " زنى أسفل الناس*" فأعرض محمد عنه من غير أن يجيبه، وتبعه الأنصارى مكرراً اعترافه أربع مرات، فيروى أنه رجم فى نهاية الأمر.

وكان الكثير من المسلمين يكثرون من التوبة والاستغفار والصلاة والصوم، فرأى محمد أن القصد أولى من الإفراط فأمر بألا يزيد الصوم على يوم من يومين، وأشار بالاعتدال فى التقشف وبترك كل ما يميت النفس، وحدث أن بعضهم قادوا أنفسهم إلى الحج بربط أنوفهم بأرسان الجمال فقطع محمد هذه الأرسان لأن الله ليست له حاجة بجدع الأنوف.

وكان متاع هذه الحياة الدنيا يبدو لمحمد نقمة أكثر منه نعمة، لما قد يكون ما يناله الإنسان من المال فى الدنيا كل ما يكافأ به فى الدارين، فلا يخدع الناس ما يؤتاه الأشرار فى هذه الدنيا من النصيب، وكان محمد يقول لأصحابه: "إنما أخشى عليك من بعدى ما يفتح عليكم من بركات الأرض".

وقال رجل " :أو يأتى الخير بالشر؟" فسكت النبى، وقد كان على المنبر حتى ظن أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبيه بعد طويل صمت فقال: "أين السائل؟" فقال له السائل" "أنا" فقال النبى ثلاث مرات: "أيستحق متاع هذه الدنيا أن يدعى بالمال؟*"

ويرى النبى أن الأموال ليست طيبة إلا إذا اكتسبت بالحق وأنفقت فى سبيل الله وعلى الفقراء، وإلا كانت وبالاً على صاحبها وفتنة له، قال النبى: "إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً" ، والله يعلن مانع الزكاة، فالزكاة وحدها مطهرة للأموال، قال النبى: "ألا أخبركم

بأهل الجنة؟" فقالوا: "بلى، يا رسول الله!" فقال: كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتلٍ[1] جواظ[2] متكبر"، والويل لعابد الدينار، فيوم القيامة سيحمى على الكنوز فى نار جهنم فتكوى بها جباه الذين يكنزونها ولا ينفقونها فى سبيل الله وتكوى بها جنوبهم وظهورهم، ومما قاله النبى: "من آتاه الله مالاً فلم يود زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً[3] أقرع له زبيبتان[4] يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بشدقية ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك" ، ومما أحزن محمد ما رآه من طمع قومه فصب اللعنات على الادخار والربا والتبليص و ميل القضاء الي الاقوياء و الاغنياء ، و في التفسير الاحق تحلية لكثير من الامور وفى صدر الإسلام تساءل عن تحريم الكمالى وعن مخالفة أدخار ما يزيد على الاحتياج للشرع ، أجل ، ان هذا المذهب هو من الإطلاق مالا يؤدي الي فتح الإسلام للعالم وقيام دولة الخلفاء، ولكنه كان ملائماً لذوى النفوس الفطرية.

وكانت خطب النبى مؤثرة إلى الغاية، وكان النبى يكرر، فى الغالب، الأمر الواحد غير مرة حتى تستولى على سامعيه خشية، وحدث النبى، ذات يوم، عن عذاب القبر بفصاحة فعلا عويل الحاضرين، وكان يغضب إذا ما سئل عن الأمور التافهة حين خشوعه، وكان يسهل عليه أن يصف بأعمق وصف رحمه الله التى وسعت كل شيء وأن يبين ما يلاقيه المصطفون الأخيار من السعادة، ولكنه كان لا ينفك يعود إلى الإنذار والوعيد.

سيكون الناس سكارى بغير خمر، وسيكون الولدان شيباً، ولكن أين يكون المفر؟ وسيظهر ثلاثون دجالاً، وستلد الأمة سيدها وسيقيم رعاة الإبل بالقصور، وسيشيد الناس المبانى الشامخة، وسيحشر الناس حفاة عراة غرلاً[5] كيوم ولادتهم، فسألت عائشة الذكية النبى: "يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟" فقال النبى: "يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض"، وسيغطس الناس فى بحر من العرق حتى أعناقهم

---

(1) العتل: الجافى الغليظ.

(2) الجواظ: الذى يحب جمع المال ويمنع منه إخراج الزكاة.

(3) الشجاع: الحية.

(4) الزبيتان: نقطتان سوداوان فوق عينى الحية.

(5) غرلاً: جمع أغرل ، من غرل الصبى: لم يختن.

حياءً تحت شمس محرقة، وعلم الساعة عند الله وحده، وهي ستأتي بغتة، (فعلى الناس أن يستعدوا لها إذن)، والحق أنه لا يكون، حين تقوم الساعة، لدى الرجلين من الوقت ما يُتمان فيه بيع ثوب بسط أو طيه، والحق أنه لا يكون، حين تقوم الساعة، لدى الرجل من الوقت ما يزدرد فيه لقمة طعام وضعها في فمه، وبدا النبي كرجل جرده جيش العدو فقال: "رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء" فهل من سامع؟

وأفاق محمد ذات ليلة من نومه في حجرة زينب مذعوراً فقال:

"فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا" وعقد بيده تسعين (٩٠) وبلغت تلك الأهوال من الاستيلاء على قلوب المسلمين ما صروا يتساءلون: هل ظهر الدجال؟ وهل ولد أولاً؟ وكان ابن صياد من فتيان اليهود بالمدينة، وكان عالماً بالعرافة مشهوراً بعدواته للإسلام، وكان يسخر من النبي جهراً، ومما حدث، ذات يوم، أن انطلق النبي وعمر بن الخطاب في رهط قبل ابن صياد حتى وجد يلعب مع الصبيان عند أطم بني مغالة فلم يشعر حتى ضرب النبي ظهره بيده ثم قال:

"أتشهد أني رسول الله؟"

فنظر إليه ابن صياد فقال: "أشهد أنك رسول الأميين"، ثم قال ابن صياد: "أتشهد أني رسول الله؟" فرفضه النبي وقال: "آمنت بالله وبرسله"، ثم قال النبي: "ماذا ترى؟" فقال ابن صياد: "يأتيني صادق وكاذب"، فقال النبي: "خلط عليك الأمر"، ثم قال له النبي: "إني قد خبأت لك خبيئاً" فقال: "هو الدخ[1]"، فقال النبي: أخسأ فلن تعدو قدرك"، فقال عمر بن الخطاب: "ذرني يا رسول الله أضرب عنقه"، فقال له النبي: "إن يكُنه فلن تسلط عليه، وإن لم يسكنه فلا خير لك في قتله".

وانطلق بعد ذلك النبي وأبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد، فطفق النبي يتقي بجذوع النخيل وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد وهو

http://www.al-maktabeh.com

(1) الدخ: الدخان.

مضطجع على فراش فى قطيفة له فيها زمزمة[1]، فرأت أم ابن صياد النبى وهو يتقى بجذوع النخل فقالت لابنها: "يا صاف هذا محمد!"، فثار ابن صياد فقال النبى:

"لوتركته بَين".

وعلى ما تراه فى دعوة النبى من المبادئ الأخروية لم يأل النبى جهداً فى تنظيم المجتمع الإسلامى تنظيماً عملياً، فكان القرآن كتاب شريعة كما كان مثل كتاب التنبيه والزبور.

وهكذا فرضت فى السنوات الأولى من الهجرة أركان الإسلام الخمسة وهى: الصلاة والصوم والزكاة والحج بجانب الشهادة بوحدانية الله، ونظمت السنة أمر هذه الأركان، ومن ذلك أن اقترح فريق من المسلمين اتخاذ النواقيس كالنصارى، واقترح فريق ثان اتخاذ الأبواق كاليهود، واقترح فريق ثالث أيقاد النيران كالمجوس، فأشار عمر بن الخطاب على البنى بالأذان فأوعز النبى إلى بلال الحبشى بأن يدعو المسلمين إلى الصلاة بصوته القوى، فأصبح بلال بذلك مؤذن النبى الراتب وأول المؤذنين الذين ما فتئوا منذ ثلاثة عشر قرناً يؤذنون خمس مرات فى كل يوم قائلين من فوق المآذن: الله أكبر.

وبلال الطويل النحيف الأحدب الأشمط الكثيف الشعر هو الذى كان يمشى أمام مولاه، حاملاً حربة بيده، للاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى فى أبواب المدينة.

وشعائر الإسلام، ومنها الفروض ومنها النوافل، لم تشرع لمقاصد صحية خلافاً لما ذهب إليه المعاصرون، ولا لمقاصد اعتزاليةٍ كالتى يذهب إليها علماء وصف الإنسان، بل كانت لتنظيم مظاهر العبادة ولتوثيق عرا المجتمع وبذر التقوى فى القلوب، وإعداد بعض المؤمنين لحياة النسك والتصوف، ويتجلى "سر القربان المقدس" الأساسى فى الإسلام فى تلاوة آي القرآن التى هى لآليء ساطعة لعقد الكلمة الإلهية

(1) الزمزمة: صوت خفى لا يكاد يفهم.

الفصل التاسع عشرة

زينب

"سبحان مقلب القلوب"

شعر محمد في العقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء، فقد أثارت عائشة الفتاة التى تزوجت فى السنة التاسعة من عمرها (وهذا ليس بغريب فى بلد وجد فيه أجداد فى السنة الخامسة والعشرين من أعمارهم) عوامل الميل إلى النعيم الجنسى فى زوج خديجة الطاهرة بعد أن ظل وفياً لها عشرين سنة مع زيادة سنها على سنه كثيراً.

بلغ محمد المدينة وصار رئيس دولة وقائد حرب فأقام لنفسه بيتاً كبيوت سادات العرب، فأبرم، كهؤلاء السادات، عقود نكاح كثيرة عن حبٍ أو عن سياسة فضلاً عن عدم زهده فى سرارى جميلاتٍ عرضن عليه هدية أو نالهن سبياً، فزاد لذلك الميل الجنسى القوى الذى كان محصوراً قبل ذلك، أبواب بيته النافذة على فناء المسجد بالتدريج، فكان كل باب منها خاصاً بمسكن إحدى زوجاته.

عد من الصواب زواج محمد بسودة أرملة السكران بن عمرو بعد وفاة خديجة وقبل بلوغ عائشة، ونشأ عن زواج محمد بحفصة بنت عمر بن الخطاب التى كانت أرملة أيضاً توثيق لعرا الصلات بينه وبين أبيها العظيم، وأضحى لحفصة الحسناء، التى لم يزد عمرها على ثمانى عشر سنة، شأن من الطراز الأول بين حريم النبى، وكانت أم سلمة أرملة أحد مهاجرى الحبشة فخطبها أبو بكر فأبت وخطبها عمر فأبت، فلما جاءها من يخطبها للنبى استصعبت الأمر وقالت:

"مرحباً برسول الله صلى الله عليه وسلم، تقول له إنى امرأة مسنة (بنت ثلاثين سنة) وإنى أم أيتام وإنى شديدة الغيرة.."

فأرسل النبى يقول لها: "أما قولك إنى امرأة مسنة فأنا أسن منك، ولا يعاب على المرأة أن تتزوج أسن منها، وأما قولك إنى أم أيتام فإن كلهم على الله وعلى رسوله، وأما قولك إنى شديدة الغيرة فإنى أدعو الله أن يذهب ذلك عنك".

http://www.al-maktabeh.com

تزوج النبى أم سلمة، مع ذلك، بعد هزيمة أحد، فجعل صداقها، كالأخريات أربعمئة درهم مع متاع مؤلف من رحى وجفنة[1] وفراش حشوه ليف وجرة سمن وكيس شعير.

ودخل محمد، ذات يوم، بيت زيد بن حارثة بعد الفراغ من غزوة بنى النضير، وكان محمد يحب مولاه العتيق زيد بن حارثة كثيراً، فتبناه فكان يدعى "زيد بن محمد"، وكان يستشيره فى كل أمر ويرى فيه، على ما يحتمل، الوارث، ككثير من وزراء الشرف الذين يجعلون من شباب الموالى أمناء سرهم ووارثين لهم.

وكان زيد فى ذلك اليوم غائباً عن بيته، فوجد محمد نفسه تجاه زوجة زيد زينب بنت جحش التى كانت أجمل فتيات قومها، وكانت زينب هذه آنئذ سافرة وشبه عارية وعاملة على زينتها وإدارة بيتها، فأثر هذا الجمال السافر الغض الفياض فى نفس النبى فقال:

"سبحان مقلب القلوب".

ولم ينطق بغير هذه الكلمة وانصرف حالاً.

قصت زينب ما رأت على زوجها زيد فارتبك كثيراً، وكان زيد المخلص لمحمد المنعم عليه يعلم مزاجه المتقد، وبدا الوضع محيراً إلى الغاية، وقال زيد فى نفسه إنه لا يستطيع فى هذه الأحوال أن يمسك عليه زوجه، ويمكن حمل عزم زيد على أنبل تضحية وعلى عرفان الجميل، لا على طمع رخيص أو معروف دنئ ونرجح أن زيداً البائس المضطرب قال فى نفسه إنه ليس هنالك مخرج آخر، وإن الرأى أن يواجه سوء الطالع بقلب طيب وبالعمل، عن رضاً، بما تدفعه الضرورة إليه، فأعرب لمحمد عن عزمه على طلاق زينب.

محمد: "لماذا؟ ما هو العيب الذى تجده فيها؟*"

زيد: "لم أجد فيها عيباً، ولكننى لا أستطيع العيش معها*".

محمد: "أمسك عليك زوجك واتق الله".

---

[1] الجفنة: هى القطعة وهى صحفة كبيرة منبسطة تشبع الخمسة.

بيد أن زيداً أدرك أن الكلام لا يعبر عن الفكر، وأن محمداً أخفى ميله عن مجاملة وعن خوف من العيب، فأصر على حل عقدة النكاح متعللاً بأنه أضحى كارها لزينب، فطلقها بعد بضعة أيام، ومن يدرى ماذا كان يدور فى خلد هذه المرأة؟

فلما انقضت عدة زينب الحسناء أخبرت محمداً بذلك وأرسلت إليه من يقول له:

"إن زيداً طلقنى من أجلك*".

كان محمد راغباً فى الزواج بزينب، ولكنه كان خجلاً، وكان يعلم أن الشريعة تحرم زواج الأب بزوجة ابنه بالتبنى تحريمها زواجه بزوجة ابنه الحقيقى، ولكن الله الذى علم حيرة صفيه زوجه بزينب بين الملائكة وأوحى إليه بذلك.

فسر محمد قائلاً: "من يحمل لزينب هذه البشرى؟*"

فغضبت عائشة فقال لها زوجها:

"أتعارضين أمر الله؟*"

أهرعت امرأة لتخبر بذلك المطلقة زينب التى دخل عليها محمد بعد قليل، وكانت وليمة عرسها أفخر من ولائم أعراس أزواجه الأخرى، فقد دعا خادمه الشاب أنس بن مالك إليها جميع الصحابة الذين طعموا جماعة جماعة فى يوم كامل مما اشتملت عليه من لحم الضأن والفواكه والحبس[1] الذى صنعته أم سليم والحلوى المصنوعة من الشعير والعسل.

وإن هذا الإنفاق عن سعة خلافاً للعادة، وإن كان يورث الآكلين سروراً، لم يحل دون انتقادهم وانطلاق ألسنتهم وانصراف بعضهم ذامين هذا النكاح الذى هو من سفاح ذوى القربى، والعيب كبير، وفيه وجد أعداء محمد وسيلة للإرجاف، وكان لابد للقرآن من أن يرد على الحملات الانتقادية فقد جاء فيه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ

---

[1] الحبس: تمر يخلط بسمن وجبن ويدلك ويعجن شديداً حتى يمتزج.

إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾. وجاء فى القرآن: ﴿ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم﴾.

وبذلك عاد زيد لا يكون وراثاً لمحمد، وصار يدعى زيد بن حارثة بعد أن كان يدعى بزيد بن محمد، وبذلك أمر رسول الله بأن يعدل عن رغبته فى أن يموت ذا وارث مختار سيراً مع الضعف البشرى.

وعلى ما فى زواج محمد بزينب من وعورة ظاهرة يكون، إذن، هذا الزواج الذى هو تنفيذ[1] لحكم إلهى فى أمر التبنى وفى زهد الرسالة النبوية الكاملة أو منافاتها شيئاً غير نتيجة لميل جنسى تعهده المكر، وفى ذلك ظاهرة نفسية معقدة ذات أشكال، فإذا كان محمد يعد، ببساطة ماسة، الله عاطفاً على رغبة نبيه برأفةٍ ولطف، فإنه كان يعد القرآن أعظم منه فيحترم نصه المقدس ولو جاء شاهداً عليه غير محاولٍ كتم ما يمكن أن يكون ثقيلاً عليه، والقرآن إذا وسع دائرة الحلال لم يكن غير دقيق فى كل ما محرم.

مدت الموائد بالقرب من حجرة زينب على ساعة متأخرة من الليل، ومكث فريق من الضيوف طويلاً يتحدثون ولم يروا أن ينصرفوا، وأراد النبى أن يخلو إلى زوجته الجديدة فأبدى استعداده للنهوض فلم يحرك أحد من أولئك ساكناً، فنهض النبى بالفعل، فانطلق الجميع خلا ثلاثة منهم، فكان بقاء هؤلاء الثلاثة مانعاً من ختام الزفاف، وكان من عادة النبى بعد كل عرس أن يزور كل واحدة من زوجاته الأخرى لمبادلة التحيات وأطيب الآمال، فلما عوقه أولئك الثلاثة أسرع فى الطواف بزوجاته بادئاً بعائشة قائلاً : "السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته".

فقالت عائشة له: " وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا رسول الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك ؟".

---

[1] يـرى مسيولويس ماسينيون فى الصفحة ٧٢٢ من كتابه "شهيد الإسلام الصوفى الحلاج" أن ذلك تنفيذ أكثر من أن يكــون ذريعة فبطال تبنى زيد كما يقول رجال الجدل من مناهضى الإسلام، فمن أجل ذلك تجد لهذه القصة الخاصة مكاناً فى القرآن حيث وصف محمد بخاتم النبيين.

دخل النبى مسكن زينب بعد أن سلم على زوجاته من غير أن يستطيع إجابتهن عن ذلك ، وكان أولئك الثلاثة لا يزالون هنالك يتحدثون ويشربون من عصير التمر غير المختمر، فلم يقل محمد كلمة عن خجل، وعاد ينتظر عند عائشة فشعر أولئك بما ظهر منهم من قلة الفطنة فانطلقوا، فأسرع خادمه أنس بن مالك إليه يخبره بذلك، فدخل محمد الحجرة التى كانت زينب تنتظره فيها ملقيا حجاباً بين وبين أنس الذى تبعه، وأسفر الوهن الذى ألقاه فيه ذلك الأمر السيئ عن فزعه لا ريب، فقد أوحى إليه بآية الستار الآتية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾

وأزواج النبى هن أمهات المؤمنين، ولا يحل لهن أن يتزوجن من بعده (فكان ذلك عن غيرة خالصة من الوفاة كما قيل) وفى القرآن:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾

وبذلك تكون دائرة الحريم ديراً جامعاً للنعيم الحسى والتقوى.

وأمرت نساء المسلمين الآخرين بالامتناع عن كشف أعناقهن (التبرج) أمام الجمهور، وذلك عن غير حمل على التزام البيوت والحجاب الكامل خلافاً لما وقع عملاً بعد حين.

الفصل العشرين

عائشة وعقدها

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

http://www.al-maktabeh.com

فرغ محمد من أمر بنى قريظة وزواج زينب فى السنة السادسة من الهجرة (٦٢٨)، ثم بعث سرية إلى بنى بكر الذين كانوا متجمعين فى طريق الشام فأسر المسلمون رئيس العدو وعاد غانمين، وعومل هذا الأعرابى بكرم فأسلم وأخذ ينهب عير قريش، فاضطرت قريش التى كاد القحط يهلكها إلى مفاوضة النبى فى ذلك، فطلب النبى، عن كرم، من الأعراب ألا يعملوا على مجاعة أبناء وطنه الأصلى، والنبى يكون بذلك قد أخذ يقتطف ثمرة ما قام به من الغزوات والسرايا الكثيرة ضد تجارة قريش والقبائل المعادية مبدياً براعة سياسية فائقة ومهارة حربية عظيمة.

وأخبر محمد، بعد أن جازى غطفان التى نهبت جماله، بأن بنى المصطلق يجمعون له ليقاتلوه، فأخذهم على غرة، واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً بالنبال ثم بالسلاح الأبيض، فهزم المسلمون بنى المصطلق وأسروا منهم أناساً كثيرين وغنموا منهم ألف جمل وخمسة آلاف شاة وسبوا النساء فى مساء المعركة ليكن ملك أيمانهم. ثم سوى الأمر، فقد كانت جويرية بنت سيد بنى المصطلق فيمن أصيب فوقعن فى السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة مليحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت النبى لتستعينه على كتابتها فكرهت عائشة أن تراها على باب حجرتها.

النبى: "فهل لك فى خير من ذلك؟"

جويرية: "وما هو يا رسول الله؟"

النبى: "أقضى عنك كتابك وأتزوجك".

جورية: "نعم يا رسول الله قد فعلت"

فرأى المسلمون أن يؤكدوا أمر هذه المصاهرة فأعتقوا مئة أهل بيت من بنى المصطلق، فلم يلبث سيدهم الحارث وأولاده وأناس من قبيلته أن أسلموا.

وحدث بعد هذه الغزوة ما يكدر الصفو، فقد ازدحم المهاجرون والأنصار حول بئر ليشربوا منها وكادوا بقتتلون، فغضب عبد الله بن أبى المنافق وقال: "أو قد فعلوها؟ قد

نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب[1] قريش إلا كما قال الأول: "سمن كلبك يأكلك"، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل".

فأخبر شاب النبى بذلك وعنده عمر بن الخطاب، فأراد عمر أن يقتل عبد الله بن أبى، فقال له النبى:

"فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟"

فرأى النبى أن الانصراف من الحكمة، فأمر أن يؤذن فى الناس بالرحيل مع شدة الحر، فانطلق النبى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، فأنسى التعب الناس حديث ابن أبى.

وقد بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى أن النبى يريد قتل أبيه فأتاه وقال:

"يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخرزج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى، وإنى أخشى أنا تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار".

فقال النبى له: "بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا".

ثم قال النبى لعمر بن الخطاب "كيف ترى ياعمر؟.."

أكتفى محمد بتبليغ سورة فاضحة للمنافقين مع وعدهم بعفو الله إذا ما تابوا، وبدأ نفوذ عبد الله بن أبى ينقص.

كان الخصمان: محمد وعبد الله بن أبى يراقب أحدهما الآخر عن كثب من غير أن يصلا فى خصومتهما إلى درجة الاقتتال، فكان محمد يرى أن رئيس الخزرج ابن أبى لن يطيعه فيقول بالإسلام بفمه، لا بقلبه، وكان ابن أبى يرى النبى طامعاً خادعاً فحلت ساعة انتقامه منه.

---

[1] جلابيب قريش: هذا لقب كان المشركون يلقبون به أصحاب الرسول من أهل مكة.

كان النبى إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه،

فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه، فخرج سهم عائشة عليهن معه، فسافرت فى هودج مغلق وضع على ظهر بعير، فلما فرغ النبى من سفره ذلك انطلق قافلا، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذن فى الناس بالرحيل، فارتحل الناس ومعهم ما لديهم من الأمتعة والأسارى وألوف الدواب، وخرجت عائشة لبعض حاجتها، وفى عنقها عقد لها فيه جزع ظفار[1]، فلما فرغت انسل من عنقها، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت تلتمسه فى عنقها فلم تجده، وقد أخذ الناس فى الرحيل، فرجعت إلى مكانها الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، فرجعت إلى المعسكر، وما فيه من داعٍ ولا مجيب، وذلك لأن القوم أخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه فاحتملوه فشدوه على البعير، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به وهم لا يكادون يشعرون بها لخفة وزنها ونحافتها، وهى التى كانت فى السنة الخامسة عشرة من عمرها، فتلففت إذ ذاك بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إليها، وإنها لكذلك إذ أقبل عليها صفوان بن المعطل ووقف أمامها قائلاً" "إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله"، وهى متلففة فى ثيابها، ثم قرب البعير واستأخر عنها، فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس.

أدرك صفوان العسكر وقت الظهر بعد سير مضن، فحار الناس حين رأوا قدوم "أم المؤمنين" مع رجل شابٍ، فكان ذلك سببا لثرثرة بعضهم، فاهتبل أعداء عائشة ومحمد هذه الفرصة فصار عبد الله بن أبى يقول ساخراً:

"صفوان شاب جميل، فلا عجب إذ ما فضلته على محمد*.."

وامتاز الشاعر حسان بن ثابت ومسطح ابن خالة أبى بكر بين المستهزئين، وبلغ حسان من السخرية ما هجا به صفوان، وظنت حمنة بنت جحش أنها تحسن إلى أختها الزوجة الجديدة زينب، التى لم تساوها من أزواج النبى فى المنزلة والمحبة عنده غير عائشة، إذا وشت بعائشة، فذكرت أن صفوان وعائشة كانا يتقابلان كثيراً وأن قصة العقد لم تكن إلا من

---

[1] الجزع : الجزر، وظفار : اسم مدينة.

http://www.al-maktabeh.com

قبيل ذر الرماد فى العيون، فلما علمت عائشة من أم مسطح ما يقال فيها مرضت، فصار محمد يزورها غير عاطف عليها كما كانت عادته، وصار يسأل عن أنباء صحتها بفتور، فطلبت إليه أن يأذن لها فى الانتقال إلى بيت أبيها[1]، قالت لها أمها:

"أى بنية، خففى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها".

فقالت عائشة: " ولقد تحدث الناس بهذا؟.. وقد علم به أبى؟.."

فاستعبرت عائشة وبكت فسمع أبو بكر، وقد كان يتلو القرآن، صوتها فنزل، وحرض ابنته على الرجوع إلى بيتها.

ولم يدر النبى ماذا يصنع، فكان متردداً بين الجزع والحب، فلم يغب عن باله ظرف بنت أبى بكر الصغيرة وأنه لم يتزوج بكراً غيرها، وأنه كان لها، وهو كهل، بصباها اللطيف فتنة وترويح لنفسه، وأنه فكر فيها حتى فى منامه قبل أن يخطبها فرأى جسمها الرشيق على قطعة من ديباج أتاه بها الملك، وأنه سمح لها بأن تتسلى بلعبها، وأنه كان يلعب معها، وهو لم ينس ملاحتها وغيرتها وخفتها، وأنه دخل عليها وعندها رجل قاعد فاشتد ذلك عليه فقالت:

"يا رسول الله إنه أخى من الرضاعة" ذاكرة إذنه لحفصة فى استقبال أقربائها من الرضاعة، ما كانت الرضاعة تسفر عن مثل ما تسفر عنه القرابة الحقيقية من الحقوق والمحظورات.

فقال: "انظرن من إخوانكن من الرضاعة، فإنما الرضاعة من المجاعة[2]".

ومحمد، إذ لم يوح إليه فى الأمر مع مضى شهر، استشار علياً وأسامة بن زيد.

---

(1) جاء فى كتب السيرة الموثوق بها أن السيدة عائشة مرضت وأذن النبى صلى الله عليه وسلم لها فى أن تمرض ببيت أبيها قبل أن تعلم شيئاً من حديث الإفك، وأنها علمت من أم مسطح ذلك فى دور نقاهتها (المترجم)

(2) أى تأملن فيمن ثبت رضاعه الشرعى فإنما الرضاعة ما كانت فى مدة الرضاع.

فأما أسامة فإنه قال:

"يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل".

وأما عليّ فإنه قال:

"يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك".

فلم تعف عائشة عن على لقوله هذا.

فدعا الرسول بريرة فسألها فقالت:

"والله ما أعلم إلا خيراً وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله".

وسأل الرسول زينب فلم تقل عن ضرتها عائشة إلا خيراً.

فأبدى النبى توجعه من فوق المنبر، وقصد بقوله عبد الله بن أبى، فكاد الأوس والخزرج يقتتلون عندما برز رئيس الخزرج القوى سعد بن عبادة مدافعاً عن عبد الله بن أبى على حساب عائشة، لو لم يتدخل النبى فى الأمر فيسكن روع الفريقين وإن ظل ملتزماً جانب الصمت.

وما انفكت عائشة تبكى، وأقسم صفوان قائلاً:

"سبحان الله، فوالذى نفسى بيده ما كشفت من كنف أنثى قط".

ثم دخل أبو بكر وزوجته على ابنتهما عائشة فى الغد وجلسا بالقرب منها يبكيان، ودخلت امرأة من الأنصار وأخذت تبكى أيضاً، ثم دخل النبى وجلس لأول مرة عندها منذ بلغه ما أشيع، وقال لها بلطف:

"يا عائشة ! إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقى الله، فإن كنتِ قارفت[١] سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده".

قالت عائشة: "فوالله ما هو إلا أن قال لى ذلك فقلص[٢] دمعى حتى ما أحس منه شيئاً، وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتكلما.. فلما لم أرهما يتكلمان قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: والله ماندرى بماذا نجيبه.. فلما أن استعجما على استعبرت فبكيت ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنى منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى، ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المتسعان على ما تصفون".

وقالت عائشة: "وأيم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله وفى قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يكذب به الله عنى، لما يعلم من براءتى أو يخبر خبراً.. فوالله ما برح رسول صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجى بثوبه ووضعت له وسادة من أدم[٣] تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أنى بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمى، وأما أبواى فو الذى نفس عائشة بيدها ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتى من الله تحقيق ما قاله الناس، ثم سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان[٤] فى يوم شاتٍ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: "أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك".

(1) قارف السوء: خالطه.

(2) قلص: ذهب.

(3) الأدم: جميع أديم وهو الجلد المدبوغ.

(4) الجمان: اللؤلؤ.

أوحى إلى محمد بآيات من سورة النور فى براءة عائشة وتعزير من جاءوا بالإفك، فقالت أم عائشة لها:

"قومى إلى رسول الله صلى الله عليه".

فقالت عائشة: "والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله".

أقيم حدّ قذف المحصنات على بعض الذين خاضوا فى أمر عائشة بصريح القول، وفقاً لحكم القرآن الذى ينص على جلد الذين يرمون المحصناتِ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، ثمانين جلدة، ولم يقم على عبد الله بن أبى ذى النفوذ.

وأقسم أبو بكر أن يكف عن الإنفاق على مسطح، فنهى الوحى الأغنياء عن مثل ذلك.

وجلد الشاعر حسان بن ثابت وكاد صفوان يقتله، ثم أصلح محمد ذات بينهما وأعاد إلى حسان سابق حظوته، وعادت عائشة لا تحقد عليه، ما علمت أنه الشاعر الأعمى الذى لم يفتأ يدافع عن النبى بكلامه وأهاجيه.

ثم قال حسان بن ثابت، يعتذر من الذى كان قد قال فى شأن عائشة، قصيدة مطلعها:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ[1]

وكانت عائشة تقول حينما تذكر تلك القصة الفاجعة:

"لقد سئل عن صفوان بن المعطل فوجدوه رجلاً حصوراً ما يأتى النساء".

وصارت عائشة بعد ذلك لا ترافق النبي فى مغازية إلا قليلاً، وخرجت معه فى غزوة أخرى مع ذلك، فسقط عقدها أيضاً، فبعث النبى رجالاً فى طلبه، فحضرت صلاة الصبح وليس مع المسلمين ماء للوضوء فجاؤا أبا بكر وشكوا إليه ما نزل بهم، فجاء إليها والنبى نائم واضع رأسه على فخذها فجعل يطعن بيده فى خاصرتها فلا يمنعها من التحرك إلا مكان

---

[1] حصان: عفيفة، رزان: ملازمة لموضعها لا تتصرف كثيراً، تزن: تتهم، غرثى: جائعة، يريد أنها لا تنال عرض أحد، الغوافل: جمع غافلة.

النبى على فخذها، ثم وجد العقد تحت البعير البارك الذى كانت عليه، فاستيقظ النبى فانزلت عليه الرخصة بالتيمم.

وحدث أن خرجت عائشة مع ضرتها حفصة إلى غزوة أخرى، وأن بادلت عائشة، متلهية، حفصة ببعيرها، وأن بلغت من الغيرة، حين رأت محمداً يسير بجانب الهودج الذى كانت عليه ضرتها، ما ترجلت معه فى أول مرحلة، ووضعت رجلها حافية فى العشب لعل العقرب تلسعها.

الفصل الحادى والعشرين

الحريم

http://www.al-maktabeh.com

اقترن محمد بريحانة، أيضاً، بعد الفراغ من أمر بنى قريظة، ثم تزوج من بين سبايا خيبر يهودية أخرى اسمها صفية، وكان زوجها كنانة بن الربيع قد قتل عنها يوم خيبر، فكان صداقها من محمد عتقها، وكان زواج محمد بها فى أثناء عودته بعد انقضاء عدتها، وأولم أنس وليمة العرس من الحيس[1] خالية من الخبز واللحم.

ولم يحب محمد هذه اليهودية الحسناء زمناً طويلاً كما يظهر، فهو، وإن منع ما يذكرها بقومها حينما صنع ذلك بعض زوجاته قائلاً لها: "قولى لهن كيف تكن خيراً منى وأبى هارون وعمى موسى وزوجى محمدا؟" دعاها بالمرأة ذات العقم والشوم ذات مرة فى يوم حج.

وكانت أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان أرملة الحنيف النصرانى عبيد الله بن جحش الذى هاجر إلى بلاد الحبشة فمات فيها، فزوجها النجاشى النبى بأربعمئة دينار دفعها عنه مهراً احتراماً للنبى العربى على ما روى، وأم حبيبة لم تكن فتاة ولم يكن لها شأن كبير بين حريم النبى، ولكن زواجه به كان عاملاً على تقريب ما بينه وبين أبيها بالحقيقة فضلاً عن تقريره حال أرملة رجل وجيه تقريراً شريفاً.

قال أبو سفيان عندما علم زواج ابنته بعدوه: "ذلك الفحل لا يقرع أنفه".

ثم تزوج محمد، بعد حين، ميمونة بنت الحارث وهى أخت لزوجة العباس، فكان زواج محمد بها عاملاً على انضمام ابن أختها القائد الممتاز خالد بن الوليد إليه.

وتزوج محمد اثنتين وطلقهما قبل أن يدخل بهما، إحداهما رأى بياضاً من برص فيها، فأكمل لها صداقها، والأخرى أعرابية حسيبة من إحدى القبائل المغلوبة، فلما دخل محمد عليها قال: " هبى لى نفسك!"

فقالت: وهل تهب الملكة نفسها لسوقة؟ .. أعوذ بالله منك!"

---

(1) الحيس: تمر يخلط بسمن وجبن فيعجن ويدلك شديداً حتى يمتزج.

فقال: "لقد عذت بمعاذ".

فكساها محمد رازقتين[1] وألحقها بأهلها.

وكان للنبى سريتان أو ثلاثة، وأذكر من سرارية مارية القبطية التى أهداها إليه أمير مصر المقوقس، فولد له منها ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن محمد عليه كثيراً ولحده بيده وبكاه، ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمداً كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك فقال:

"إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد.."

فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال.

وأهدى المقوقس للنبى شيرين أخت مارية فوهبها النبى للشاعر حسان بن ثابت، وأهدى المقوقس إلى النبى أيضاً غلاماً خصياً اسمه مابور فظل خادماً لمارية، ويقال إن مابور لما أصبح موضع شبهة أرسل محمد إليه علياً ليقتله إذا ظهر له صدق ما عزى إليه، فلما أتاه على مستلاً سيفه هرب فأدركه على فشال رجليه فإذا به أجب أمسح ما له مما للرجال لا قليل ولا كثير، فزالت الشكوك فيه.

وعرض نساء كثيرات أنفسهن على النبى ليتزوجهن بغير صداق، فثارت غيره عائشة فقالت:

"أتهب المرأة نفسها؟"

غير أن القرآن أباح ذلك للنبى فقالت عائشة بألم تشوبه سخرية:

"ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك".

وكانت الفتاة المدللة الظريفة عائشة محبة للنفائس والمال (فتاجرت بعد زمن بالرقيق)، وكانت طموحاً (فكادت تهدم الإسلام بمغامراتها)، وكانت متحكمة قاسية (فأدت إلى قطع

---

(1) الرازقية: ثياب كتان بيض.

يد رقيق سرق ربع دينار)، وكانت عائشة أنيقة لبقة فاتنة فكان لها سلطان على قلب زوجها، وقد جمعت في كتابٍ أقاصيص عن نساء قبيلتها بني تيم، فظهر منها أنهن نكدات مهيمنات على أزواجهن.

وكانت غيرة عائشة تشمل الماضي فضلاً عن الحال، فما كانت لتحتملَ ثناء محمد على رفيقة حياته السابقة الوفية خديجة عند ذكره لها، فقد قالت عائشة له:

"ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيراً منها؟"

فغضب محمد وقال: "والله ما أبدلني خيراً منها، آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها".

وكان محمد يذبح الشاة فيقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فتقول عائشة:

"كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة!"

وأتت أخت خديجة هالة بنت خويلد المدينة ذات يوم فاستأذن على انبي فعرف استئذان خديجة، فارتاع فقال: "اللهم هالة!" فغارت عائشة فقالت: "ما تذكر من عجوز من عجائز قريش هلكت في الدهر أبدلك الله خيراً منها؟"

وكان محمد يحسن معاملة الفتاة عائشة الصعبة المراس كما يعامل الولد، فينظر إلى ما يصدر عن ضعفها النسوي نظراً فلسفياً ما لم يجاوز ذلك الحدود و أبدت عائشة ذات مرة نحو زوجها النبي من مجاوزة الحد ما لطمها معه ابو بكر فقال له النبي:

"مهلاً يا أبا بكر، إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه".

ومما وقع ذات يوم أن كان النبي يأكل عند عائشة فأرسلت إليه إحدى زوجاته الأخرى طعاماً مع خادمة، فاشتاطت عائشة غيظاً، فضربت تلك الخادمة على يدها، فسقط الصحن وتكسر، فجمع النبي كسره ووضع عليها الطعام وقال للأكلين:

"غارت أمكم! غارت أمكم!"

ثم استبدل بالصحن المكسور صحناً جديداً.

http://www.al-maktabeh.com

وقال النبى لعائشة ذات مرة،وهو مريض:

"وما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك!؟"

فأجابت: "ليكن ذلك حظ غيرى، والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فاعرست فيه ببعض نسائك!"

فتبسم النبى.

وكان الناس يعرفون تفضيل النبى لعائشة بنت أبى بكر على غيرها من نسائه، فيرى بعضهم إهداء شىء إليه يوم يكون عندها.

وأرسل بعض نسائه أم سلمة لتشكو إليه ذلك فأعرض عنها مرتين، فلما كلمته فى المرة الثالثة قال لها:

"يا أم سلمة، لا تؤذينى فى عائشة، فإنه والله ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها".

فأهرعت أم سلمة إلى فاطمة لتدعوه إلى الإنصاف، فقال النبى لها:

" هل تحبين من أحبه؟"

فلما ردت فاطمة عليه بالإيجاب قال لها: "إذن أحبى عائشة" فلم تعد فاطمة إلى مثل ذلك مرة أخرى.

هناك أرسلت زينب الحسناء إليه، فقالت له بصوت عالٍ:

"إن أزواجك ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة".

فسمعت عائشة ذلك من بعيد فالتفت محمد ليرى ماذا تصنع، فثاورت هذه الزوجة المفضلة زينب بالكلام فأسكتتها فقال محمد بإعجاب:

"إنها بنت أبى بكر".

وأرادت سودة بنت زمعة العجوز وصفية الإسرائيلية إلقاء السرور في قلب محمد واتقاء الطلاق فتنزلتا عن نوبتيهما لابنة أبى بكر المفضلة.

وكان يؤذى النبى ما يقع بين أزواجه من الخصام فيقول:

"أطلعت على النار فوجدت أكثر أهلها النساء" ، "فاحذروا مكايدهن*"، فتقول عائشة متعمدة على سلطانها: "أجل، إن المرأة دابة جامحة*".

وكان أبو بكر يتدخل فى الغالب يدعو ابنته عائشة إلى محجة الصواب، وكانت عائشة تعمل بحذقٍ وبراعة على ما فيه مصلحة آلها وتحقيق آمالهم الخفية.

والحق أن نساء النبى كن فريقين، فالفريق الأول مؤلف من عائشة وحفصة ابنتى أبى بكر وعمر ساعدى النبى، وإلى هاتين الزوجتين انحازت سودة وصفية المحبوبتان قليلاً من زوجهما النبى، والفريق الثانى مؤلف من أم سلمة وزينب الحسناء ونساء النبى الأخريات، فكان ذلك مقابلة بنى تيم وبنى عدى الديموقراطيين لأريستوقراطي مكة.

وهل كان أبو بكر وعمر يتطلعان إلى خلافة صهرهما النبى؟ لقد قيل إنهما كانا متفقين مع أبى عبيدة على نيل خلافته بالتناوب بعد وفاته فوفقوا لذلك، وكان لأبى بكر وعمر بابنتيهما عائشة وحفصة المعين القوى على موازنة نفوذ فاطمة وعلى.

رأينا أن أم سلمة المخزومية أخبرت النبى قبل زواجه بها بأنها شديدة الغيرة وأن النبى قال إنه يدعو الله أن يذهب ذلك عنها، فوقع ما تختبر به غيرة أم سلمة بفصل روائى، فقد حدث أن أخذ النبى يلاطف عائشة فى حجرتها ذات مساء، مع إخبارها إياه إيماء بحضور أم سلمة التى لم ينتبه لمجيئها، فذكرت أم سلمة بصوت عالٍ أن نساء النبى لا يرقنه، ثم صارت تشتم عائشة المفضلة فلم يسطع النبى أن يسكّنها مشيراً إلى عائشة بأن تجيبها.

وكانت عائشة بنت أبى بكر تخرج ظافرة من اللجاج بين أمهات المؤمنين على الدوام كما روى المحدثون، فلم تلبث عائشة أن أسكتت أم سلمة المخزومية وشتمت، فيما قالته، ما يحاك فى منزل فاطمة وعلىّ الذى ما فتئ النبى يراعيه.

فأسرعت أم سلمة إلى ابنة النبى وصهره تخبرهما بما قالته عائشة فيهما، فأرسل على زوجته فاطمة لتحتج، فقال النبى:

"ورب الكعبة إن عائشة هى زوجة أبيك المفضلة*".

هنالك أراد النبى أن يحول دون تكرر ذلك العتاب فسد الباب الذى يصل منزله بمنزل ابنته.

قال عمر: "إذا مرض النبى فركت أزواجه عيونهن بكاء، وإذا صح أمسكن بتلابيبه*".

ويروى أن محمداً كان يحب العسل كثيراً، وحدث أن احتبس النبى عند زينب أكثر ما كان يحتبس ليشرب منه، فتواطأت عائشة معهن على أن تقول كل واحدة منهن: "إنى أجد ريح مغافير[1]، أكلت مغافير".

فدخل على عائشة فقالت له ذلك، فقال:

"بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش".

فقالت: "جرست نخلة العرفط[2]".

ومثل هذا ما قالته بقية نسائه، وهذا ليمتنع عن شرب العسل إذا ما عرضته زينب عليه ثانية.

ثم أرادت سودة أن تعلم هل جازت عليه الدعابة، فقالت:

"سبحان الله! واللهِ لقد حرمناه!"

فقالت عائشة لها: "اسكتى".

---

(1) المغافير: صمغ يسيل من شجرة العرفط حلو، غير أن رائحته كريهة منكرة.

(2) أى وعت نحله سجر العرفط الذى يثمر المغافير.

ثم حدث ما هو أسوأ من ذلك، فقد أعطى مارية،ذات ليلة، نوبة حفصة، فلما أبصرته حفصة بين ذراعى مارية عاتبته عتاباً شديداً فوعد بتحريم مارية عليه إن كتمت ما رأت، فلم تفعل، فنبأت بذلك أمها وصديقتها عائشة.

ومما وقع فى ذلك اليوم أن راجعت امرأة عمر زوجها فأنكر عليها مراجعتها (وعمر من تعلم من حدة مزاجه وشدته وما كان يحمله نحو النساء من آراء شيوخ قريش) قائلاً لها:

" وما لك أنت لما ها هنا؟ وما تكلفك فى أمرٍ أريده؟"

فقالت له: "عجباً يا ابن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان!".

فأخذ عمر رداءه وهو يقول: ستجازى على ذلك*"، وذهب إلى ابنته حفصة.

حفصة: " والله إنا لنراجعه".

عمر: "تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنية لا يغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها".

ثم دخل على أم سلمة لقرابتها منه، بعد أن عرض لعائشة، فقالت أم سلمة:

"يا ابن الخطاب، دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه!".

فهدأ عمر قليلاً ورجع على بيته وهو يظن أن الأمر وقف عند ذلك الحد.

والواقع أن بيت النبى كان مضطرباً، فقد اعتصبت نساؤه عليه وعلى مارية، فعمل على وقف هذا الاعتصاب ولام حفصة على إفشائها ما وعدت بكتمانه.

ثم قابل النبى ذلك الاعتصاب بأن لزم مشربة[1] له يرقى إليها بعجلة.

---

[1] المشربة: العلية، الصفة.

وكان عمر يقيم بناحية العوالى من الضاحية، فجاء إليه جار له ليلاً فدق عليه بابه وناداه، فخرج إليه، فقال: "حدث أمر عظيم".

عمر: "ماذا ؟ أجاءت غسان لغزونا؟"

الجار: بل أمر أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه".

فأسرع عمر إلى المدينة ودخل على حفصة وهى تبكى وقال لها.

"أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟"

حفصة: "لا أدرى، هو هذا معتزلاً فى هذه المشربة".

وكان الناس يجلسون حول المنبر الخالى بالمسجد باكين، فجلس عمر قليلاً معهم، فأتى غلاماً وطلب منه أن يستأذن له النبى بعد أن صعد فى المشربة، فصمت النبى، فنزل عمر منها، ثم أعاد عمر الطلب مرتين فلم يظفر فيهما بالإذن، فنزل عمر من المشربة أسفاً أيضاً، فإذا الغلام يدعوه قائلاً: "ادخل قد أذن لك".

دخل عمر فإذا النبى متكئ على رمل حصير قد أثر فى جنبه، فسلم عمر على النبى واقفاً، فكأن النبى لم يشعر بحضوره، فسأل النبى:

"أطلقت يا رسول الله نساءك؟"

فرفع النبى رأسه وقال لعمر: "لا".

فقال عمر متأوها: "الله أكبر"، ثم قال محدثاً عن سابق جداله:

"كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن".

فتهلل وجه النبى، فقال عمر:

"لقد رأيتنى ألوم حفصة، فعاتبتنى أم سلمة على دخولى بين أزواجك*".

فلم يتمالك محمد أن ضحك، فاستأنس عمر، فجلس، ثم قال:

"يا رسول الله، قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير، وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله".

فاستوى النبى وقال:

"أفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا".

عمر: "استغفر الله لى يا رسول الله!".

أبعد خطر الطلاق، فرأى النبى ألا يغضب عمر وألا يسرح نساءه، والنبى كان قد أقسم ألا يدخل على نسائه شهراً، فنام فى تلك المشربة وحده تسعة وعشرين يوماً، ثم أنزلت عليه آيات من القرآن عوتب فيها لابتغائه مرضاة أزواجه مع أن الله وسع عليه صلاته بهن، وأنبت فيها عائشة وحفصة لتظاهرهما عليه، جاء فى القرآن:

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾.

نزل النبى من مشربته فى اليوم التاسع والعشرين ودخل على عائشة، فقالت له:

"يا رسول الله أقسمت ألا تدخل علينا شهراً، وقد دخلت، وقد مضت تسعة وعشرون يوماً أعدهن".

فقال لها النبى: "إن الشهر تسع وعشرون".

أوحى إلى النبى أن يخير نساءه بينه وبين الحياة الدنيا وزينتها، وأوعز على عائشة بأن تستشير أبويها فى أمر بقائها أو طلاقها، فقالت:

"أفيك يا رسول الله أستشير أبوى، بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة".

ومثل عائشة صنعت أزواج النبى الأخريات غير مترددات، وكان للنبى بهذا فرصة دعوتهن إلى الطاعة ومنعهن من الإلحاف عليه بأن يشترى لهن الحلى وكان نفيس، وذلك مع تبليغهن (قد كان عددهن تسعاً) قول القرآن:

http://www.al-maktabeh.com

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾.

ويرى الأوربيون المعاصرون، الذين هم على شيء من الفريسية والقائلون بالاقتصار على زوجة واحدة والذين لا يطيقون غير تعدد الزوجات السرى خارج المنزل الزوجي، خلوة محمد بمارية فى بيت حفصة مما يتعجب من صدوره عن نبى، ولكن حفصة لم تكن لتألم من تلك الخلوة، بل ألمت لحدوث ذلك يوم نوبتها خلافاً لنظم الحريم.

ويظهر أن مثل ذلك لم يكن يؤذى شعور المعاصرين كثيراً، فلما كان من مزلة زينب ما علمت من مخالفة نظام التبنى هدأت النفوس بإبطال هذا النظام، وأكثر ما كان يعجب به الصحابة هو ما يرونه من قدرة مولاهم.

قال أنس بن مالك: "كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين رجلاً".

وروى هذا الخادم الشاب أن مولاه كان يطوف على نسائه الإحدى عشرة فى اليوم الواحد، ومثل هذا ما رواه ابن عمر وعائشة.

وكان النبى يعتف عن الطواف على أزواجه فى بعض الأحيان، ولاسيما فى الأيام التسعة والأخيرة من شهر رمضان حين يعتكف فى المسجد، فكانت عائشة تمشطه أيام اعتكافه من حجرتها من غير أن يخرج منه، وعن لعائشة، ذات يوم،أن تضرب له خباء فى ساحة المسجد حتى يدخله وحده وقت الصباح، فبدا لحفضة وزينب وضرائرهما الأخرى أن يصنعن مثل ذلك، فلما كان الغد ورأى محمد تسعة أخبية فى المسجد، قال هازاً كتفيه:

"الير تُرِدْنَ؟"

فأمر بالأخبية فقوضت، وترك الاعتكاف فى شهر رمضان من تلك السنة.

ومما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة فى بلاد العرب وحسن حالها.

قال عمر بن الخطاب "ما فتئنا نعد النساء من المتاع حتى أوحى الله فى أمرهن مبيناً ما لهن*"

وقال النبى: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم".

أجل، إن النبى أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق بهن ونهى عن تزويج الفتيات كرهاً وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق، قال النبى:

"استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً"، "دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك"، "إذا ما تماسك الزوجان بأيديهما سقطت ذنوبهما من بين أصابعهما*" ، "الجنة تحت أقدام الأمهات" ، "تقبيل الولد لأمه يعدل حلاوة ما ترسمه على عتبة الجنة*".

ولم يكن للنساء نصيب فى المواريث أيام الجاهلية، فقد روى أنه كان لا يرث فيها غير من يحسن الرماية ويذود عن الحياض ويسوق القطعان، فلما تنازع بنات ميت وأولاد أعمامهن أمر تركته وعرض ذلك على النبى ليحكم فيه أنزلت الآية التى تورث النساء وفى القرآن نص على أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وفى القرآن تحريم لو أد البنات، وفى القرآن أمر بمعاملة النساء والأيتام بالعدل، ونهى محمد عن زواج المتعة وحمل الإماء على البغاء، قال محمد: "من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران".

وأباح محمد تعدد الزوجات، وما كان ليستطيع أن يصنع غير ذلك فى بلاد إبراهيم، ولم يوص الناس به، ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات فيهب لإحداهن إبرة دون الأخرى، وخطر جمع أكثر من أربع زوجات فى آن واحد، وإن زاد عدد تزوجهن على ذلك امتيازاً له، وأباح الطلاق أيضاً مع قوله: "أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق".

وليس مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة من الحقوق الطبيعية مع ذلك، ولم فرضه كتاب العهد القديم على الآباء، وإذا كان هذه المبدأ قد أصبح سنة فى النصرانية فذلك لسابق انتشاره فى بلاد الغرب، وذلك من غير أن يحمله رعايا نيرون إلى بلاد إبراهيم ويعقوب، وهل غلمة السامى أشد من غلمة الآرى فكان ما علم من إشراك الآرى واقتصاره على زوجةٍ

واحدة ومن توحيد السامى وكثرة زوجاته[١]؟ وأيهما أفضل: تعدد الزوجات الشرعى أم تعدد الزوجات السرى؟ قد تختلف الأجوبة عن هذا السؤال باختلاف المجتمعات، وإنما الذى لا ريب فيه هو أن تعدد الزوجات، مع مساوئه التى لم ينكرها النبى والشعراء ولا أحد فى الشرق، من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر فى الوقت الحاضر، وإنما نود، مع ذلك، لو لم يجعل النبى من نفسه المثل فى أمر تعدد الزوجات.

ومن المزاعم الباطلة أن يقال إن المرأة فى الإسلام قد جردت من نفوذها زوجة وأما كما تذم النصرانية لعدها المرأة مصدر الذنوب والآثام ولعنها إياها، فعلى الإنسان أن يطوف فى الشرق ليرى أن الأدب المنزلى فيه قوي متين وأن المرأة فيه لا تحسد بحكم الضرورة نساءنا ذوات الثياب القصيرة والأذرع العارية ولا تحسد عاملاتنا فى المصانع وعجائزنا، ولم يكن العالم الإسلامى ليجهل الحب المنزلى والحب الروحى، ولا يجهل الإسلام ما أخذناه عنه من الفروسية المثالية والحب العذرى[٢].

---

(1) جاء فى الصفحة ١٠٩ من كتاب "الإسلام" لديكاسترى: قال مسيو ريفيل: "إننا إذا رجعنا إلى عامل الزمن والبيئة لـم نر إصلاحاً أكثر نفعاً وأبعد أثر من الذى نالته المرأة بفضل محمد، فالمرأة فى الشرق مدينة للنبى كثيراً" ، وقد يكون التسرى لدعى الأمور للأسف فى ذلك. وذكر مونتسكيو فى كتابه "روح الشرائع": "أن تعدد الزوجات والحجاب فـى الشرق من الأمور التى فرضتها البيئة وقوة الشهوة وبلوغ البنات الباكر وهرمهن قبل الأوان وما إلى ذلك من العوامل القوية، إلخ."

(2) انظر إلى الصفحة ١٧٦ من كتاب "الحلاج" لماسينيون.

الفصل الثانى والعشرون

النصر

الحديبية، خيبر ، الرسائل، مؤته، فتح مكة

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾

(من سورة الشرح)

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ (من سورة الفتح)

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ (الاسراء:٨١)

http://www.al-maktabeh.com

زال الخطر عن المدينة بعد حبوط الأحزاب أمام الخندق، وصار للإسلام أن ينظر إلى المستقبل مطمئناً، واخذ محمد يتطلع إلى فتح مكة التى أخرجته منذ ست سنين، وبدأ محمد، بعد انفصام ما بينه وبين اليهود، يعد الكعبة التى يقدسها العرب مركز دينه الروحى وأضحى صحابته المهاجرين يتأوهون حسرة على وطنهم الأصلى، ورأى مجلسه المؤلف من العشرة المبشرين بالجنة، كما رأى كل قرشى، أنه لن يمتنع عن الحج بأكثر من قبل.

فلما كانت الأشهر الحرم سار ألف وأربعمئة من المسلمين إلى مكة ومعهم سبعون بدنة[1]، حتى إذا كانوا بذى الحليفة وضعوا أسلحتهم ولم يحمل الواحد منهم غير سيف، فارتابت قريش منهم مع دلالة أوضاعهم على نياتهم السليمة فأرسلوا خالد بن الوليد على رأس كوكبة من الفرسان لوقف سيرهم، فسلك محمد بأصحابه طريقاً جبلية وعرة على ضوء القمر حتى بلغ الحديبية المحرمة وأرسل إلى قريش من يخبرها أنه أتى حاجاً لا عدواً، وهو يعلم أن مكة التى نهكتها الحرب وضاقت سبلها التجارية لا تنشد غير الإتفاق.

والواقع أن قريشاً بعثت من يجس النبض، وكان سيد الأحابيش الحليس ابن علقمة أول من برز فبهر بما رأى، فعد فى مكة أعرابياً جاهلاً فغضب وهدد قريشاً بقوله: "والذى نفسى بيده لتخلن بين محمدٍ وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد"، فقالت قريش له: مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما ترضى به"، ثم بعثت قريش إلى النبى عروة بن مسعود الثقفى، وأرادت قريش أن تظهر، بإرسالها هذا الغريب، بمظهر غير المكترث إن لم تكن قد أرادت الاستخفاف أو الإنكار عند الضرورة، وهذا إلى أن قريشاً كانت تود أن يدب التعب وروح الفوضى فى أصحاب محمد إذا ما طالت المفاوضات، بيد أن محمداً أبدى من الأناة والبراعة السياسية ما يورث العجب.

حاول عروة الإرهاب، فقال لمحمد:

---

[1] البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة والجمع بدن.

"يا محمد، أجمعت أوشاب[١] الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك[٢] لتفضها[٣] بهم؟ إنها قريشاً قد خرجت معها العوذ المطافيل[٤] قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً[٥]".

أبو بكر : "امصص بظر اللات، أنحن ننكشف عنه؟"

ثم جعل عروة يتناول لحية النبي وهو يكلمه، فصار المغيرة بن شعبة يقرع يده بغمد سيفه وهو يقول له:

"! أكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألا تصل إليك".

عروة: "من هذا يا محمد؟"

النبي: "هذا المغيرة بن شعبة"

عروة: "أي غدر[٦]، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟"

وأراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قتل قبل إسلامه رجالاً في رحلة وسلبهم فأصلح عروة ذلك الأمر.

رجع عروة الى قريش وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه فأثر ذلك فيه فقال لقريش:

---

(1) الأوشاب: الاخلاط.

(2) بيضة الرجل: أهله وقبيلته.

(3) تفضها: تكسرها.

(4) العوذ: جمع عائذ ونجيء بمعنى كل أنثى، والمطافيل جمع مطفل: ذات الطفل، أي معها طفلها، والمراد من العوذ المطافيل النساء والأطفال.

(5) انكشفوا عنك: انهزموا وتركوك لعدوك.

(6) الغدر: الغادر، ويقال في شتم الرجل "أي غدر".

"يا معشر قريش،إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه. ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم".

بعث قريش رجلين آخرين فكان لما شاهداه مثل ذلك الأثر فيهما، ثم حل الليل فأوقد المسلمون خمسمئة نارٍ فكانت كأنها تهدد بنورها مكة من مكان عالٍ، ثم أراد محمد أن يرسل إلى قريش من يطلب منها أن تدع المسلمين يزورون البيت الحرم، فاعتذر عمر بن الخطاب عن الذهاب إليها بأنه لم يكن بمكة من يمنعه، فبعث النبي عثمان بن عفان إلى قريش، فلما مضت ثلاثة أيام ظن أنه قتل فجمع النبي أصحابه تحت شجرة فبايعوه على الموت.

والمسلمون إذ كانوا يتأهبون للقتال أتاهم من أخبرهم بأن عثمان لا يزال حياً وأنه آت مع مندوب من قريش للمفاوضة.

أرسلت قريش السيد الخطيب والسياسي الماهر سهيل بن عمرو ليعرض على النبي الصلح، فوزنت كل كلمة من عقد الصلح، وأبدى النبي من الحذق ماداور به سهيلاً الذي كان يظن أنه المدير للمفاوضات.

ودعا النبي علي بن أبي طالب وقال له: "اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو".

فقال سهيل: "لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك بعد أن تكتب باسمك اللهم".

وافق النبي على هذا التعديل الشكلي لينال ما يوده من الأمور الجوهرية، ولكن علياً الذي كان ممسكاً بالقلم امتنع عن الكتابة وفق هذا التعديل المهين، فمحا النبي ذلك بيده.

وفي عقد الصلح أن الفريقين تهادنا عشر سنين، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام، وأن

من أتى محمداً من قريش رده عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه، فدخلت خزاعة فى عقد محمد وعهده.

ومن هنا ترى أن بعض هذه الشروط مزرٍ، فما احتج به أبو بكر وعمر، معبرين عن الرأى العام، حمل سهيلاً على الإسراع فى إمضاء المعاهدة خشية هدم ما بنى، فختم على طينٍ، واحتفظ النبى بالنسخة الأصلية، وحفظت النسخة الأخرى فى الكعبة، وتعد هذه المعاهدة،مع ذلك فتحاً مبيناً لمحمد الذى استطاع بها أن يفاوض البلد الذى أخرجه مفاوضة النظير للنظير، وأبصر محمد أن الثمرة أينعت، ورأى ألا يتعجل فى اقتطافها، ولم يدرك أصحابه مافي اعتداله من حذق.

ومما زاد المسلمين غماً مجيء أبى جندل يرسف[1] فى الحديد، وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو، وقد أسلم فسجنه أبوه فتفلت لاجئاً إلى المسلمين بالحديبية.

فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل قال: "يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه ترده إلى، لقد لجت القضية[2] بينى وبينك".

فجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته رافعاً يديه المكبلتين قائلاً: "يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنونى عن دينى؟ ألا ترون ما لقيت؟"

فقال النبى لسهيل: "فأجره لى".

فلم يرض سهيل ذلك مهدداً بنقض العهد، فسلم محمد بالأمر الواقع.

ومما زاد المسلمين استياء أمر النبى إياهم بأن يحلقوا رؤوسهم وينحروا بدنهم دون بلوغ الكعبة وجبل عرفات، فلم يمتثل المسلمون أمره، مع تكرير النبى له ثلاث مرات.

ومما حدث أن أتى عمر محمداً فقال:

---

(1) يرسف: يمشى مشى المقيد.

(2) لجت القضية: انعقدت وانتهى أمرها وتمت.

"ألست نبى الله حقاً؟"

محمد - بلى.

عمر - ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

محمد - بلى

عمر - فعلام نعطى الدنية فى ديننا إذن؟

محمد - إنى رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرى.

عمر - أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟

محمد - بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟

عمر - لا

محمد فإنك آتيه ومطوف به.

وعمر إذ لم يرض بهذا، ذهب إلى أبى بكر فقال له:

أليس هذا نبى الله حقاً؟

أبو بكر - بلى.

عمر - ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

أبو بكر - بلى

عمر فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن؟

تذمر الناس، ولم يأتمروا ما أمرهم به النبى، فدخل النبى على زوجته أم سلمة فى خيمتها فذكرها ما لقى من الناس، ثم خرج وعمل بما رأته فنحر بدنه ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأى الناس ما صنع قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم انطلق المسلمون راجعين إلى المدينة.

http://www.al-maktabeh.com

ندم عمر على ما فرط منه، فحرك بعيره وتقدم المسلمين وخشى أن ينزل فيه قرآن، فما نشب أن سمع صارخاً يصرخ به فى الليل، فقال:

"أخشى أن يكون قد نزل فى قرآن".

فجاء النبى، فقال له النبى:

"لقد أنزلت على الليلة سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس".

ثم قرأ:

﴿إنا فَتَحْنا لك فَتحاً مُبيناً﴾.

ثم ذكر أن السماء رضيت بما صنع مهنئةً إياه على أناته.

فقال عمر الحاد الطبع:

"أذلك فتح إذن؟"

فقال النبى: "بلى".

أبى محمد أن يؤوى أناساً هجروا مكة عملاً بالمعاهدة، فألف هؤلاء عصابة وصاروا يقتطعون قوافل قريش فاضطرت قريش إلى العدول عن ذلك القيد على أن يعمل النبى على منع هذا، وهكذا كان للنبى من الفوز ما هدأ به المسلمون.

وجه النبى نشاط أصحابه الحربى إلى يهود خيبر، وكلما أراد النبى ربط دينه الجديد بتقاليد العرب ابتعد عن بنى إسرائيل، وهاجر كثير من اليهود الذين طردهم النبى من المدينة إلى خيبر التى هى واحة كبيرة على ست مراحل من المدينة إلى جهة الشام، فكان يستعمرها جماعة من موسرى اليهود، فأصبحت خيبر مركزاً لِحَوْك الدسائس ضد الإسلام، وظن أن اليهود يعملون على سحر النبى فأسند إلى عزائمهم مرض أصابه.

استعد المسلمون لغزو خيبر، فسار منهم ألف وأربعمئة من المشاة ومئتان من الفرسان إلى الشمال، وكان دليلهم عامر بن الأكوع، فيرتجز عامر هذا ليلاً وفق خطوات الإبل

المنسجمة، وخرج مع النبى فى غزوة خيبر نسوة من بنى غفار لمداواة الجرحى، ودنت دابة غفارى من دابة النبى فخدش الغفارى ساق النبى فآلمه ذلك، فضرب النبى رجل الغفارى بعصاه فخشى الغفارى نزول قرآن فى أمره.

نزل غزاة المسلمين خيبر وقت الفجر فاستقبلهم عمال خيبر غادين، قد خرجوا بمساحيهم[١] ومكاتلهم[٢]، فلما رأوا محمداً قالوا خائفين:

"محمد والخميس[٣]!"

فقال النبى: "الله أكبر! خربت خيبر".

بدى بافتتاح حصون خيبر الخارجية،ثم هجم على أحيائها التى كانت قلاعاً مستقلة لابد من اقتحامها واحدة بعد الأخرى، ومما زاد المسلمين صولة أن كادت ميرتهم تنفد وأن كانوا يعلمون امتلاء بيوت اليهود بالغلال والأموال، ومما حدث أن ضاع ترس علىّ فتناول باباً لا يقدر ثمانية رجال على قلبه كما يروى، ثم فتح أهم حصون خيبر.

وكان من بين الأسرة سيد قومه كنانة بن الربيع وزوجته صفية بنت حيي بن أخطب الذى قتل بالمدينة مع من قتل من بنى قريظة فى العام الماضى، فمر بلال بصفية وبأخرى معها على قتلى من اليهود، فأما صفية فقد ظلت ثابتة الجنان، فهل دار فى خلدها استهواء الغازى المنصور؟ وأما رفيقتها فقد بكت وصكت وجهها ونتفت شعرها، فقال محمد:

"أعزبوا[٤] عنى هذه الشيطانة"، ثم قال لبلال:

أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟"

ثم أمر النبى بصفية الحسناء فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه، فاتخذ ذلك دليلاً على اختيارها لنفسه.

---

(1) المساحى: جمع مسحاة وهى الفأس.

(2) المكاتل: جمع مكتلة، وهى قفة كبيرة، ويقال لها الزنبيل.

(3) الخميس: الجيش لنه خمس فرق مقدمة وساقة وقلب وميمنة وميسرة وفى القلب يكون قائد الجيش.

(4) أعزبوا: باعدوا.

وتحدث المسلمون الغالبون عن غرفة مملوءة ذهباً وجواهر ولؤلؤاً وعن أن كنانة بن الربيع يعرف سرها، فقال كنانة إنه أنفق ذلك كله، فقال النبى له"

"أرأيت إن وجدنا شيئاً من ذلك عندك أأقتلك ؟"

فقال كنانة "نعم".

فأخبر خائن أو جبان من اليهود بأنه رأى سيده كنانة يطيف بخربة، فأمر النبى بالخربة فحفرت فأخرجت منها دراهم أقل مما كان يرجى، فأمر محمد الزبير بن العوام بما يصعب الاعتذار عنه من الضعف، أى أمره بأن يعذب كنانة حتى يستأصل ما بقى من ذلك، فعاد الجهاد بذلك لا يكون جهاداً، فصار الزبير يقدح بزند فى صدر كنانة حتى أشرف على نفسه، فامر محمد بقتله فقتل.

سأل اليهود النبى أن يعاملهم فى الأموال على النصف، لأنهم أعلم بها من المسلمين وأعمر لها، فصالحهم على ذلك، ثم أجلاهم عمر بن الخطاب إلى الشام فى خلافته بعد أن عوضهم منها:

وصنعت الأسيرة زينب ابنة الحارث شاة مصلية[1] فى حصن مفتوح فتناول النبى الذراع التى هى أحب عضو إليه فلاك منها مضغة فلم يسغها[2] ، فلفظها لما وجده من طعم موجب للشك، وكان مع النبى بشر بن البراء فازدرد ما لاكه منها احتراماً للنبى، فمات بعد قليل، وشعر النبى، مع ذلك، بألم عظيم فى أحشائه فعولج بالمحاجم.

ودعا بزينب، فاعترفت وقالت:

"بلغ من قومى ما لم يخف عليك، فقلت:إن كان ملكاً استرحت منه وإن كان نبياً فسيخبر"

---

(1) مصلية: مشوية.

(2) لم يسغها: لم يبلعها.

فتجاوز عنها النبى، وروى بعضهم أن النبى دفعها إلى أولياء بشر ليثاروا به منهما، ثم أولم النبى على صفية الحسناء التى اعتنقت دين المسلمين المنصورين تاركة دين أبيها، فكان الصحابة يحذرونها.

ومن حذرهم أن النبى لما أعرس بصفية فى قبة له حرسه أبو أيوب خالد بن زيد متوشحاً سيفه، فلما خرج النبى قال أبو أيوب:

"خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك".

واستولى جيش المسلمين على واحة فدك وواحة وادى القرى وعلى جميع حصون اليهود، ورجع إلى المدينة مثقلاً بالغنائم مكللا بالمجد، ثم بعث النبى السرايا فدانت للإسلام قبائل كثيرة، ثم أرسل الكتب إلى الملوك والأمراء الأجانب.

فلما أخذ كسرى أبرويز كتاب محمد ورآه قد بدئ فيه: بـ"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسول الله إلى كسرى عظيم فارس"، غضب وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه وقال: "يكاتبنى بهذا وهو عبدى؟"

فقال النبى حين علم ذلك: "مزق الله ملكه!"

وغير ذلك استقبال قيصر الروم هرقل لرسول النبى، فقد كان هرقل بإحدى مدن الشام حمص التى استردها من الفرس حديثاً، فقرأ كتاب النبى الآتى:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين[1] ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(1) الاريسين - الفلاحين

http://www.al-maktabeh.com

دهش هرقل وحار، فأحسن قبول رسول النبى وأعاده مع هدايا ورد جميل، وهرقل، إذ علم وجود قافلة لأهل مكة فى الديار الشامية بقيادة أبى سفيان، دعا أبا سفيان ليستوضحه الأمر فشهد أبو سفيان بخلق ابن بلده وعدوة:

هرقل – هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أبو سفيان – لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها.

هرقل – هل قاتلتموه؟

أبو سفيان – نعم.

هرقل – كيف كان قتالكم إياه؟

أبو سفيان – الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

هرقل – ماذا يأمركم؟

أبو سفيان – يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصدقة.

كان لبحث هرقل فى أمر سيد المدينة أثر كبير فى نفس أبى سفيان فقال:

"لقد أمر[1] أمر ابن أبى كبشة، هذا ملك بنى الأصفر يهابه".

وكان لدى قيصر الروم آنئذ ما يشغله عن ذلك الذى يلوح أنه أعرابى متعصب وعن مغازى العرب.

وبعث محمد كتاباً مع رسول إلى صاحب مصر المقوقس الذى كان يتمتع ببعض الاستقلال بسبب تنازع الروم والفرس، وذلك مع عده تابعاً لقيصر الروم، فقال المقوقس إنه سينظر فى الأمر، وأهدى إلى النبى فاخر الهدايا فأرسل إليه ثياباً من حرير وعسلاً وحماراً

---

(1) أمر: عظم.

سمى بيعفور وبغلة بيضاء سميت بدلدل وفرساً سمى باللزاز وجوارى منهن مارية الحسناء وأختها شيرين.

وقُتل الرسول الذى بعثه النبى إلى أمير بصرى، أدنى بلاد الشام إلى بلاد العرب، وذلك بمؤتة من قبل عربى من الاتحاد الغسانى النصرانى التابع لهرقل، فأراد النبى أن ينتقم فأرسل زيد بن حارثة على رأس ثلاثة آلاف رجل، وأمر بأن يغذوا فى السير ويفتحوا مؤتة، وقال لهم: "لا تغدوا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء"، ولكن المسلمين اصطدموا بجيش عظيم من الغساسنة وبعض الروم من غير أن يعرفوا تأليف مربع منهم فأوغل الفرسان العدو فيهم فقتل زيد، فتناول الراية من يده جعفر بن أبى طالب الوسيم الوجه والذى عاد من الحبشة منذ زمن قليل، فقاتل ببطولة، وكانت الراية بيمينه فقطعت فأخذها بيساره فقطعت فاحتضنها بعضدية حتى قتل بعد أن أصيب بتسعين طعنة وضربة، فأخذ الراية الشاعر عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً، ثم تناول الراية خالد بن الوليد الذى أسلم حديثاً فضم صفوف المسلمين بعد شتات ودقت[1] بيده وهو يقاتل تسعة سيوف.

فلما كان الليل وتحاوز الفريقان[2] المتحاربان وزع خالد بن الوليد الجندى الماهر المحنك جيش المسلمين بين كثير من الأماكن مما اعتقد العدو به أن المدد جاءه، فساعد ذلك على رجوع المسلمين إلى المدينة حاملين بخشوعٍ جثمان جعفر فبكى النبى قادته الثلاثة الذين قتلوا وزار أرملة جعفر ووضع على ركبتيه ابن زوجها الشهيد وأخذ يمسح رأسه فعلمت من ذلك قتل زوجها، وقد قال النبى:

"إن الله أبدل جعفراً بيديه جناحين من ياقوت يطير بهما فى الجنة حيث شاء".

ولما حضرت ابنة صاحبه الصادق زيد بن حارثة مال على كتفها وبكى، فاستغرب الحاضرون ذلك، فقال:

---

(1) دقت : كسرت.

(2) تحاوز الفريقان: انفصل أحدهما عن الآخر.

"إنما هى دموع الصديق يفقد صديقه*"

كان أفق محمد السياسي مقصوراً على غزو قريش ومطاردة الأعراب، فاتسع هذا الأفق قليلاً بغزوة مؤتة، ثم وجه محمد نظره إلى مكة، وكان لمحمد أن يدخل مكة حاجاً وأن يقيم بها ثلاثة أيام فى هذه السنة كما نصت عليه المعاهدة، فكانت عمرة القضاء، فقد خرجت قريش من مكة فدخلها المسلمون عُزلاً من السلاح وقضوا مناسكهم، وطاف النبى سبع مرات حول البيت على ناقته فيستلم الحجر الأسود بمحجنه فى كل مرة، وطاف المسلمون حول البيت مهرولين فى المرات الثلاثة الأولى ليعلم أن حمى المدينة لم تضعفهم، فلما انتهى اليوم الثالث طلبت قريش من المسلمين أن يخرجوا من مكة رادة دعوة محمد إياها إلى تناول الطعام فى وليمة زواجه بميمونة بنت الحارث.

وأسلم القائد العظيم خالد بن الوليد وابن الحب الشاعر الموهوب عمرو بن العاص مقدرين جرى الرياح مع الإسلام بعد اليوم.

وخرج الشاعر الغزلى الأعرابى الأعشى (الذى ضاف ذات يوم أعرابياً والداً بعدة بنات غير متزوجات فنظم قصيدة فكانت سبباً لزواجهن" إلى النبى يريد الإسلام، فاعترض أبو سفيان وقال له أنه يحرم الزنا ويحرم الخمر، وإن الرأى أن يتريث وأن ينتظر ماذا تسفر عنه المعاهدة التى عقدتها قريش معه او القتال الذى قد يحدث بينها وبينه، فرأى الأعشى أن يتروى من الخمر عامة على أن يسلم بعدئذ، فانصرف الأعشى فمات فى طريقه، وذلك بعد أن قال قصيدة مدح النبى فيها ووصفه بأنه حكم العرب وملكها.

وأخذت قريش تضطرب من استفحال أمر محمد، ولقريش بمعاهدة الحديبية الوقاية من هجوم يقوم به محمد، ولكنه حدث من المناوشات ما به الذريعة لينقضها محمد، فأرسلت قريش أبا سفيان لاعتماده على ابنته أم حبيبة التى تزوجت بمحمد حديثاً، فكان لأبى سفيان غضاضة فى توسله إلى محمد، وهو الذى ما فتئ يظهر ساخراً مقاتلاً لمحمد، ومحمد إذ أبصر ضعف قريش فى إيفادها أبا سفيان لم يرد على أبى سفيان شيئاً، وذهب طلب أبى سفيان إلى أبى بكر وعمر وعلى أن يتوسطوا لدى محمد أدراج الرياح، ثم أراد أبو سفيان أن يتملق فاطمة فطلب أن يكون الحسن جاراً له، فأجابته فاطمة بفتور: "والله ما

بلغ بنى ذاك أن يجير بين الناس"، وطوت أم حبيبة، التى أذن النبى لها فى قبول والدها أبى سفيان، الفرش، الذى ذهب أبو سفيان ليجلس عليه، قائلة "أنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم".

والواقع أن أبا سفيان كان يتطور مع الأحوال وكان يهيئ ما فيه نصر آله فى المستقبل، فكان يفاوض سراً فى أمر تسليم مكة بعد زمن قليل، والواقع أن أبا سفيان رأى فى محمد السيد السياسى الأعظم، كما رأى فيه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فأخذ يمهد السبيل للخضوع له.

زحف عشرة آلاف مسلم إلى مكة، وسلكوا فى طريقهم إليها السبل غير المطروقة ثم حلوا بالمرتفعات المجاورة، فأدرك اللبيب العباس بن عبد المطلب أن الوقت الذى يعلن فيه إسلامه وانضمامه إلى ابن أخيه النبى قد حل.

قال محمد للعباس ساخراً: "أنت خاتم المهاجرين كما أننى خاتم النبيين*".

والعباس إذا أراد تجنيب أهل مكة ما فيه هلاكهم، خرج من معسكر المسلمين راكباً بغلة النبى البيضاء لعله يجد خطاباً يرسله إلى قريش ليبلغهم نصيحته بأن يستأمنوا النبى.

وما حدث أن خرج فى تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر، فسمع العباس أبا سفيان يقول:

"ما رأيت كالليلة نيراناً ولا عسكراً".

بديل: "هذه والله خزاعة حمشتها[1] الحرب".

أبو سفيان: "خزاعة وأذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها".

فعرف العباس صوت أبى سفيان فقال: "ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس، واصباح قريش والله!"

---

(1)

أبو سفيان: "فما الحيلة فداك أبى وأمى؟"

العباس: "والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك".

فركب أبو سفيان خلف العباس، فكان العباس وأبو سفيان كلما مر بنار من نيران المسلمين قالوا: عم رسول الله على بغلته، ولما مرا بنار عمر بن الخطاب رأى أبا سفيان على عجز الدابة فقال:

"أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد".

ثم خرج يشتد نحو النبى وركضت البغلة فسبقته، فاقتحم العباس عن البغلة فدخل على النبى ودخل عليه عمر.

فقال النبى بعد جدال بين عمر والعباس.

"اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به".

فلما كان الصباح قال النبى لأبى سفيان:

"ويحك يا أبا سفيان: ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟"

أبو سفيان: "بأبى وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد".

النبى: " يحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟"

أبو سفيان: "بأبى وأمى أنت ما أحلمك وأكرمك وأوصك! أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً".

العباس لأبي سفيان ناصحاً: "ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله قبل أن تضرب عنقك".

ظل النبى صامتاً، دهش أبو سفيان من هذا الحلم الذى لم يكن ينتظره، وأبصر ما يقتضيه الحال فنطق بالشهادتين وعاد لا يفكر فى غير نيل أصلح الشوط لوطنه مكة فأعلن النبى أن كل من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ثم أراد النبى أن يبهر أبا سفيان فعلاً فأمر بأن تمر به جنود الله فيرها فمرت به القبائل مع راياتها، فمر النبى فى كتيبة الخضراء[1]، فقال أبو سفيان للعباس حين رآها: "ما لأحدٍ بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً".

العباس: "ألحق الآن بقومك فحذرهم!"

أمر النبى بحصار مكة، وبألا يقاتل قادته إلا من قاتلهم وبألا يمس بسوء من لا يقوم، فلما قال سعد بن عبادة: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة" عزله النبى من قيادته.

وكان النبى فى المؤخرة، وكان على رأسه مغفر، وأدرك علياً الذى ركز رايته بالحجون فلبس عمامة سوداء وثياب الحاج.

ودخل خالد بن الوليد على رأس كتيبة من الفرسان مكة من أسفلها فأمطروا قابلاً من النبال فقتل من المسلمين فصال الجندى الحمس خالد فانتهى إليه أمر النبى بحقن الدماء.

طلعت الشمس وكان للإنسانية أن تتيه فخراً بذلك اليوم الأغر، فقد دخل النبى مسقط رأسه راكباً ناقته القصواء.

توجه إلى الكعبة فوراً، فطاف بها وتسلم مفاتيح الكعبة، فأمر بطمس ما كان على جدرها من الصور، ومنها صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الآزلام[2] يستقسمان بها، ومنها صورة الملائكة بهيئة النساء، وهو الذى أخبر بأنه لا جنس للملائكة، وكسر صنم الإلهة هبل ذى اللحية واليد الذهبية وصنماً على شكل حمامة معلقة فى السقف، ثم أخذ بعد أن

---

[1] قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها، فقد كانت مؤلفة من المهاجرين والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد (المترجم).

[2] الأزلام: سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية، وهى جمع زلم.

http://www.al-maktabeh.com

صلى فى البيت ركعتين عوده فجعل يهوى به على كل واحد من الأصنام الـ ٣٦٠ التى كانت حول الكعبة وهو يقول: "جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً".

وبذلك تكون تلك الأصنام قد حطمت تحطيماً.

هنالك أمسك محمد بيده حلقة باب الكعبة الذهبية وحمد الله الذى صدق وعده، وقال:

" يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟"

فقالوا: "خيراً، أخ كريم وابن أخٍ كريم".

فقال وهو يبكى: "اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول لكم ما قاله أخى يوسف لإخواته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".

وصعد بلال الكعبة وأذن، وذهب محمد ليشرب من ماء زمزم بكأس العباس الذى ظلت السقاية فى عقبه، ثم اجتمع الناس بمكة لبيعه النبى على الإسلام، فجلس لهم على الصفا فصاروا يمرون أمامه وعمر بن الخطاب يأخذ منهم البيعة.

وقال النبى: "إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعض[1] بها شجراً، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعةً من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب".

وكان قول النبى ذلك عندما انتهى إليه خبر قتل رجل من خزاعة لرجل مشرك انتقاماً فعد هذا القاتل مجرماً.

وأعلن محمد العفو العام عن قريش خلا ستة رجال وأربع نسوة، ومن هؤلاء عبد الله بن خطل التيمي الذى كان مسلماً فقتل مولى له من المدينة لأنه لم يصنع له طعاماً بسرعة فارتد مشركاً، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء النبى فأمر النبى بقتلهما معه، فقتل عبد الله بن

---

[1] يعضد: يقطع.

خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، وقتلت إحدى القينتين وفرت الأخرى، ومنهم مقيس بن صبابة الذى قتل أنصارياً ورجع إلى قريش مشركاً فقتل يوم الفتح، ومنهم الحويرث بن نقيذ الذى كان شديد الأذى على النبى فقتل وأما الثلاثة الآخرون الذين أهدر النبى دمهم فقد فروا، وعكرمة بن أبى جهل الذى كان أحد هؤلاء الثلاثة هرب إلى ناحية البحر فاستأمنت له زوجته من النبى فأمنه فأدركته حين كاد يبحر فرجع معها ليسلم فأحسن النبى قبوله، وهبار بن الأسود، الذى كان أحد هؤلاء الثلاثة أيضاً، اختفى زمناً طويلاً ثم جاء إلى المدينة ومثل بين يدى النبى وأسلم فعفا عنه.

وكان كاتب الوحى الشاب عبد الله بن سعد بن أبى سرح يتلهى بتحريف ما يمليه النبى عليه من الآيات، فعاد إلى مكة فراراً من غضب النبى وإعلاناً لارتداده عن الإسلام، والنبى إذ أن يمقت الاستهزاء والأهاجى وكان شديد السخط على ذلك الذى سخر منه وعمل على نقض رسالته أهدر دمه أيضاً، فكان أحد هؤلاء الثلاثة، ثم أراد صهر النبى عثمان بن عفان، وكان أخاً لذلك الأثيم من الرضاعة، أن تسعه رحمة النبى، فأتاه به راجياً عفوه عنه فصمت النبى طويلاً ليقوم إليه بعض الحاضرين فيضرب عنقه كما ذكر ذلك بعدئذ، فكرر عثمان رجاءه فعفا عنه النبى، وكان له بصمت النبى إنقاذ لحياته.

وعفا النبى أيضاً عن المرأتين الأخريين اللتين أهدر دمهما، وأهم هاتين المرأتين زوجة أبى سفيان هند بنت عتبة التى لاكت كبد عم النبى حمزة، فلما مثلت هند الحسناء بين يدى النبى المنصور مع نسوة أشراف قريش كان قد أوحى إليه بآية مبايعة النساء، فأبدى حين أخذ بيعتهن مروءة وسعة صدر، فلما دنون منه ليبايعهن قال:

"بايعننى على ألا تشركن".

فبايعت هند على ذلك

النبى: ولا تسرقن".

هند: "إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطينى ما يكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم".

النبى مبتسماً: "خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف".

ثم قال النبى: "ولا تزنين".

هند بأنفة: "أو تزنى الحرة يا رسول الله؟"

والناس يعلمون ما كان لهذه الحسناء من فتنة للقلوب، وما كان لعمر عندها من الزلفى فى غابر الأزمان، فنظر عمر مبتسماً إلى النبى، فعلم النبى مغزى ابتسامة عمر، فحدق إليه من غير أن يقول كلمة حذر انتباه أبى سفيان.

النبى: "ولا تقتلن أولادكمن".

هند: "ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر".

فصمت النبى.

ثم قال النبى: "ولا تأتين ببهتان تفترينه".

هند: "والله إن إتيان البهتان لقبيح".

النبى: "ولا تعصينني فى معروف".

هند: "والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف".

وأحضر النبى إناء فغمس يده وغمسن أيديهن فيه فكانت بيعة النساء.

وكان حب العفو آخذاً من نفس النبى الغالب كل مأخذ، فقد قرت عين النبى بفتح مسقط رأسه، فصار لا يفكر فى غير تألف القلوب بالإحسان كما أمره القرآن، وكان النبى من الفطنة ما علم به بعد سياسة الانتقام من الصواب، فأعطى عمير بن وهبٍ عمامته السوداء لتكون علامة أمان لابن عمه صفوان ابن أمية الذى كان من أشراف المشركين، فلما مثل صفوان بين يدى النبى أمهله بالخيار أربعة أشهر، ولما أتى أبو بكر بأبيه الهرم يقوده إلى النبى ليسلم قال النبى له: "هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟"، وبلغ النبى من الحدب على بلده ومن الإعجاب باستعداد قريشٍ وأهليتها ما قلق معه الأنصار من سياسته فى تألف قلوب أعدائه السابقين.

وكاد النبي يتزوج ملائكة بنت داود (؟) لولا مكيدة عائشة، ثم قام النبي على قبر خديجة يدعو لها، ولا تسل عما دار في خلد النبي آنئذ من ذكرى ما كان قد أفضى به إليها من الأمر العظيم الذى حقق.

والنبي، بعد أن طهر مكة في الوثنية ونادى مناديه فيها يعلن أمره بكسر ما في البيوت من الأصنام وبحظر تجارة الأصنام، بعث السرايا لكسر أصنام القبائل المجاورة لمكة،/ فأرسل عمرو بن العاص إلى أرض يقال لها رهاط فكسر فيها صنم بني لحيان المسمى سواع، وأرسل مئة وخمسين فارساً لهدم ذى الخلصة "الكعبة اليمنية" فجعلوها كهيكل الناقة العظمى، وهدم على بن أبى طالب في قديد الواقعة على الساحل بين مكة والمدينة مناة (إلهة الموت على ما يحتمل) وجردها من سيفها اللذين كان ذو الفقار أحدهما، وكسر الفلس صنم بني طيئ، وهو صخرة حمراء قائمة على جبل أجأ فكانت تكسى فى أيام الأعياد، واستولى على مضارب قبيلة بني طيئ نصف النصرانية وأسر ابنة أميرهم حاتم الشاعر الشهير الذى ضرب بكرمه المثل، فأعتقها النبى وأسلم أخوها عدى.

ومسح خالد بن الوليد شجرة العزى المقدسة بنخلة حيث كانت تسمع أصوات خفية، وهدم بدومة الجندل الصنم ودا الذى كان على هيئة رجل مجهز بسيف وقوس وسهم وراية، وبعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، وكان معه رجال من بني سليم، وبنو جذيمة هؤلاء كانوا قد نهبوا عم خالد وقتلوه مع أناس من بني سليم أيام الجاهلية، فلم ير خالد غير شهر السيف مع أن النبى لم يأمر بغير دعوتهم إلى الإسلام.

سألهم خالد بغلظة، فقر أناس منهم، فأعمل فيهم السيف بعد كتف الآخرين، ثم خرب بيوتهم وقتل الأسارى منهم على الرغم من بعض رجاله.

فلما انتهى إلى النبى خبر هذا الظلم رفع يديه إلى السماء فقال:

"اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد".

ثم لام خالداً على فعلته أيما لوم، ثم بعث على بن أبى طالب ومعه مال إلى بني جذيمة فودى[1] لهم قتلاهم ورد إليهم ما غنم من أموالهم.

---

[1] ودى لهم قتلاهم : أعطى أولياءهم دياتهم.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث والعشرون

حجة الوداع

حنين، الطائف، تبوك، الإسلام

"اللهم هل بلغت؟"

خرج النبى من المدينة إلى مكة حاجاً فى السنة العاشرة من الهجرة، وخرج معه تسعون ألف حاج جاءوا من جميع أنحاء جزيرة العرب، وتجلت بهذه الرحلة الباهرة ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبى الذى نهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبى الذى جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة، ورافق النبى فى تلك الرحلة نساؤه التسع فى هوادج، وكانت ألوف الجمال المزينة برايات وقلائد من الزهور تسير مع الموكب ليضحى بها.

فلما بلغ النبى ذا الحليفة بات ومن معه فيها وطاف بنسائه التسع، ثم طيبته عائشة صباحاً بعد الغسل، ثم أحرم فبدا مكشوف الرأس والذراعين والساقين عاطلاً من عباءة ومن قميص ومن سروال مشدود الوسط بقطعة من نسيج، ثم ركب ناقته ونادى ملبياً:

"لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، الحمد والنعمة والشكر لك لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك".

فردد المسلمون ذلك وانطلقوا مع النبى إلى البيت الحرام وهم يلبون وكان لمحمد أن ينظر إلى حوادث هذه السنة الأخيرة، وأن يتمثل ما أتمه من الاعمال، ومحمد الذى خلق للقيادة لم يطالب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلغهم رسالات الله، فمحمد يكون بذلك واسطة بين الله رب العالمين والناس أجمعين، وكان رؤساء القبائل المتخاصمة يقولون إن محمداً يبتغى حكم العرب، وكان أبو سفيان يقول متحسراً ناقص الإسلام: ذهب زمن النبوة وجاء زمن القوة، ولكن النبى كان ينهى عن عدة ملكاً، فهو، إن انتحل بعض مظاهر الملك، كان ذا زهد وتقشف أيضاً، فيقول دراً لخطأ الناس: "لست بملك، وإنما أنا ابن امرأة من قريش"، أجل، نال النبى السلطان والثراء والمجد، وكان عنده ذهب وخيل وجمال ونساء وأولاد وكل ما فى هذه الحياة الدنيا من الزينة، ولكنه لم يغتر بشىء من هذا كله فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم، ومما كان يمضه عجز كثير من الناس عن إدراك كنه رسالته، وعجزه تجاه المنافقين الذين لم ينضموا إليه إلا لقوته، ومما كان يحزنه ويخزه، على ما يحتمل، ما فى السياسة والحروب وحكومات الدنيا

من اللوث والكدر، ومما حدث أن اقتسم الصحابة ذات يوم ما جبى من البحرين، فصار العباس يحفن منه الذهب ويضع منه فى ردائه ما لم يسطع أن يرفعه، فطلب أن يساعد عليه فرفض النبى طلبه، فاضطر العباس الطماع إلى ترك بعض ما أخذ، فبأى عينٍ مزدرية انظر النبى إلى عمه حين انطلق حاملاً ذلك. الثقل على كتفه؟

والعرب، بعد أن ظلوا، فى الغالب ساكتين إزاء ما كان يقع بين المدينة ومكة من القتال صاروا ينحازون إلى النبى المنصور، فأخذ النبى ينصب خيمة واسعة حمراء بالمسجد فى أوقات الضحى ويستقبل فيها فود القبائل، وكانت مبايعة القبائل لمحمد مبايعة لسيد المدينة أكثر منها مبايعة لرسول الله، ووفد على النبى نصارى نجران فجادلوه فى شأن الكتاب المقدس فرضوا بأن يعطوا الجزية مع بقائهم على دينهم، وكان من يسلم يدفع الزكاة، وظل بنو تميم يهزءون بالخبر الطيب زمناً طويلاً، ولم يسلموا إلا بعد أن فاخر شعراؤهم شعراء النبى وبعد أن اعترفوا بغلبهم فى المفاخرة، ومن شعراء بنى تميم الذين برزوا فى هذه المفاخرة عمرو بن الأهتم الشاب الذى كان يدعى بالكحيل لجماله، وكان كعب بن زهير من الذين أباح النبى دمهم لما كان يهجو النبى به، ثم عفا النبى عنه بعد أن مدحه بقصيدته المشهورة التى جاء فيها:

إن الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

فلما وصل كعب بن زهير إلى هذا البيت رمى النبى إليه بردة خضراء كانت عليه.

وتحالفت ثقيف وهوازن بعد فتح المسلمين لمكة، وذلك كما نصح به دريد ابن الصمة الأعرابى الأعمى الذى كان لا تلين له قناة والذى جاوز سن المئة والذى كان يحمل فى هودج، فكان على النبى أن يحاربهما، وإن المسلمين لفى وادٍ من حنين إذ شدت عليم القبائل فاختلط أمرهم واضطربوا وشتتوا، فقال أبو سفيان مغتبطاً: "لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .." فجمع العباس بن عبد المطلب شمل المسلمين بصوته الجهير فاستولوا على معسكر هوازن، فأدرك ربيعة بن رفيع الشاب دريد بن الصمة فأخذ جمله، وهو يظن أنه

امرأة حسناء، وذلك أنه فى شجار[1] له ، فإذا برجل، فأناخ به ، فإذا هو شيخ كبير، وإذا هو دريد بن الصمة، فضرب ربيعة دريداً بسيفه فتكسر اليف من غير أن يغنى عنه شيئاً، فقال له دريد بأنفة: "خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به "، وكان الرجل فى الشجار فأخذ ربيعة سيف دريد فقتله به.

انتهى القتال فانقض المسلمون على الأسيرات المتزوجات وغير المتزوجات وانتهى المساء بعربدة، وعرف محمد من بين السبايا أعرابية عجوزاً هزيلة ظهر أنها أخته من الرضاعة،وذلك من أثر عضة كان قد عضها بها فى أثناء اللعب أيام كانا صغيرين، فعاملها النبى بالحسنى.

ثم حاصر النبى الطائف عشرين يوماً فلم يظفر بطائل، مع ما استعان به فى حصرها من المجانق[2] والدبابات[3] ومع ما قام به من الهجمات، فرجع المسلمون عن الطائف وبدئ بتقسيم الغنائم.

كانت غنائم المسلمين فى غزوة حنين ٦٠٠٠ أسير و ٤٠٠٠ أوقية فضة و٢٤٠٠٠ بعير وما لا يحصيه عد من الغنم، وألم النبى واشمأز من تهافت الناس على الغنائم وبقائهم غلاظاً، فقد اتبعوه حتى أضاع رداءه فى الزحام، ثم أخذ وبرة من سنام بعير بين إصبعيه ثم رفعها ثم قال:

"أيها الناس، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم.."

أعطى النبى المؤلفة قلوبهم خمسة، فأعطى معاوية بن أبى سفيان (الخليفة فى المستقبل) مئة بعير وجعله أحد كتاب الوحى.

---

(1) الشجار: شبه الهودج.

(2) المجانق: جمع منجنيق وهى آلة من آلات الحرب ترمى بها الحجارة.

(3) الدبابة: آلة من آلات الحرب تتخذ فى الحصار كانوا يدخلون فى جوفها ثم تدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها، والمنجنيق والدبابة أول ما استعملا فى الإسلام فى حصار الطائف.

http://www.al-maktabeh.com

وأتى النبى وفد من هوازن يطلب إليه أن يرد إليهم أبناءهم ونساءهم على الأقل، فرد إليهم نصيبه منها، فحمل المسلمين على الاقتداء به، فأسلمت هوازن وحالفت النبى على ثقيف.

ولما أعطى النبى ما أعطى من تلك العطايا، ولم يكن للأنصار منها شىء وجدوا فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة[١]، فأتاهم النبى وقال:

"يا معشر الأنصار! ما قاله بلغتنى عنكم وجدة[٢] وجدتموها على فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف بين قلوبكم؟"

الأنصار: "بلى، الله ورسوله أمن وأفضل".

النبى: "ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟"

الأنصار: "بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل".

النبى: "أما واللهِ لو شئتم لقلتم فلصدقتم ونصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك[٣]، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة[٤] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفسى محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً[٥] وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار".

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[٦] وقالوا:

---

(1) القالة: الكلام الردئ.

(2) الجدة: الموجدة.

(3) آسيناك: أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.

(4) اللعاعة: بقلة ناعة شبهت بها زهرة الدنيا ونعيمها.

(5) الشعب : الطريق بين جبلين.

(6) أخضلوا لحاهم: بلوها بالدموع.

"رضينا برسول الله قسماً وحظاً".

وخضعت الطائف فى نهاية الأمر، فوجه النبى أبا سفيان والمغيرة بن شعبة ليقوما بهدم اللات وتجريد اللات من الحلى، فقاما بذلك ونساء ثقيف حسر باكيات.

والنبى استطاع، مع تقدم سنه وتوعكه وتذمر الناس وتخلف عبد الله بن أبى والمنافقين، أن يجمع جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألف رجل ليقوده إلى حدود الشام فى أيام الصيف الحار، ﴿وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ .

لم تكن الفكرة موفقة، فقد كان جوب البادية صعباً، وكان لديار ثمود الملعونين الذين كانوا يسكنون بيوتاً فى الصخر أسوأ الأثر فى المسلمين حين مروا بها فكانوا يرتعدون من صدى الجلاميد العالية مئتى ذراع ما حجب النبى وجهه بردائه وأمر جنوده بأن يغذوا فى السير، وجعل محمد جنوده يعسكرون بعد غروب الشمس المحرقة تحت عاصفة من الرمال جياعاً عطاشاً، وتوارى هؤلاء الجنود خلف جمالهم مولين الرياح ظهورهم مدثرين بأرديتهم متشبثين بالأرض، وخرج اثنان من المعسكر فاختنق أحدهما واحتملت الريح الآخر، فلما أصبح الناس بدأوا يزحفون منهوكين محمرى العيون مفطرى الأرجل مجمدى الريق مدويى الآذان مفريى الجلود زالقين على ألواح حجرية سود متخرقين بصخور بادية على شكل سوق الشجر وشياطين الشر، وبلغ بعضهم من الهذيان ما صب معه فى حلوقهم ووضع على صدورهم سوائل أخذت من كروش الإبل.

وبدت فى السماء سحب مشعة مستندة إلى أعمدة من رمال كأنها دخان، فلما أمسى الناس غشيت معسكرهم قبة سوداء، وإن شئت فقل أظلته غمامة، فخرج منها برق ووابل فنجى المسلمون، ثم سار المسلمون بضعة أيام فبلغوا صحراء واسعة رملية أبصروا فى أفقها خطاً أزرق ثم أبصروا بالتدريج غابة نخل أخضر، أبصروا واحة تبوك.

عاد المسلمون إلى المدينة، بعد أن حملوا بعض القبائل على الإسلام أو إعطاء الجزية عند عدم الإسلام، من غير أن يجرؤوا على منازلة كتائب الروم المنظمة، ومن المحتمل، أيضاً، أن يكون المسلمون قد عدلوا عن مواصلة زحفهم حينما علموا، خلافاً لما كانوا

يظنون، أن هرقل لم يجهز جيشاً لغزو المدينة وأنه لم يصد عرب الشمال عن الإسلام كما اتفق هو ومحمد على ذلك سراً (؟).

نعم، عاد محمد غير عاطف على الروم كما فى الماضى، ولكن من المحتمل أن يكون قد رأى من الصواب ألا يناصبهم العداء، وأن أبصر أن محاربة الروم ليست سهلة مثل محاربة الأعراب كما ألمع إليه عبد الله بن أبى ساخراً ، فكان تكفيه سلامة حدود الدولة الحجازية الفتية، وكان يكفيه منع القبائل المجاورة من التجمع.

تلك هى الحوادث الأخيرة التى وقعت أيام قيام النبى بحجة الوداع فى بلد آبائه الذى طهر من الوثنية، وذلك بعد أن بعث على بن أبى طالب فى موسم الحج الماضى ليتلو على الناس آيات من سورة هائلة ويعلمهم بمقاتلة الإشراك بعد أربعة أشهر وإخراج المشركين من البيت الحرام، فكان للإيمان، بذلك، السلطان فى جميع الحجاز وما وراء الحجاز.

ما كان لجيش أن يقف أمام سير تسعين ألف حاج سيراً سلمياً، فبدا النبى مسروراً قرير العين واحتمل ما تطاولت به عائشة، ولام أبا بكر على لطمه إياها وضربه غلاماً له أضل بعيره الحامل أزواداً.

دخل النبى مكة، وسار أمام وخلفه فتيان من آله، خرجا للقائه، ثم أناخ راحلته عند باب الكعبة، ثم أرى النبى الناس مناسك الحج فى الأيام التالية، فبعد أن توضأ النبى ثلاث مرات طاف حول البيت واستلم الحجر الأسود، ثم سعى بين الصفا والمروة المملوءين مقادس إشراك، ثم نزل فى خيمة من صوف نصبت له بوادى منى الواقعة فى أسفل جبل عرفات والبعيدة من مكة سبعة فراسخ، وتقول القصة إن آدم اجتمع بحواء على جبل عرفات الغرانيتى بعد طويل فراق، وإن هاجر المكروبة كانت تسعى بين الصفا والمروة غير مرة راجية أن تجد إنساناً قبل أن يفجر الملك ينبوعاً لإنقاذ ولدها إسماعيل من الهلاك.

أبقى محمد شعائر الحج كما كانت عليه قريش في العهد الجاهلي، خلافاً لآمال أهل المدينة، فأراد بذلك اجتذاب قريش إلى الإسلام والارتقاء بهم إلى ما فيه سمو الروح وتقريبهم من تعاليم الكتاب المقدس. (

ولما كان وقت الفجر صعد النبي، بعد أن صلى، جبل عرفات، وخطب من فوق ناقته الناس الذين أحرموا ثم ملأوا جوانب الجبل وبطن الوادي ذي العوسج[1] والعضاه[2]، وكان ربيعة بن أمية ذو الصوت الجهوري بجانب النبي فكان يردد قول النبي جملة بعد جملة، وكانت جبال الطائف الشامخة في ناحية الشرق ترى بعيدة من تلك المكان.

أراد رسول الله أن ينقش بتلك الخطبة مبادئ الإسلام في النفوس، ودعا العرب إلى الاتحاد وعدم الوقوع في الضلال مرة أخرى، قال الرسول:

"أيها الناس! اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً .."

هناك أخذت الجمع روعة فقال النبي:

"اللهم هل بلغت ؟ "

الجمع: "نعم".

النبي: "اللهم اشهد".

ثم أفاض النبي من عرفات إلى الوادي بين هتاف المسلمين، وإنه لكذلك إذ ألقى عليه قول ثقيل فرزحت ناقته القصواء التي كان راكباً إياها من ثقل الوحي، فتلوت ركبها وحنت رأسها حتى مس الأرض، فتلى النبي آخر ما أوحى إليه من الآيات.

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾

---

[1] العوسج: من شجر الشوك، الواحدة عوسجة.

[2] العضاه: ما صغر من شجر الشوك، الواحدة عضة وعضاهة.

http://www.al-maktabeh.com

عم الفرح المسلمين لما سمعوا هذه الآية، وبكى أبو بكر لاستدلاله بها على دنو أجل النبى، والنبى كان يغذ فى السير بصعوبة داعياً من حضر إلى النظام والهدوء، والنبى أراد انتظام السير فزم ناقته حتى لمس رأسها منكبها، وكانت الشمس تغيب فألقت شعاعها الأخير على جذعه وعلى وجهه الذى كان مشرقاً على المسلمين المشاة، ثم ساد الظلام مع غم فسكنوا بعد حماسة كبيرة.

قال النبى منذ هنيهة: "اللهم هل بلغت؟" فالحق أن النبى لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحى إليه فى غار حراء، فقضى حياة يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت فى رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطى.

وليس لدينا ما نعرف به أن محمداً أبصر، حين أفاض من جبل عرفات فقال: "اللهم هل بلغت؟" مستقبل أمته وانتشار دينه وأنه أحس ببصيرته أن العرب الذين ألف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وإفريقية وأسبانية.

والعرب إذ صار لهم سيد دان له الجميع (مما لم يتفق لأحد من سادتهم حتى لأبى امرئ القيس) وصارت لهم روح عامة ومبدأ واحد أصبحوا من القوة ما استطاعوا به أن يكونوا ذوى شأن فى العالم، والعرب الأعزاء، مع ثيابهم الرثة وبأسهم الشديد، لم يكونوا عاطلين من الرقة واللطف، والعرب كانوا مستعدين ليرثوا الدول العالمية المحتضرة، والعرب على خلاف الجرمان والوندال والبرابرة بدوا وارثين مستعدين لتمثيل دورهم فى التاريخ والصعود تواً فى سلم الحضارة والعرب كان ظهورهم فى الوقت المناسب فأنقذوا العالم من الانهيار، والعرب أخذوا المصباح من أيدى البيزنطيين والفرس العاجزة فكان دور خلفاء بنى أمية وبنى العباس الذى يعد من أنضر أدوار التاريخ، وذلك قبل أن ينتقل هذا المصباح فى القرن الثالث عشر إلى ما بين البارتنون وشارتر، والعرب لو تركت حبالهم فى غواربهم ما قاموا بعير التخريب لاريب، ولكنهم جلبوا معهم الإسلام والمروءة حين قبضوا على زمام المدنيات القديمة التى كانت تنحل فازدهرت بفضلهم.

كتب الفوز للعرب لأنهم كانوا أهلاً للفوز، وتم النصر للإسلام لأنه عنوان رسالة كان الشرق كثير الاحتياج إليها، واحتمل المسلمون ضروب العذاب قبل الهجرة ولم يستطيعوا لها رداً، فلما كانت الهجرة، وكان ما أبدوه من المقاومة، وكان لهم من النصر ما علمت، اتخذوا التسامح الواسع دستوراً لهم، أجل لم يبق للمشركين مقام فى دار الإسلام، ولكنه أصبح لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيها حق الحماية وحرية العبادة وما إليها وصاروا من المجتمع إذا ما أعطوا الجزية، قال النبى: "من آذى ذمياً فأنا خصمه"، وما أكثر ما فى القرآن والحديث من الأمر بالتسامح، وما أكثر عمل فاتحى الإسلام بذلك، ولم يرو فيه، وهنا نذكر أن عمر بن الخطاب لما دخل القدس فاتحاً أمر بألا يمس النصارى بسوء وبأن تترك لهم كنائسهم وشمل البطرك بكل رعاية ورفض الصلاة فى الكنيسة خوفاً من أن يتخذ المسلمون ذلك ذريعة لتحويلها إلى مسجد، وهنا نقول ما أعظم الفرق بين دخول المسلمين القدس فاتحين ودخول الصليبين الذين ضربوا رقاب المسلمين فسار فرسانهم فى نهر من الدماء التى كانت من الغزارة ما بلغت به ركبهم ولجم خيولهم، وعقدوا النية على قتل المسلمين الذين تفلتوا من المذبحة الأولى[1]!.

---

[1] قال روبرتسن فى كتابه "تاريخ شارلكن" : "إن أتباع محمد وحدهم هم الذين جمعوا بين التسامح والدعوة إلى الإسلام"، وقال القسيس ميشون فى كتابه "رحلة دينية فى الشرق" : "إن من المؤسف حقاً أن علم المسلمون أمم النصرانية التسامح الدينى الذى هو دعامة المحبة بين الأمم"، أجل، إن- - هذه الآراء لا تخلو من المبالغة ما أمرت النصرانية، وعملت أيضاً، بالتسامح الذى لم يجعل الإسلام من نفسه مثلاً عليه فى كل مكان، ولكنه يبالغ، على العموم، فى الناحية الأخرى.

وقال محمد عبده فى كتاية "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" : "الدين دين الله، وهو دين واحد فى الأولين والآخرين، لا تختلف إلا صوره ومظاهره، وأما روحه وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير، إيمان بالله وحده وإخلاص له فى العبادة ومعاونة بعضهم لبعض فى الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا، وهذا لا ينافى الارتقاء فى الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية، ونعتقد أن دين الإسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول، ومن أهم وظائفه إزالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإنفاق والإخاء والمودة والائتلاف، وهذا ما عمل عليه المسلمون قرناً بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالإسلام" ، ومن المؤسف أن قل عدد من يتبعون ذلك، فترى المسلمين، ومنهم المثقفون، ينفرون من قراءة الإنجيل والتوراة من قول القرآن: "فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، لقد جاء الحق من ربك فلا تكونن من الممترين" (من سورة يونس).

ومن المحزن أن كابد الإسلام غزو المغول الذين خربوا قنوات العراق وترعه وأقاموا أهراماً حمراً من الرؤوس التى قطعوها، وأن أدى عدم تسامح الترك ذوى النزعة الحربية إلى اشتعال الحروب الصليبية، وأن واجه المسلمون من المؤثرات ما حبب إليهم الدنيا، وأن عرفوا من الفتن والحروب الأهلية ما بدأ الصحابة به، وأن عانوا الشيء الكثير من المطامع والمظالم والاختلاف وسوء التفاهم وضروب التعصب.

قال مونتين: "ينشأ عن حميتنا كل عجيب إذا ما غدت ميلنا إلى الحقد والقسوة والطمع والشح والتخريب والعناد وسوء التفاهم وقلة الإحسان وعدم الحلم، ويسترد ديننا العيوب والنقائص ويغذيها ويحث الناس عليها مع أنه جاء لاستئصالها".

ولا يؤدى التطور فى الغالب على غير سوء التفاهم وعدم التسامح فتشتد وطأة التعاليم الأولى عند العمل، فكان الانحطاط السياسى والاجتماعى موازياً لنسيان مبادئ الإسلام الصحيح مع أنه لم ينشأ عنها، واليوم يظهر أن الأمم الإسلامية تنهض وهى تستطيع أن تمثل دوراً كبيراً فتكون أداة وصل بين الغرب والشرق الأقصى وتكون ذخراً من أذخار العالم القديم[1]، ولكن ألا يجدر بنا، أكثر من أى وقت، أن نعلم الحقائق الجوهرية وأن لا نستسلم إلى ما لا يجوز بغض النظر عن أى عامل اجتماعي أو سياسى؟

وفى الصباح رمى النبى بمنى سبع جمرات[2] على كل واحدة من الأركان الثلاثة التى تمثل الشيطان، ثم فك رقاباً ونحر عدداً غير قليل من النياق فاقتدى الناس به فكان الوادى الغرق بالدماء يرن بهدير الضحايا، فكان يقترن من الضحية الواقعة على ثلاث قوائم والمشكولة قائمتها الرابعة مع إخفاء السيف واجتناب ضرب الرأس فيمر السكين بأسفل العنق، فهنالك حلق محمد شعره بحد سهم عريض قاطع فعلقه على فروع شجيرة شائكة لكى تنثره الريح بين الجمع، فتم الحج بذلك.

---

(1) جاء فى سفر التكوين فى أمر إسماعيل: "سأجعله أمة عظيمة" (انظر ١٧/٢٠و ٢٠/١٣ و ٢١/١٨)، وقال القسيس دوبروغلى فى كتاب "مطالب تاريخ الأديان": "قد يكون تقدم الإسلام تنفيذاً لما وعد به أبو المؤمنين".

(2) الجمرات: جمع جمرة وهى الحصاة.

الفصل الرابع والعشرون

الوفاة (٦٣٢)

"من كان يعبد محمد فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"

"والوحى يأتينى أيضاً*!"، هذا ما كان يقوله الاسود العنسى فى اليمن فى ذلك الحين.

لم يكن للعرب رأى قاطع فى أمر الدين، فقد ارتد عن الإسلام فى شهر واحد عرب جنوب الجزيرة الغربى متبعين الاسود العنسى المشعوذ الذى استولى على نجران النصرانية ودخل صنعاء، وخضبت دماء كثير من الماشية ميدان البلد فى الليل على ضوء المشاعل وصوت الموسيقى الجافة، وألصق الأسود أذنه بالأرض ليسمع صوت العفريت الذى يوحى إليه، وهرب عمال النبى من هناك إلى المدينة، وادعى مسيلمة النبوة باليمامة الواقعة على شاطئ الخليج الفارسى وفتح جنوب الجزيرة الشرقى، وزعم أن جبريل يبلغه سوراً غريبة، فيعرض سوراً مقلداً القرآن فيها كالتى وصف الفيل فيها بأنه ذو خرطوم طويل وذنب قصير مقدراً للروح منزلاً مزرياً، وادعت النبوة امرأة من بنى تميم، فتخلص مسيلمة من منافستها له بأن أصبح عاشقاً لها.

أكان ذلك انهياراً؟ أولى الأعراب من الإسلام فراراً، حتى يكونوا للكذابين أنصاراً؟

بلغ مسيلمة من القحة ما كتب به إلى النبى: "كلانا رسول الله فنقتسم العالم*"، فاسمع جواب النبى إلى مسيلمة الكذاب: "أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين"، وبلغ محمد من شدة المرض ما لم يطفئ معه فتنة الاعتصاب، وساعدت زوجة الأسود العنسى على قتل زوجها هذا وهو نائم، فخار كالثور[1]، فابتدر الحرس إليه، فقالت لهم زوجته هذه: "النبى يوحى إليه!"

وإن الجيش الذى جهزه النبى، ففرضت قيادة الشاب أسامة بن زيد عليه بصعوبة، ليستعد للزحف إلى دمشق إذ أصيب النبى بمرض شديد يرجع أصله، كم يظهر، إلى المياه غير الصحية وإلى التسمم فى خيبر، فصار يخلط فى كلامه ظاناً أنه سحر مبدياً هوساتٍ

http://www.al-maktabeh.com

[1] خار الثور: صاح.

جنسية غريبة، وإن النبى لفى غم وذعر، ذات ليلة، إذ انطلق ومعه خادم له إلى المقبرة مهنئاً الأموات مما أصبحوا فيه من السلام.

نهك المرض النبى، وهو فى بيت زوجته ميمونة أخت زوجة عمه العباس بعد أن مكث به سبعة أيام، فلو مات فى بيتها لكان لتاريخ العالم وجه آخر على ما يحتمل، فالذى نراه أنه كان يدور حول النبى المحتضر نزاع صامت خفى شديد، فقد علم العباس الذى كان يقرأ علائم الموت على وجوه بنى عبد المطلب دنو أجل ابن أخيه فود أن يموت النبى فى بيت ميمونة لما فى ذلك من النفع لبنى هاشم، ولكن الفريق الآخر كان غير غافل، فكان لأبى بكر وعمر، اللذين قد يكونان متعاهدين، وقد لا يكونان، بابنتيهما عائشة وحفصة المتفاهمتين ضد أزواج النبى الأخرى وسيلة استعلام لا تقل عن وسيلة أولئك، وما كان ليصعب جعل النبى يمرض فى بيت عائشة ما دامت زوجته المفضلة.

استأذن النبى نساءه فى أن يمرض فى بيت عائشة فأذن له فنقل إليه مزملاً، وأخذ أبو بكر وابنته عائشة يرصدان مرض النبى، فإذا ما طلب النبى رؤية أحد من آله كعلى أو العباس ذهبت عائشة تبحث عن أبيها أو أخيها عبد الرحمن الحديث العهد بالإسلام.

وطفقت عائشة تساعد النبى على وضع يديه على جسمه لينفث على نفسه بالمعوذات ويمسح عنه بيده، وطفقت عائشة تنفث عليه بالمعوذات التى كان ينفث بها، وطفقت عائشة تصب عليه الماء الكثير من القرب تسكيناً للحمى، وكان يغمى عليه كثيراً ورأسه على فخذها، وكان يقول: "ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلته بخيبر، وهذا أوان انقطاع أبهرى[1] من ذلك السم" ، وكان النبى يئن ويتقلب على فراشه ويقول: "لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات اللهم أعنى على سكرة الموت"، وكانت عائشة تلومه على كثرة تألمه بقولها: "كنت تلومنا عندما نصنع مثل ما تصنع*".

---

[1] الأبهر: عرق إذا انقطع مات صاحبه.

٤٠٨٦٤٣

وكان النبي يهمهم كالصبي إذا ما لد[١]، وحدث أن شعر بتحسن قليل في صحته فخرج من بيته إلى المسجد حيث كان المسلمون مجتمعين للصلاة، فقال بعد أن صلى:

"أيها الناس، من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد[٢] منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ألا إن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة".

فأدعى عليه رجل بثلاثة دنانير فأعطاه عوضها من فوره:

ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم، ثم قال:

"إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله".

ثم عاد إلى بيته فأعتق مواليه، وتصدق بما عنده من النقود على الفقراء قائلاً "ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه؟"

تفاقم مرض النبي في يوم الخميس المصادف ٨ من ربيع الأول، وانقلب إلى حشرجة وغشيات طويلة مع فترات صحو مدة أربعة أيام، فعدل أسامة بن زيد عن الزحف ليعود النبي الذي أحبه أبوه كثيراً، فلم يسطع النبي أن يصنع له غير رفع يده، ثم شعر النبي، بعد هذه الزيارة الصامتة، بشيء من القوة فقال:

"إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً".

فقال عمر بن الخطاب: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله".

واختلف الحضور وعلا جدالهم، فلما أكثروا للغو والاختلاف قال النبي لهم: "قوموا، ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف".

---

(1) لد المريض: إذا جعل الدواء في شق فمه.

(2) استقاد فلان الأمير من القاتل فأقاده منه: طلب منه أن يقتله ففعل.

وماذا أراد النبى أن يكتب فى مرض موته؟ وما فائدة معارضته فيما أراد سواء عليه أغلبه المرض أم كان فى حالة صحو تام؟

قال ابن عباس: "إن الرزية[1] كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم".

أذن بلال،وكان لمحمد من مرضه ما يمنعه من الصلاة بالمسلمين إماماً، وبدا زاهداً فى ذلك، وعملت عائشة وحفصة على أن ينيب عنه فيها أبا بكر أو عمر فأرسل أبا بكر، ثم ساوره القلق ثم تحسن قليلاً فاستطاع أن يتوضأ مالكاً حواسه وأن يخرج إلى المسجد معتمداً على على بن أبى طالب والفضل بن العباس (ومن هنا ترى هذين الهاشميين قد حضرا ليوازنا نفوذ عائشة وحفصة): فلما دخل المسجد وقوبل بالهتاف، فأرادا أبو بكر أن يترك له مكانه، فأشار النبى عليه بأن يظل حيث كان، وصلى بجانبه.

ثم رأى المسلمون وجه نبيهم مرة أخرى يوم الاثنين، فقد رفع الستار، فبدا النبى فى باب غرفته إلى المسجد مبتسماً، فاختل نظام الناس فأشار عليهم بأن يعودوا إلى الصلاة ففعلوا مستبشرين.

ولكن ملك الموت، عزرائيل، قد حضر، فبدأ النبى يحتضر، وكان رأسه فى حجر عائشة، وكان عنده قدح فيه ماء فيدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه ثم نصب النبى إصبعه وقال:

"اللهم الرفيق الأعلى".

هبطت يد النبى بعد أن قضى بين سحر[2] عائشة ونحرها مختاراً الرفيق الأعلى من الجنة[3]

---

(1) الرزية: المصيبة العظيمة.

(2) السحر: الرئة، أى إنه كان مستنداً إلى ما يحاذى الرئة من صدرها.

(3) كانت وفاة محمد عامل ارتباك عام، فهو لم يضع نظاماً للخلافة، وكان فى الميدان لربعة أحزاب: (١) فرق الأنصار من جهة وفريق المهاجرين من جهة أخرى، وقد كان هذان الفريقان مقسومين إلى: (٢) حزب ساعدى النبى الأيمنين أبى بكر وعمر اللذين كانا والدين لزوجتين من أزواج النبى، ويمثل هذا الحزب العامة، (٣) حزب بنى هاشم

وعلى رأسه أقرباء النبى على وفاطمة والعباس- (٤) حزب بنى أمية الأشراف وعلى رأسه صهر النبى عثمان ووالد إحدى زوجات النبى أبو سفيان ومعاوية.

ووجد الأنصار سنوح الفرصة فى زعزعة إشراف ضيوفهم الوثيق فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة برئاسة سعد بن عبادة، وذعر المهاجرين فأنزووا، وكان أبو سفيان غائباً وظل عثمان فى بيته، وبحث أصدقاء على عن الملجأ عند فاطمة، وتمنع بنو هاشم بغرفة المتوفى.

أخبرت عائشة والدها أبا بكر بالأمر قبل حدوثه، فحضر فارساً راكضاً فقبل وجه النبى المتوفى باكياً، واصطدم وهو خارج بعمر الذى كان يهز سيفه مهدداً بقتل كل من يقول إن محمداً قد مات، وكان الجمهور على رأى عمر، فخطب أبو بكر الناس قائلاً: "أيها الناس من كان يعبد محمد فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت"، ومما لا ريب فيه أن أبا بكر أنقذ الإسلام بوضعه، وأذعن عمر لما حدث، وكانت هنالك أمور ملحة تدعو إلى العمل، فترك هذان الصاحبان الجثمان متوجهين إلى حيث كان الأنصار مجتمعين، فأسفر هدوء أبى بكر وانقسام أهل المدينة وغياب بنى أمية وغفلة على وتردده مستنداً إلى حقه عن مبايعة أبى بكر بالخلافة من فوره بعد خطبة لبقة نطق بها ومؤازرة عمر له.

قال على لأبى بكر: "إنك لم تبال كثيراً بوفاة رسول الله*"، وظل جثمان النبى متروكاً تقريباً، وغسل بنو هاشم النبى وكفنوه فى ثلاثة أثواب ودفنوه بعد ست وثلاثين ساعة من وفاته مع أن العادة كانت تقضى بالدفن يوم الوفاة، ولم يحضر أبو بكر وعمر الجنازة وطرح عمر أبا هريرة واقتحم بيت فاطمة وكاد يتضارب هو وعلى، وغضب فاطمة وهددت بفك شعرها علناً ندباً وفضحاً، وأعلن أبو بكر أنه لا وارث لنبى حينما طالب على بميراث حميه، وتوفيت فاطمة البائسة بعد بضعة أشهر معربة عن ارتياحها لترك عالم جائر ديست فيه حقوقها بوقاحة، وتزوج على غير مرة بعدها، وصالح أبا بكر وانتخب خليفة بعد عمر وعثمان.

ثم حدث اقتتال الصحابة واقتتال السنية والشيعة واقتتال الأمويين والعلويين واقتتال الوصوليين والمثاليين، وكان ما تعلم من إنهاء العباسيين الأبناء الوارثين لعم النبى ذلك بما فيه فانتهم على حين داوم الأنصار المنهوكون على شأنهم فى التضحية متفرغين للتفسير وعلم التوحيد، وما وقع بين أقطاب الإسلام من نزاع وما أسفر عنه من اختلاف يؤلم المؤمنين؛ فلا يخوضون فيه لما يرونه، على ما يحتمل ، أمراً بشرياً مقدراً صادراً عن المشيئة الربانية، وما كان من إقصاء على والعباس غير العمليين بدرجة الكفاية، وما كان من إقصاء سعد بن عبادة، الذى كانت تؤدى خلافته الأنصارية إلى تحويل الإسلام إلى طائفة صغيرة لا يعدو أمرها نخيل المدينة لو تم له الأمر، وذلك كله لمصلحة أبى بكر الرزين، أمور أسفرت عن تمهيد طريق النصر لعمر الفاتح، بعد القضاء بحزم مشهور على حروب الردة التى لا ضلع للأنصار فيها.

الشخصية المحمدية

كتاب « الشخصية المحمدية» مشرق الأسلوب
واضح الترجمة ، حافل بتلك السيرة العظيمة ،
تناولناه للتصفح ، فإذا بنا لا نستطيع طيه
قبل إتمام قراءته صفحة صفحة وجملة
جملة ، بحث غزير منسجم وسرد بديع
وانتقال فى أرجاء تلك الحياه العامرة الأخاذة ،
للباحث كفايته من البحث ،
ولمحب الرواية حاجته منها ،
ولتلميذ التاريخ مجاله الرحب ،
وللقارئ العادى ما شاء من فائدة .. (الدفاع) .

الشخصية المحمدية

http://www.al-maktabeh.com